

مكايته  
الحبل بلا دنس



رقم الإيداع: 2021MO3995  
ISBN: 978- 9920- 570- 01- 5

الطبعة الأولى: 2022

جميع الحقوق محفوظة بموجب اتفاق

وليد الفاهوم- حكايات الحبل بلا دنس- فلسطيني

دار فضاءات للنشر والتوزيع- المركز الرئيسي

عمان- شارع الملك حسين- مقابل سينما زهران

تلفاكس: 4650885 (6- +962) هاتف جوال: 911431 - (+962)777

ص ب 20586 عمان 11118 الأردن

E.mail: [Dar\\_fadaat@yahoo.com](mailto:Dar_fadaat@yahoo.com)

Website: <http://www.fadaat4publishing.net/>

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر.

---

تصميم الغلاف: فضاءات للنشر والتوزيع

الصف الضوئي والإخراج الداخلي والطباعة: فضاءات للنشر والتوزيع

---

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي دار فضاءات للنشر والتوزيع.

وليد الفاضل

# مكايته الحبل بلا دنس



فضاءات  
للنشر والتوزيع



كل "فاطمة" وأنت بخير يا وليد!

تقطمنا ونحن نحبو، فهي الفاطمة ونبقى نبحت عنها، يوما عائشة وليلى  
وسعاد ولارا وفرزنده.

نبحت عن فردوس، توهم كل يوم بأننا في أعرافها، في الحاجر.  
مع أننا وإني بالذات سوف لن أصل إلى حاجر الحاجر، لا لأنّ خطايائي  
كثيرة، وإنما لعدم تمييزي بين الخطيئة والحسنة.

المهم أننا سنبحث، وأبحث لخوفي من الغربة والوحداية.

من أخيك

معاذ الألوسي (بغداد ونيقوسيا وليماسول)

2000



## الفهرس

- عن فاطمة ..... 9
- عن فاطمة والعولمة ..... 15
- عن الحكاية التي لا تنتهي ..... 19
- عن أزمًا أزماتون ..... 35
- عن وهم لوط ليسبوس وفعل القتل ..... 43
- عن المومسات ..... 49
- عن سبيروس ..... 55
- ليزيستراتا ..... 63
- ليزيستراتا وبراسكوس ..... 69
- هو الذي رأى ..... 77
- عودة ليزيستراتا ..... 83
- المستقبل الذي يتحكم في الماضي والحاضر ..... 83
- لماذا حينتم رؤوسكم حتى الركب ..... 89
- (1) (نص) ..... 89
- (2) (تناص) ..... 101
- أسطورة أثينا وحقيقة الديمقراطية ..... 107
- أسطورة الديمقراطية ..... 111
- الرئيس الذي عاش ..... 115
- قبل عشرة آلاف سنة ..... 115

- حِجَم بحريّة.. سيرينات..... 119
- سيريناد ..... 121
- السيرينا ..... 123
- حياة يسوع ..... 125
- بين هيجل وتوين وكازانتراكس ..... 125
- كولم توين ..... 127
- كازانتراكس ..... 129
- سوق القحاب ..... 131
- نسّاجة ما بين الناصرة وبغداد ..... 139
- حكايات موسيقية ..... 149
- (1) ريميتيكا- العصيان الريميتي ..... 149
- (2) إنكي وميوز ومزيقا والذي يفقد الحس بالموسيقى ..... 159
- (3) عندما يموت المغني ..... 167
- الرحلة التي لا تنتهي ..... 171
- الميلاد العذري: الرحلة والارتحال ..... 177
- رحلة لا تنتهي ..... 189
- وحكاية لا تنتهي ..... 189
- وهذا الكتاب ..... 195
- الهوامش ..... 199



## عن فاطمة

قال لي: وجدتها (ثم أكد قوله) وجدتها واهتديت إليها!

قلت: من؟

وحلّت عليه ثقة مفاجئة... بنفسه أولاً (وقلّمَا كان يثق بنفسه، ربما بسبب توتره عالي الذبذبات)، وبـي ثانياً وبكل ما يحيط بنا ثالثاً.

وكان حديثه مباشراً بدون لفّ أو دوران.

- الزانية الطاهرة.. المومس العذراء... إنها بيننا.

كانت كلماته مفاجئة مثل ثقته بي.. تلفّت حولي لعلّي أجدها كما وجدها هو.. لكنني لم أجدها، ولم أر أحداً على الرغم من كثرة الخلق حولنا. قلت في نفسي: لعله وجدها فعلاً لأنه كان قد كتب مؤخراً قصة عنها.

ربما تكون من بنات أفكاره.. كائنًا من الخبر الأزرق!

حرّت في نفسي، والحيرة أُمّ السؤال.. ما أكثر شخوص القصص والحكايات التي تُكتَبُ أصحابها، وتقوم معهم في الصباح.. تشرب القهوة معهم.. ترافقهم إلى العمل... تحاورهم ويحاورونها كلما تسنّى لهم ذلك، تنام معهم نومة قيلولة، ثمّ تسهر وتؤانسهم في وحدتهم وتنام إلى جانبهم وفوق صدورهم أحياناً، حتى تتجسد وتخرج من المحبرة الرقمية كما يخرج الجنّي الأزرق من القمقم.

سألته على الفور مميّطاً اللثام عن غموضه وحيرتي:

- من فاطمة؟ وهل هي كائن حبري أم بشري؟ وهل هي (فاطمة) تلك القطعة الموسيقية لعمر خيرت؟

- أولاً هذا لا يهم، وثانياً الاسم غير مهم... الأسماء لا تعني شيئاً، هي أعلام للدلالة فقط، ربما يكون اسمها كذلك وربما لا يكون.

- وإذا كانت فاطمتي تختلف عن فاطمتك وفاطمتك تختلف عن فاطمة ناجي العلي التي لا تعرف الفرح، غزيرة الدمع. لكل فاطمته. لقد صادفتها بإحدى قراءاتي. كما وتختلف عن فاطمة الألوسي التي تطفمنا.. ونظّل نبحت عنها، فلا نصل حاجرها ولا نميّز بين الخطيئة والحسنة. وتختلف عن فاطمة محمد نفاع التي خلقها الله من بياض الثلج، والتي تدافع عن حقها بصرمايتها وببصاقها حتى لا (يدقم) فيها أحد. فاطمة التي لاسمها هيبة خاصة، فاطمة التي سرقت قلوب الصغار، السواعير قبل الكباش. فاطمة التي كان صاحبنا (يُحبرم) حوالها على برزح الحلال والحرام ويتساءل بعناد ثورٍ أحمر: ما هو الحلال؟ وما هو الحرام؟ وما هو الحدّ الفاصل ما بينهما؟ فطرح ذلك السؤال الذي طرحه الألوسي دون أن يعرف أحدهما الآخر.

فاطمة التي تتكئ على غزارة اللغة تارة بيضاء الثلج وتارة أخرى قمحية.. تُلبب بشفيتها وتحلم أنها تعشب.... نهذاها ناهضان بشدة يتوثبان للطيران كفرخي حمام أبيضين نهديين، تتجلى فيهما خطوط زرقاء تبقى تدق وتشف حتى تتلاشى، مثل نوار اللوز البري، وعيونها زرقاء مثل نوار العلت، ومثل عيني صبحه، بقرة طه محمد علي، شعرها خروبي وحواجبها مثل السيوف المحنية... وهي تأبه ولا تأبه لكلام الناس الذي لا يرحم. فاطمة هذه تقف كالمهرة الأصيلة الجامحة أمام مأمور التسوية تدافع عن أرضها، ولا تساوم أبدًا على حقها في حقلها. ويقف الرجال الرجال في صفها لأنها تصبح عند هذا الحدّ عرض البلد.

- أي هي حسناء حبرية!

قال هذا وصدئ صوته كما يصدأ الحديد، ثم غابت ملامحه وتابع:

- هات ما عندك!

وساد الصمت لبرهة، هبطنا بثقل عن درجات تلك الدارة.. وصاحبي يتلّكع، ويتمطّ ويتسحب، درجة درجة. هو ينظر إلى البعيد البعيد وأنا أنظر إلى ما يحيط بنا ولا أرى شيئًا.

وقرفصنا على الدرجة الأخيرة.. بدأت أنكش التراب ما بين البلاطة والبلاطة بعود جاف، وهو يجمع أوراق الغار ثم يبعثرها.. ومن فوقنا كانت تلك الشجرة الوحيدة، وارفة الظلال، دائمة الخضرة، فريدة من نوعها وغريبة عن ذلك الجو الإسمنتي بتلك المدينة ذات البيوت البيضاء الكالحة من فعل رمادية الزمن. تكلح المدن إذا لم تجد شبابها.

قلت له مقطّعا حبال الصمت بدينا ميث الوعي المفاجئ للذاكرة النشطة، والذاكرة أشطان بئر نمتحها رويداً رويداً بدون ملل اللانهاية، فالبئر عميقة بدون قرار والمياه في اللاقرار مزيج الأمزجة من مياه الجمع ومياه النبع ومياه الغمر ذات الأصل الواحد والمصدر الوحيد.

الذاكرة حالة راكدة تنتظر دائما من ينبشها وما يحركها.

وهي في ركون متحفز باستمرار، ويل للإنسان الذي لا يستفز وويل لصاحب ذاكرة لا يجد من أو ما ينبشها، خاصة كانت أو جماعية، يتجمد ويأسن وعلى حافة شفير يكون.. أقرب إلى شفير حالة الموت وأبعد عن الحياة المتحركة باستمرار صعوداً وهبوطاً وجرياً كمياه النهر الإغريقي.

قلت: فاطمة يا صاحبي هي كل امرأة في المغرب العربي بالنسبة لغير العرب ممن استعمروه، أذكر ما قاله عنها محمد شكري المغربي في رائعته الخبز الحافي، ثم غونارايكيلوف السويدي في الحكايات التي رواها في ديوانه "حكاية فاطمة".

... بغت فاطمة لتسد رمقها، خشية إملاق، وقد أحاطها من كل جانب، كان بغيها هذا نتيجة طبيعية لظروف الفقر والفاقة والقهر والجهل والحرمان.

... ولم تكن حاجة ليدق بابها أحد، فأبوابها مشرعة، لا حاجة لأن يوصد الفقراء أبواب بيوتهم، لا شيء فيها عليه القيمة.. ما دام الإنسان بلا قيمة.

النشوة جوع، والشهوة جوع، والجوع كافر، والكفر على أنواع.. كفر الفلاح الأرض أي قلبها وزرع البذور، كفر التاجر ماله أخبأه في باطن الأرض لينبت الربا... والتجارة على أنواع. وعلى الرغم من أن هم التاجر يكمن في بيع السلعة وفي الربح إلا أنه لا يطمئن عادة للزبون الذي يكثر من الجدل والمفاصلة.

فاطمة اتخذت لنفسها منهجاً؛ على من يُكثر المفاصلة وعلى من لا يفصل بتاتاً ان يدفع مقدماً. فالأول يدل على طبع خسيس والثاني أحسن... يبعث على الشك والريبة. كلاهما يستدعيان الحذر. وكثيراً ما حدث لها أن تمّ استغلالها فلا هي أكلت ولا هو دفع.. يللم ثيابه وينطلق كالسهم هارباً من دفع التزامه حيال أقدم بضاعة في تاريخ البشرية.

إذاً كان عليه أن يدفع مقدماً... ويدفع ذلك الفرنسي مُقدِّماً... وبعد أن يفرغ ما بظهره من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب.. يتحایل عليها ويسرق مرتين من بضعتها ونقدها. يولي الأدبار عن عمد وعن سبق إصرار.. يزيد لها قهراً على قهر! قال: يحسبها شطارة، والشطار كثار. (يبتسم ابتسامة فاترة).

انتصر عليها بالغش والخداع (يكزّ على أسنانه) الحرب خدعة! (أسمع صرير أسنانه). قلت: من البغيّ هنا: هو أم هي؟ هكذا سأل أيضاً محمد شكري. قال: واضح واضح واضح!

قلت: والأنكى من هذا أن ذلك الخسيس يصنع من فعلته نكتة.. يحدث صديقه مغشياً عليه من كثرة الضحك ناقلاً عدواه إلى ذلك الصديق، والمقهورة تبكي.. تأكل خبزها بالدمع معجوناً.

قال: وإذا المقهورة سُئلت بأي ذنب قُتلت؟

قلت: قتلها القهر، وإذا المقهورة وُئدت سعادتها.. فقد أخطأ من قال أن لا حاجة للفقراء أن يوصدوا أبواب بيوتهم. عليهم إغلاقها بإحكام حتى يحافظوا على سعادتهم.. أثنى ما في الوجود. تعاسة فاطمة لا توصف فقد سُرقَت مرتين عندما سُرقَت سعادتها.. عرضها وما لها. لم يعد "عرضها عرض البلد"!

قال: بل ثلاث مرات... سعادتها وسعادتها وسعادتها.

قلت: وابن الزانية لم يترك لها شيئاً غير الوجد.

قال: هي في كل مكان. هي بيننا الآن. هي على كل لسان، هي في السياسة والأدب وفي قلة الأدب.

- دعك من السياسة!
- لا انفصل السياسي عن الثقافي... أليست فاطمة هذه شرموطة طاهرة.
- موافق وماذا بعد؟
- أليس ذلك "الرجل" عاهرا وابن عاهرة؟
- نعم.. وبعدين! دفع ثمن بضع.. أشعل سيجارته ثم أطفأ الجمرة في منفعتها..
- هي مجرد منفضة وهو ليس وحيد عصره.
- سرق كل شيء.. البضع والبضاعة.. المال جميعه ورأس المال.
- وفاطمة فرد ومجموعة... وفاطمة مؤسسة! وفاطمة وطن!
- وتقول لي دعك من السياسة؟
- أقول لا انفصام بين السياسي والثقافي.. أتحدث عن مركز الثقل فقط، فالسياسي متحرك وسالب والثقافي متحرك وموجب.. أتحدث عن المزج العضوي وعن عدم وجود الانفصام.. الموجب يدوم والسالب لا يسوى شروى نقيز، ولا انفصام بينهما، بل عملية جذب والباقي في الواقع هو ذلك الخليط العضوي المتجلي في الكتابة. وحدها الكتابة تعطي اللحظة ديمومة. أكتب عن فاطمة القحبة الطاهرة! أكتب عن العشق وعن الحياة وعن الموت الزائف منه والحقيقي. مارس الحياة واكتب عنها، مارس العشق واكتب عنه، مارس الموت قبل أن يمارسك!
- الممارسة هي حقيقة الشيء.. إذن عالمك أنت.. كما تريده أنت لا كما يريده لك الآخرون. وحدك أنت تستطيع أن تشكل ذاتك. حقيقتك الأولى ووجودك.. حقيقتك الوحيدة في هذا العالم. فمنذ قرون وأنت محتل من الخارج ومن الداخل، لذلك أنت مأزوم ومهزوم.
- وبعده.. عندما تكون نقيًا من الداخل لا شيء يُلوّثك! وحين تتلاقح الأفكار وتحمل فالحمل يكون بلا دنس! عندما يحبل الذكور كما تحبل الإناث... وتحبل الأزمنة والأماكن...

أي نعم يا راشد حسين: "كانت الساعة أن يجبل مليون رجل.. علنا نرزق فكرة.. مثلما نرزق ثورة... صارت الساعة في القدس... عذارى في ثوانٍ حبلت.. في ثوانٍ ولدت.. في ثوانٍ صارت الساعة في القدس نضالا ودقيقة."

## عن فاطمة والعروة

وبعد أيضًا فقد كتب غوته قبل أكثر من قرنين: "كل تأليف يصير، عبثًا تتمكن الأرواح اللا- مقيدة أن تصبو إلى بلوغ القمة النقية. ما هو مطلوب جهد صادق، عندما نكون في ساعات ملائمة. في النقاوة وفي الصدق ما يدفع البشرية إلى عمق البداية.. إعرفوا أن كلمة الشاعر عند باب الجنة دائمًا تحوم وتقرع في هدوء.. راجية حياة أبدية".<sup>(1)</sup>

- فكرة الخلود تسيطر على الإنسان قبل وبعد جلجامش وألواح الـثني عشر. الكاتب المبدع لا يموت!

- وما هو مطلوب جهد صادق! أعتقد أن فكرة الخلود ترفض الموت.. تحفز على العمل بصدق، وعلى الخلق والإبداع، وعلى معرفة معنى الوجود.

- الله خالد لأنه مبدع. ولا وجود له بدون وجود الإنسان.

- لذلك قلت لك اكتب! أخرج من جلدك وابدع واخلق شيئًا من العدم، ولن تعرف نفسك حقًا إلا إذا خرجت منها، واتكئ على من سبقك، فإذا كانت رؤيتك أبعد من الآخرين، فذلك لأنك تتقف على أكتافهم.. والجهد الصادق يشخص المرض.

- تشخيص المرض هو بداية القضاء عليه وليس بعد الحضيض إلا النهوض.

- وصلنا.. وصلنا فانفض! وليكن معنى للوقت. نحن نلعب في الوقت الضائع.

الوقت يمضي وأظافر الزمن تمزقنا وأنيابه تنشب فينا في اللحم الحي. قتلنا الأديان والعقائد المتصارعة والمتهاشمة، قتلنا التعصب والتطرف وتصلب الشرايين واحتقان الأفكار والسوائل المنوية. قتلنا المثقفون الذين يجتمعون في ليلة سكر يخططون ويحللون ويجدون المشكلات ويضعون الحلول، لكن عندما يأتي النهار يعجزون.. إنها حالة مرضية لوعي زائف هو وعي السكر.

- "قتلنا الردة".

- قتلنا العولمة والأمية الجديدة والشركات العالمية، الأربعون حرامي العابرون للقارات وللقوميات والذين يمتلكون أسواق العالم.. يتحكم فيهم (358) ملياردير فقط ليس غير.
- أغرقنا أنهار الكوكاكولا التي وصلت إلى الصين وطمرنا أطنان الهمبورجر التي وصلت إلى الفيتنام.
- إذن مهمتنا الآن هي على الأقل أن نحافظ على أنفسنا من التلف، ومن هول العولمة وبندقة الثقافات المعلبة بشكل أنيق والملفوفة بورق السوليفان.
- خمس العالم يتحكم بأربعة أخماسه... نظام عالمي جديد فما العمل؟ فوضى خلّاقة! شرق أوسط جديد! صفقة القرن! كلها أسماء جديدة للموضوع ذاته، تدعوننا إلى المقاومة. والمقاومة تبدأ بالروح.
- وإلى العمل بجهد صادق كما قال غوتيه، بعجينة الثقافي والسياسي حتى تتخمر. ولا بأس من طول الشرح!
- دوام الحال من المحال.. حتى الثابت متحرك في ذاته. هنالك قوانين طبيعية ثابتة ومتحركة في الوقت ذاته. هذه القوانين هي أوامر الله (كما قال شينوزا). للجازية قانون وللغريزة قانون وللأرض قانون وللسماء قانون.
- الأجرام السماوية ثابتة ومتحركة منذ ملايين السنين.
- والتمرد على القانون طفرة، وفي الطفرة شيء جديد، خلق جديد، إبداع جديد. وفي كل جديد تمرد.. على القديم.. وكل شيء ينمو يحمل في طياته بذور فئائه.. إلّا الفكرة. إلّا الإبداع والحبل الفكري إنما حبل بلا دنس هو.
- وهل صحيح أننا كلما اقتربنا من الرحيل أتتنا فكرة البقاء والخلود والبحث عن سرّ الحياة؟
- ومتى لم نكن قرييين منه؟ الموت على الدوام، أقرب إلينا من حبل الوريد! الأورطي والأبهر أو الوتين.



- وحين نرحل عن هذا العالم لا يبقى منا غير الأفكار.. لكن كيف لي أن أخرج من جلدي وأنا في داخله.. وفي داخل هذا الجسد؟ "الجسد لا يحرق الروح.. الروح هي التي تحرر الروح"! وتحرّر الجسد أيضاً، نحن نصمد ونقاوم ونقاتل ونتصر بالروح. الفكرة حين تغادر الجسد لا تعود، والجسد حين يغادر الفكرة لا يعود، بل يتجدد "تحت قوانين عظيمة، أبدية ومحترمة، علينا جميعاً.. تكتمل دوائر وجودنا.

- "وحده الإنسان يقوى على المستحيل: فهو يُميّز، يختار، ويوجّه.. ويُقدر أن يُعير اللحظة ديمومة". (2)

- الله الله يا غوته! وسنبقى في أذهان الآخرين الباقين كما بقي هو وغيره من الخالدين. أخرج من جلدك، فالمحامة سرقت منّا أديباً! كما قال صديقك عيسى لوباني. وستبقى فاطمة الفكرة تنتقل من جيل إلى جيل من زمان إلى زمان ومن مكان إلى مكان.

- فكرة الجسد الذي جاء ليعطي ويأخذ، وفكرة الجسد المقهور الذي سُرقت منه السعادة والطهارة والحبل بلا دنس الآخرين. إذا كنت نقيّاً في داخلك لا شيء يلوّثك!

- وكأني به يعتبرها قوى سماوية فيها يقول:

"أنت تأتين بنا إلى الحياة.

أنت تجعلين المسكين يذنب

ثم تتركينه للوجع

لأن كل ذنب على الأرض ينتقم من ذاته". (3)

- إنها فكرة الزانية الطاهرة.. الفكرة التي تحبل بالفكرة، فإذا كانت نقيّة لا يمكن لدنس الآخرين أن يلوّثها.. هي حكاية الأجيال: فاخرج من جمجتك ولا تكن كما يريد لك الآخرون أن تكون كالسياسي.. إنّما كن كما تريد انت. أن تكون كالثقافي.. هذه هي الحرية.

- فأيهما تختار؟

- أختار.. أختار الزانية الطاهرة!

وتضاحكنا من شدة الأزمة ووطأة الزمن، وقد غربت الشمس أو كادت وتابعتُ وتابع، وكأنا على موعد مع الكلمات: شرط ألا تكون مثل ذلك الفرنسي الذي خدع فاطمة.

وافترقنا وهو يرددّ قولة أبي دلالة.. ويلتفت إلى نابليون بونابارت عندما غزا مصر وأشهر إسلامه:

"إذا لبس العمامة كان قرّداً وخنزيراً إذا نزع العمامة".

## عن الحكاية التي لا تنتهي

وغادر صاحبنا واختفى خلف الغمام.. ثم عاد بشكل آخر. شكل غونار إيكيلوف، الذي حدثني وإياكم عن "حكاية فاطمة" .. الحكاية التي لا تنتهي.<sup>(4)</sup>

تبدأ الحكاية بعد أن سلّمتها أمها "القوادة"، لأحد الأمراء ذوي الشرفات العالية، مقابل المال. فتسقط كمومس وتعيش حياة القلق والخوف من الآتي.. تبيع لنفسها كل الألوان "من أجل لقمة لنا جميعاً".

هي امرأة سوداء... ساذجة... مألوفة.. ذات عيون تركمانية مجرّبة... سوداء صوفية خاشعة بحنان غامر.. مكتنزة اللحم جميلة رشيقة القوام. يتعشقها الرجال.

"تمد يدك لخمّارها

فتتحسس تحت الرداء خنجرا،

مقبضه، تحت جيب النهدة الأيسر،

بشيء قليل،

وتحت جيب النهدة الأيمن

كلُّ شيء يؤول إلى رماد.."<sup>(5)</sup>

جاءت فاطمة جونار.. هي ليست فاطمة ابنة علي من حمولة الفاهوم التي كانت تسكن في إحدى قرى حوران هي وحمولتي صبري وابن حسن الأغني والأكثر نفوذا في قرية دير توما. فاطمة تلك التي باعها أبوها من خلال زواج غير متكافئ.. من عبد محمود صبري وهي ما زالت ابنة عشر سنوات وهو.. رجل أربعيني وله زوجتان وجيش من الأولاد. وما استلم علي مقدّم مهر فاطمة حتى انطلق بابنه ناصر إلى مستشفى دمشق للعلاج. ثم مات شقيق فاطمة هذه ولم يسعفه مقدّم مهرها وماتت زوجة عبد الثانية بعد أن حرق

نفسها وهجرته الأولى إلى قرية قريبة ... اختلفت فاطمة مع ابنها محمد في رحلة البحث عن حياة جديدة... تطرق بوابة قصر البارودي في دمشق... وفاطمة هذه ليست فاطمتي هي كالحصان الجامح متقلبت المزاج صعبة الطفولة وعديمة الشعور بالأمان وأقرب إلى الشر من الخير... متمردة كما تصورها سعاد العامري في رواية "دمشقي" تكره أن تكون خادمة.. هي متسلطة عاملة في بيت البارودي مدبرة منزل مكتفية بصفة التمرد والتنمر. وفاطمة هذه لم أجد لها ولا لأبيها علي أثرًا في شجرة عائلتي ولا أعرف كيف وصلت إلى دير توما وما إذا كانت تنتمي إلى قبيلة الحويطات التي يعود نسبها إلى أبي عبيدة ابن الجراح بحسب الشجرة وفاطمة الفاهوم تشبه ولا تشبه فاطمة جونار التي جاءت إلى مدينة صاخبة.. تترنح تحت وطأة غربتها.. حتى عن ذاتها. لا قيمة لحياتها. والكلام حولها كثير والشائعات مثل "نهر الدم".

وفي زحمة السوق يأتيها الباحثون عن أنفسهم فيها، هي طافية على موجة منكسرة.

لا تنتهي الحكاية. هي تبدأ حيث تنتهي..

لأنّ الإنسان سجينٌ وقته وظرفه، والرجل صياد بطبعه يدور حول الطريدة.. يدوران، دائمًا، الواحد خلف الآخر لكن "دائمًا يبقى الأخير أولًا".

حين تشيخ فاطمة وتصبح عجوزًا شمطاء حيث لا ينفع ولا يجدي أي طلاء، تموت في فرح صوفي، تستسلم للموت وتعود فتتجدد.

"صار الليل نهارًا، والنهار ليلاً، وكم يعقب الليل النهار".<sup>(6)</sup>

فاطمة تتكرر عبر الأجيال.. تختفي وتظهر، تغيب وتحضر.

"الآن وقبل الآن، أو قبل ألف عام.."

وفاطمة ليست ظلاً لأحد. آنيثها أكثر عمقاً من آنية عشتار، ربّة العشق والخصوبة في

بابل.. بابل..

باب إيل.. باب الله.

وحين ألقى أحد ما في عمقها وردة، "بعضو عظيم القوة أكثر مما يُحتمل" لم تدر ما تفعل.. بما تعترف وبمن تعترف.

حكايتها لا تنتهي.. لقد مسها ملك النور وفي ذات اللحظة اضطجعت مع ملك الظلام.. حملت وولدت توأمين من رجلين مختلفين. هي ابنة البشر.. لا تستطيع التفريق بينهما فأحدهما كان الخير والثاني كان الشر!<sup>(7)</sup> حسنة وخطيئة بكلمات الألوسي أو حلال وحرام بلغة نفاع.

وحكاية فاطمة لا تنتهي.. تختلط الأمور عليها، وعلينا. إذن من تكون فاطمة؟ أهى الإنسانية المعذبة التي ولدت الخير والشر ولا تستطيع التمييز بينهما؟ أم هي فاطمة سالم جبران التي لا تفلسف الأمور.. تعيش اللحظة بدل أن تفهمها وتخفى الديناميت بين نهديها لكي توصله إلى المقاومة. هي زوجة الثائر الذي لا يخون وهي الحاضرة الغائبة وهي كالأشعار التي لا يمكن سجنها أو لجمها.. حين يجوب الغزاة بلادها.

ابنة البشر هي، لا الآلهة.

هي ليست الإلهة الثانوية "نسون" البقرة الوحشية والددة جلعامش "الذي رأى كل شيء إلى تخوم الدنيا.. وعرف كل شيء وتضلع بكل شيء"، والذي حملت به أمه نسون من لوجال بنداء، الرجل العظيم، ملك أوروك السومرية قبل أربعة آلاف سنة. ويقال أيضاً أن نسون كاهنة حب كانت، حملت به من الكاهن الأكبر ليلسة العرس المقدس في معبد عشتار.<sup>(8)</sup>

وفاطمة ليست "إنانا" إلهة الوركاء الرئيسية في سومر وربة الخصب، وليست عشتار الحب والخصوبة في أكاد. وما أشبه النصوص.. وإن كانت "إنانا" قبل أكثر من خمسة آلاف عام. ما أشبه النصوص حين يكون الجهد الصادق.

"تعتزم "إنانا" زيارة "أنكي" إله المياه والحكمة. يقول النص: "إنانا" وضعت على رأسها الشوجارا، تاج السهول، وجاءت إلى حظيرة الأغنام، جاءت إلى حظيرة الراعي. هناك أسندت ظهرها إلى شجرة تفاح، حيث برز فرجها فتنة للناظرين.

ابتهجت "إنانا" بفرجها وأثنت على نفسها قائلة: "أنا ملكة السماوات، سوف أزور إله الحكمة، سوف أمضي إلى الآبسو، المقر المقدس لأريدو".<sup>(9)</sup> والآبسو هو المخزن العميق.

هكذا كان منذ نيّف وخمسة آلاف سنة. فهل تغير شيء؟ ما أشبه النصوص المقدّسة! وفاطمة هي فاطمة، ليست والدّة سرجون الأول ملك كيش ثم مؤسس أول امبراطورية في التاريخ حوالي 2250 ق.م في أكاد حيث يقول النص قبل أكثر من 4800 عام:

"أنا سرجون الملك القوي. وُلدت من أمّي العذراء البتول. أمّا أبي فلا أعرفه. ولدني أمّي في بلدة أزورياني على نهر الفرات، ثم أخفّنتني بمجرد ولادتي في مكان خفي. وبعد ذلك وضعتني داخل صندوق وطرحني في الماء.

وحملني الماء إلى السقّاء عكي، واحتضنني عكي بقلبه الرحيم، وجعلني بستانيا لحداثقه. وأبصرني عشّرتوت وأنا أعمل في الحديقة وأحبّنتني وجعلتني ملكاً".<sup>(10)</sup>

وكانت أمّ سرجون هذه مُستنشئة، كاهنة معبد، كاهنة حب. فهل تغير شيء؟ وفاطمة هي فاطمة. ليست كذلك والدّة هرقل البطل الأسطوري الإغريقي.. والتي حملت به أمه من كبير الآلهة زيوس، ولنلاحظ مقرنصات الاسم Zeus، Deus، Dieu ولنلاحظ أيضًا ما حدث ربما لاسم هرقل.

Heraclius، Hercules=Herk- Lies

إيريك- أوروك وهي مدينة جلجامش وLies معناها أسد باليونانية أي "أسد أوروك" وهو لقب جلجامش. الرجل الذي يمشي في المقدمة أي ذؤابة القوم ويقابله الاسم دياب في العربية. وكذلك لنلاحظ ما حدث للفظ أوروك.. الوركاء.. عوروك.. العراق!<sup>(11)</sup>

مجرد إيقاعات على متن السلسلة والحلقات التي تتشكل منها الأساطير ولكي لا نسأل: هل من جديد؟ لا شيء جديد!

يظهر زيوس لوالدة هرقل بهيئة زوجها إليكترون ملك ميسينا، حين كان زيوس في إحدى نزواته، غزواته، ويطلب من الشمس أن تبطن في شروقها ومن القمر أن يبطن في غروبه ففرض معها ليلة واحدة تعادل ثلاثاً من ليالي البشر. <sup>(12)</sup>

وبعد، أليس مثل كبير الآلهة هذا كمثل ذلك الفرنسي الذي خدع فاطمة محمد شكري؟ حين تبدلت الأسطورة فأصبحت واقعاً. وكيف لا تختلط الأمور على فاطمة غونّار، فلا تعرف بمن تعترف بالخير أم بالشر، ذلك التوأم الذي حملت به من رجلين مختلفين؟ وكيف كان حملها بدنس أم بلا دنس؟ وهل فاطمة هذه كوالدة بوذا أو كريشنا الهندية؟ وهل هي والدة خريستو اليونانية أم والدة المسيح الكنعانية.. المريم (لغويًا) التي تحب معاشرّة الرجال ولا تفجّر؟ قالت: "أنّي يكون لي غلام ولم يمسنني بشر"؟ يقينا هي لا هذه ولا تلك، هي فاطمة ابنة البشر، الحامل بتوأم الخير والشر! الآن وفي كل أوان.. "الآن وقبل الآن، أو قبل ألف عام.."

حكاية لا تنتهي...

وتظل تحوم الأسطورة حول الواقع والواقع حول الأسطورة، تنغلق الدائرة. وتتشابك الحلقات، ولا كتابة خارج التاريخ علماً كان أم أسطورة. فاطمة شكري مغتصبة كذلك فاطمة غونّار، وكذلك فاطمة ناجي العلي، مع فارق بسيط، حيث يُريدونها أن تتلذذ بالاغتصاب.

وما صار شيء إلا وقد صارت قبله أشياء.. تقول الأسطورة السومرية.

"وبعد أن أخذ السماء آن - إله السماء.

وبعد أن أخذ الأرض إنليل - إله الهواء.."

كانت ولادة القمر "سين"، بعد أن يطلب إنليل من الإلهة العذراء نتليل أن تواقعها. لكنها تصده بقولها له:

"إنّ مهيلي صغير لا يعرف الجماع

وشفتيّ صغيرتان لا تعرفان التقبيل."

وتكون رغبة إنليل جاحدة، فيغتصبها في مركب النهر، فتحمل ب "سين" إله القمر..  
ويحزن إنليل لأنّ ابنه سيسكن العالم السفلي.. ولا دور لتليل غير أن تكون مغتصبة! (13)

حكاية لا تنتهي ونص يكتب نفسه! ويعود ويكتب نفسه. يعتقد أمين معلوف أن دوره ككاتب هو خلق أساطير إيجابية، وأعتقد أن دوري هو إعادة خلق هذه الأساطير وفرزها كرافعة للقيم.

حكاية لا تنتهي.. ويكون النص لغة التخاطب الإنساني، وإن تعددت الألسن، ومهما كان الإنسان موعلاً في القدم. ويكون النص مكوناً من تناصات متعددة متداخلة، حيناً، ومتنافذة حيناً آخر. وتكون الأسطورة إذا اعتمدت نصاً مقدساً، وكثيراً ما تتداخل الأساطير وترتحل في الزمان والمكان.. تتغير وتتبدل وتتحل أسماء جديدة وتولد من جديد بلا أب.. تحمل بها الشعوب حملاً بلا دنس.. حملاً مقدساً، فتعكس أحوالها المادية والروحية وتطلعاتها وكل ما تصبو إليه.

والأسطورة كما الحكاية وكما أي نص يعتمد ويتأثر بها هو سابق ويؤثر على ما هو لاحق. ويكون التناص أي كتابة نص على نص آخر.. وإعادة توزيعه وقرنصته وزخرفته ومن ثم انتحاله وارتحاله من زمان إلى زمان ومن مكان إلى مكان. فيولد النص من النص عن طريق الوعي التراكمي.

وهكذا ترتحل الآلهة أيضاً. ومثلهم في ذلك كمثّل ذلك الإله الشاب الجميل الوسيم الذي له خصائص وصفات مشتركة مع شخصية آساف العربي أو يوسف التوراتي، ذلك هو الإله السومري "دموزي" أو شاموز، الذي ارتحل من جنوب العراق إلى البابليين شمالاً فكان "تموز"، وإلى الكنعانيين والفينيقيين غرباً فغدا "أدونيس"، ثم ارتحل إلى الحثيين بآسيا الصغرى فأصبح "آئيس"، وعند المصريين أمسى "أوزيريس" وإلى فارس فهو "مشرا" أو "مترا" وإلى الدول الاسكندنافية فهو "بلدر".

وأما معنى تموز في اللغة الأكادية فهو الابن الحقيقي.. لنلاحظ كم صلته وثيقة ب "عتار" أو "عتر" أو "عستار" و "عشتار" و "عشتاروت" وغيرها من الأسماء لدى شعوب المنطقة وباقي الشعوب.



ولنلاحظ أيضًا مدى ارتحال "عشتار" في الأساطير الرافدية شرقًا وغربًا جنوبًا وشمالًا  
برًا وبحرًا.

فهي في سومر القديمة "إنانا" ربّة الجمال والخصب والحب كما هي ربّة الحرب. وهي  
في بابل "عشتار"، وفي اليونان "افروديت"، وعند الرومان "فينوس"، وهي "نانا" في آسيا  
الصغرى و"عنات" عند الكنعانيين.

و"عشارت" و"عشتاروت" في بيلوس وصيدون عند الفينيقيين وهي "أثار غاتس"  
أو "بارت" عندهم أيضًا في الفترات المتأخرة.. ومنها جاء اسم مدينة بيروت. وهي هي  
ذاتها "العزى" و"عتر" ربة البتراء وكوكب الصباح أو "الزهرة" الحُمراء كما أسماها  
العرب والعرب الأنباط.. واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى في الحجاز كما أفروديت  
"عفروديت" هي الزهرة، ذوات الصفات والخصائص نفسها.

وفي تتبع هذه الارتحالات، ذات الصفات تحملها هذه الإلهة الأم.. الحب والجمال  
والخصب، وهو الوجه الباسم. ونرى الحب والكبرياء العنيفة والدمار، وهو الوجه  
الغاضب لهذه الأم، وعظمة الألوهية تتجلى في أنها تحمل ضدين.. الحياة والموت؛ الخصب  
والعقم، الحب والكراهية.. وهي صفات إنسانية أودعها الإنسان في الآلهة حتى يرتاح  
قليلاً من عناء الحياة، وخزنها في الأسطورة.. عصارة الفكر الإنساني المتحرك، فتحرّكت  
معه كلّما تحرك وارتحلت كلّما ارتحل.

ولنلاحظ أيضًا أنّه لا وجود لكل هذه الآلهة بدون الإنسان، فهي ملاصقة له أنّى أقام  
وأنّى ارتحل، وأين أقام وإلى أين ارتحل.

كم وكم "عشتار" ذاتها ارتحلت.. وكم كانت علاقتها وثيقة بالقمر. أمّا "سين" فلم  
يكن أقل ارتحالًا وتجوالًا في الأساطير.. كيف يكون تأثيره عظيمًا على البشر قاطبة.. مربوطًا  
بالزمن (والقمر قدرناه منازل) وبالنور ليلاً وبالخصب وبالعادة الشهرية عند نساء الكون،  
في حركتي المد والجزر. إنه إله قديم قدم الزمان، هو ابن "انليل" وزوج "ننغال" أو  
"نيكال"، يُخضر النور ويُراقب قوى الشر ليلاً ويخصب النساء. هو ربّ علامة ينظم  
الوقت، هو "نانا" في سومر، عبده الناس على شكل إنسان هرم، رمزه الهلال، ومركز

عبادة في أور الكلدانيين، ثم في حران عاصمة آرام فدان، حيث اشتهرت عبادته بشكل خاص كما بمدينة النّيرب قرب حلب في القرن السابع ق.م. وبقيت حران مقرّ عبادة القمر حتى القرن الأول من الدولة العباسية الإسلامية، بُعيد دعوة خاتم الأنبياء وآخر المرسلين حسب العقيدة الإسلامية!

نرى "سين" يبدّل أسماءهُ ومنشأهُ وخصائصه وصفاته كما جاء في سلسلة التراث الروحي للإنسان لدى الكاتب والباحث العراقي خزعل الماجدي.

"سين" في بابل ابن كبير الآلهة القويّ "مردوخ" (مارتوخ = سيد الجبل) من زوجته "سارينيتوم"، في سومر ابن "إنليل" و"نتليل"، وفي إيل (قرب حلب ومنذ 3000 سنة ق.م) ابن "دجن" أو "داجون" الذي هو "بعل" وزوجته "بعلاتو/ بعلات". وهو في كنعان (كنغ - الأراضي المنخفضة/ السواحل السورية) ابن "إيل" و"عشيرته". وهو "ساهر" و"شهر" و"ساهر" وهو "يرح" و"يرخ" ابن إيل وعشيرته التي هي "إيل لات" أو "إيلات" والتي هي "اللّات"، حين ارتحلت إلى شبه الجزيرة العربية وتأسست في البانتيون العربي القديم، مجمع آلهة العرب القدماء.

وسين ابن "مارتو" و"مارتروم" وهو "يرح" كما جاء في إحدى ارتحالاته من جنوب العراق القديم إلى الغرب في بلاد أمورو، وكل ما يقع إلى الغرب حتى بحر أمورو العظيم الذي هو البحر الأبيض المتوسط. ولنلاحظ أن معنى كلمة مار في الآرامية والسريانية هو السيّد، ومراتو أي زوجته هي السيّدة.

إنّ مسألة ارتحال الآلهة وأساطيرهم مخرت في البحر، وصلت إلى قبرص (نجمة سوريا الكبرى) وكريت ورودوس ومالطا وإيطاليا، والبحر الأيوني واليونان، تمامًا كما سافرت في البرّ، شمالي العراق القديم القديم، حتى وصلت إلى آسيا الصغرى (تركيا حاليًا). وحتى وصلت الصين على طريق الحرير. وفي كل محطة كان الإله وأسطورته أو حكايته المقدّسة، كالماء تتخذ شكل الإناء الذي توضع فيه، بشكل تصاعدي متطور كتطور الحياة من خلال عشرات ومئات، بل آلاف السنين. حيث إنّ المادة الأساسية للزمان والمكان هي الإنسان العادي والمتكامل، أو الذي يصبو دائمًا إلى الكمال، إمّا عن طريق الإله الإله، أو الإنسان

الإله، أو الإله الإنسان، أو الإنسان الإنسان. وتبقى الأسطورة خزانة الفكر البشري القديم.

حقاً إنّ العالم وحدة، والحياة وحدة، وإنّ اللامتناهي في الكبر هو ذاته اللامتناهي في الصغر، كما يقول الحكيم لاوتسو في تعريفه للتاو (الطريق إلى السماء). وتبقى الحكاية التي لا تنتهي ترتحل في الزمان والمكان اللامتناهيين ويبقى الإنسان هو الذي يضفي عليها هذه الصفة أو تلك.

في مدينة النيرب كان كاهن معبد إله القمر يدعى "سين زير ابني"، وهو ذاته كاهن شهر أو شاهار أو كاهن ساهار أو سين كما كان يدعى في معبد "بعل حرّان"، ولنلاحظ أيضاً أنّ ملوك سومر منذ فترة 2100 ق.م. كانوا يضيفون إلى أسمائهم لفظة سين إجلالاً وتشبهاً بإله القمر. "نرام سين" و"امار سين" و"شوسين" و"أبي سين" و"بور سين"، ومن بعدهم جاءت سلالة أخرى حكمت أوروك ومن بين ملوكها "سين - حاشيد" و"سن - جميل" و"أويل - سين" و"سين موبليط" ومن ملوك لارسا ملك عظيم اسمه "ريم - سين". حسب ما جاء لدى خزعل الماجدي بسلسلته المشار إليها<sup>(14)</sup>، ولنلاحظ أيضاً أنّ "سين" هو الاسم الغنوصي لسلمان الفارسي عند غلاة الشيعة ومنهم الإسماعيلية التي وصلت حد تأليهه وتنزيهه، ومنهم أيضاً السليمانية التي اعتقدت نبوءته ومنهم السينية التي تفضّله على أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب. وعند البعض منهم كان سلمان الفارسي هو "سين" و"سلسل" وجبريل ذاته. وهو الذي حمل القرآن كله إلى محمد بن عبد الله. كما يعلمنا عبد الرحمن بدوي في كتابه المعروف شخصيات قلقة في الإسلام.<sup>(15)</sup>

ومما يذكر أنّ الفرقة الشيعية المسماة بالسينية تضم الخطابية والموحدين الدروز، وهي التي أطلقت على سلمان الفارسي لقبه الغنوصي "سلسل" ورمزت إليه بالحرف "سين" وألّهته.

لا بدّ أنّ تكون علاقة بين هذا الرمز وبين "سين" إله القمر، ولا بدّ أنّ يكون كذلك علاقة غنوصية جوانية بين سلمان وسورة ياسين (يس) "يس والقرآن الحكيم... إنّك لمن

المرسلين"... ولكن هذا يحتاج إلى جهد ودراسة وتمحيص. خاصة وأنه تعالى يعود في الآية (38) فيقول: "والقمرَ قَدَرناه منازلَ حتى عاد كالعرجون القديم".

وتلك أيضًا من الحكايات التي لا تنتهي... لولا إغلاق باب الاجتهاد، وقد آن أوان فتحه على مصراعيه... ولن يبقى في خانة المقدّس إلا ما ينفع الناس.  
"فأما الزبد فيذهب جُفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض".

عندما تحدثتُ عن العرفان والمعرفة الجوانية كانت في ذهني حكمة الليل التي يغوص فيها فراس السواح.. وهي كلمة جوانية أيضًا، فيها انفصل الإنسان عن واقعه اليومي والناس نيام، فيوغل في عالم السواد والباطن المستور، حيث يخفت إيقاع الزمن الأرضي، ورويدًا رويدًا يبدأ بالتلاشي حتى الانقطاع عن العالم المادي، فيبدأ التجلّي الروحي والوصول إلى المعرفة غير المنطوقة وإلى لذة السير نحو السرّ الأعظم والملكوت الأعلى والناس في غفلة. (16)

وهذا ما يعيدنا إلى مسألة الغنوص. فما هو؟

الغنوص Gnos هو المعرفة الجوانية. والكلمة ذات أصول سامرية ويونانية، وقد دخلت الإسلام عن طريق المانويّة.

ومذهب الغنوص هو من المذاهب المستورة. وكان المعبد الآرامي يُسمى "بيت.. بيت ايل" أي بيت الله أو "بيت يدع" أي بيت الله يعرف، أو بيت المعرفة بمعنى العرفان- منداخ أو مندا. وربما تكون "كفر مندا" الواقعة في الجليل هي قرية العرفان.

والغنوصية إذاً هي المعرفة الجوانية الذوقية عن طريق القلب، لا عن طريق العقل. وهي في ذلك كمسألة الإيمان الذي هو تصديق بالقلب.

وهي في الإسلام الغوص في أسرار الإلهية وصفاتها وتجلياتها.

ومن الغنوصيين عدة فرق منها المغتسلة والصابئة المندائيين في جنوب العراق حتى يومنا هذا. وتقوم عقيدتهم على أساس الفيض الإلهي الذي هو في داخل الإنسان بعكس

عقيدة الوحي الآتي من الخارج. وهم يسمون أنفسهم "المعرفيون" أو "العارفون" أو "العرفانيون".

ولدى بعض الصوفيين الإسلاميين حين يُرفع الحجاب ويُكشف المستور يرى هذا الصوفي ألما وراء وما يزال يرى ما لا يرى ويسمع ما لا يُسمع... فيتعدى إلى الفاصل ما بين الجسد والروح ويرى روح الشيء... يقترب من الإله، يتحدث به ويقول قوله الحلاج.. "أنا الحق والحق أنا و... والله في جُبتِي!" (17)

أما إذاعدنا إلى أساطير العالم القديم ورموزها فإننا نرى أنَّ الدائرة تمثل الألوهية لدى هذه الشعوب القديمة، حيث لا بداية لها ولا نهاية، كما قال كارل يونغ، أو أنَّ الأول فيها هو الأخير والأخير هو الأول، كما قال غونار إيكيلوف. كما ونرى أنَّ الأعداد التي تنقسم على اثنين هي أعداد مقدَّسة لدى الشعوب البدائية... لذلك نرى فيها بعد أنَّ الله وُثِرَ عند المسلمين، واحد أحد، ونرى أنَّ رسوله يُقسم بالشفع والوتر، أي بالأعداد المقدَّسة وبالله الواحد. كما ونرى أنَّ الشعوب تتأثر بعضها من بعض، فالمسيح قام من بين الأموات في اليوم الثالث لدفنه كما فعل كل من كريشنا ومايا لدى الهنود والبراهمة. وأنَّ أساطير الخلق متشابهة.. وأنَّ كوكب الزُّهرة عند قدماء العرب هي رمز الحسن والجمال، وهي عند السومريين إنانا أو سيدة السماء.. وكانت هيرمافروديت، عبدوها كإله ذكر مقاتل محارب في الصباح، ثم كأنثى في المساء ترعى الحب والشهوة والمتعة والإغواء. وهي عند هؤلاء العرب أيضًا تحمل بذور الذكر والأنثى في الوقت ذاته، أي أنها كانت في الفكر القديم تملك قرار الإنجاب وحدها.. مثل الأم الكبرى في شمال سوريا الكبرى القديمة. وعشتار هي إحدى تجليات الزُّهرة، فعند الإغريق حلَّت روح هذا الكوكب في إلهة الأرض "جيا" التي أنجبت (دون ذكر) الإله "أورانوس" وهو السماء، حيث غطى أورانوس والدته جيا من جميع الجهات في صورة مضاجعة جنسية دائمة. ولنلاحظ أوجه الشبه فيما كان لدى الفراعنة.. الإلهة "جُب" (الأرض) في حالة التحام دائم مع الإله "نوت" (السماء) لإخصابها. ولنلاحظ أيضًا أنَّ جُب في العربية تعني الحفرة، وأنَّ جب + نوت في الفكر المسيحي هو نصف الإكليل أو بداية الارتباط الزوجي بين المرأة والرجل فيما يُعرف بـ "الجنوت". أما مندورات المعبد فيشكلن ظاهرة عامة في الديانات العشتارية البابلية،

ينذرن أنفسهن للجنس المقدس لخدمة الآلهة المتمثلة بالكهنة.. على رجاء الإيحاء للأرض والإنسان والحيوان والنبات بالتكاثر، ومنها جاء حق الإله أو من يمثله (الملك أو الكاهن الأكبر) في الليلة الأولى. وقد اشتهرت البابليات قديماً في بيع جسدهن مقابل المال لشراء القرابين (الذبائح) لعشتار. وكان هذا خارج المعبد، حيث لا يجوز فض بكارة بنات عامة الشعب في المعبد. ينتقي منهن الكاهن الأعظم عريقات النسب النبيلات كاهنات المعبد، وفض بكاراتهن يكون حكراً للكهنة، ينتقي منهن الكاهن الأعظم الأجل والأشبه بعشتار لتقدم له "الخدمات" في المعبد. وكانت الواحدة منهن تدعى "قاديشتو" أي القديسة أو "زانية الهيكل" المقدسة. وعلى أساس فكرة الحلول تدخل روح الله في جسدها ويصبح حملها حملاً مقدساً. وتحرم هذه القديسة على باقي الرجال بعد أن يدخل بها الإله أو من يمثله، حيث لا يجوز للبشر العاديين التمتع بها. ربما من هذه الفكرة جاء تحريم الزواج من نساء النبي بعد موته في الإسلام! في العصور القديمة عندما كانت هذه القديسة المنذورة تحمل تلقب بالعدراء، رغم الأولاد الكثيرين الذين جاءوا عن طريق الهيكل، وذلك تمثلاً بعشتار العذراء دوماً. تحمل هذه القديسة تماماً مثلما حمل كوكب الزهرة لقب "ماري" عند الرومان أو "ستيلا ماري" (كوكب البحر) وربما أيضاً كوكب الماء عموماً. وقد حمل الماء في اللغات الأنجلوسكسونية اسم مير، ماري، ماريا، وكان عند السوريين القدماء "ميرها" وعند الإغريق "مايا" وفي الهند "مارسا"... ثم تحول الاسم ماري إلى لقب عام لكل إلهات الخصب والزرع. أمّا في بلاد الرافدين فكان "ماما أو ما أو أمّا". إنّ فكرة حلول الإله في الإنسان موجودة في تراث شعوب بابل وسومر وكنعان وإيران والهند. وكوكب الزهرة عند العرب القدماء كان أبرز الكواكب، وهو إله الحب والخصب والجمال والمتعة، وللزهرة قصص وخرافات وحكايات عديدة، منها أنها كانت امرأة حسناء رغب بها كل من شهداها.. لكنها تمنعت عن معاشرة الرجال إلّا إذا كانوا من نوعية خاصة ومكانة خاصة. وحدث أن هبط ملكان من السماء، فشاهداها ووقعوا في حبها. فاشترطت عليهما أن يبلغاها سرّ وطلاسم وتمايم هبوطهما وصعودهما من وإلى السماء. فوافقا، قدّمت لهما الخمرة فسكرا وعاشراها، ثم مرّ أحدهما في هذه الحالة، فقتلاه خوفاً من إفشاء الأمر والفضيحة، ونسيا تعويذة الصعود إلى السماء، وبقيتا على الأرض. أمّا هي فكانت قد

حفظت هذه التعويذة، فصعدت إلى السماء وبقيت مكانها لا تبحر! وقد أشار القرآن إلى هذه الأسطورة بقصة هاروت وماروت في سورة البقرة (الآية 102). ويفسر الطبري هذه الآية بأن هذين الملكين نزلا من السماء بإرادة الله الذي اشترط عليهما ألا يشركا به ونهاهما عن شرب الخمر والزنا والقتل.. لكنهما ارتكبا المعصية. وكانت الزهرة السبب في ذلك كله كمثّل حوّاء في العقلية الذكورية. يُروى عن عبد الله بن عمر أنه كان يلعن كوكب الزهرة كلما رآه لأن الزهرة فتنت هاروت وماروت. كما ويروى عن النبي أنه كان يقول: "طلعت الحمراء فلا مرحباً ولا أهلاً" وفي رواية أخرى "الحمراء".

لنلاحظ أنّ هُبل عند العرب هو هُبعل أو بعل عند البابليين والكنعانيين وهو زوج عشتار (الزهرة)، ثم تتحول الزهرة إلى عنات الكنعانية، وإيلات (زوجة إيل) اليهودية، والتي هي في الواقع اللات العربية التي وُضعت قرب العُزّى ومناة (وهي من المني والخصوبة) بفناء الكعبة المكيّة قبل الإسلام.

في دراسته حول الاستخدام السياسي للدين،<sup>(18)</sup> يقول وليد طوغان ما ملخصه أنّ عقل الإنسان لم يكن ناضجاً أو مهياً أو قادراً في العصور الغابرة على إيجاد الحلول لمشكلات الطبيعة الغاشمة، كما ولم يدرك أي تفسير لحمل الأنثى ونمو النبات، ولم يجد علاقة بين مني الرجل ورحم الأنثى في اتصال الرجل بالمرأة كسبب للحمل والولادة، لأنّ علاماتها تظهر بعد مدة من الجماع. فقد اعتقد الرجل البدائي أنّ المرأة هي صاحبة القرار في الحمل بعد الطمث الأول، وأنها هي "مامي" تشبهاً بالأرض التي تخرج الزرع أو تلده، دون ممارسة الجنس بين الذكر والأنثى. حاول الإنسان تفسير كل شيء للوصول إلى الحقيقة.. قدّس كل شيء مبهم. لذلك ظهرت الأسطورة ولما لم يكن العقل البشري قد نضج. فهي تفسير منطقي بالنسبة إليه لما يراه غير منطقي. وعن طريقها حاول ربط الأشياء المبهمة في واقعه الذي يعيش فيه. ظهرت أساطير الخلق المتشابهة عند كل الشعوب البدائية، وظهر مفهوم القربان للتقرب من أكثر الأشياء إبهاماً، الطبيعة القاسية الغاشمة، ثم ظهر مفهوم الإله. وتطوّر مفهوم القربان، وهو من التقرب للإله، من البشري إلى الحيوان كبديل للإنسان، ثم إلى النبات، ظهر "مرا" في فارس، حوالي 700 ق.م. كإله يموت ليكفّر عن ذنوب البشر ثم يعود، ولنلاحظ أنّ ميلاده كان في 25 كانون الأول

كالمسيح. وقبله ظهر "كريشنا" حوالي 800 ق.م. عند الهنود البراهمة، وكان ميلاده معجزة كالمسيح. كذلك كان ميلاد "بوذا" من قبل معجزة الصين، حوالي 900 ق.م. ومعناه المستنير، الفادي والمخلص. الذي حملت به أمه "مايا" حملاً مقدساً، ومات في الثلاثين من عمره ورُفِعَ إلى السماء، وتحل روحه في أطهر رجل في العالم (الدلاي لاما). وهناك عدة تلوينات لولادته المقدسة، منها أنَّ الروح السماوية نزلت ودخلت إلى رحم أمه مايا حين كان رحمها كالبور الشفاف النقي وتحلّى منه بوذا وظهر كزهرة جميلة، ودلّ على ولادته نجم في السماء ورثمت جنودها فرحة بالطفل المخلص الذي يعطي الناس المسرات والسلام... وجاء الناس مقدّمين إلى أمه الهدايا... وتستمر الحكاية التي لا تنتهي، عندما سمع الملك "جمارا" بميلاده، أمر بقتله، لكن مايا تنجح بالهرب وتخلصه. وتحكي الأسطورة أنَّ بوذا اغتسل بالنهر (أي تعمّد)، ولما مات شق قبره وأعاد نفسه إلى الحياة ثم رُفِعَ إلى السماء. كذلك نرى أنَّ أسطورة كريشنا تحدثنا عن ميلاده العذري، وظهور النجم وقد ولدته أمّه "ديفاكي" في كهف بفصل الشتاء، وعرفت إحدى البقرات ألوهيته فخرّت ساجدة. وجاء الناس إلى ديفاكي وقدموا لها الهدايا، صندلاً وبخوراً، احتفاءً بالطفل الإلهي. وتعود العناصر ذاتها، فقد سمع الملك "نارد" بهذا الميلاد، أمر بقتل المولود... يعتبر كريشنا عند البراهمة جزءاً من روح الإله براهما الذي خلق نفسه قبل كل الخلق، وكريشنا أيضاً هو المخلص الذي قدم ذاته للصليب فداءً للبشر. ويستمر تناسل الأساطير.. فهذا الإله البابلي بعل أو هُبعِل الذي تحول إلى هُبل في شبة الجزيرة العربية، تكاد تكون له نفس الحكاية، في الميلاد والمحكمة والممات والقيامة. وتصوّر إحدى الرقم البابلية شخصيتين نسائيتين جالستين قرب قبره تندبانه، قبل قيامته في اليوم الثالث لدفته.. وتكون عودته في الربيع من كل عام، ويحتفل السومريون والبابليون بعيد النيروز قبل الفرس.. ويعود بعل في آخر الزمان للمرة الأخيرة لكي يخلص العالم.. أسطورة وحكاية لا تنتهي. حتى يرث بنو إسرائيل.. بدءاً من أساطير الخلق القديمة إلى الطوفان والمعذب البابلي.. من آدم وحواء (سيدة الضلع) والأفعى (التي تمثل الشيطانة ليليت البابلية أو السومرية) التي تبدل جلدها مرة كل عام.. وبحسب كتاب جيمس فريزر "الغصن الذهبي" دوّن المؤرخ البابلي بيروسوس في القرن الثالث قبل الميلاد قصة الطوفان البابلي الذي كان قبل طوفان نوح



التوراتي بعدة قرون كما دَوّن السومريون قصة طوفانهم وقصة العبد الصالح زيوسودرا الذي أنشأ الفُلك... ثم تحول هذا إلى اوتنايشثيم البابلي (المذكور في ملحمة جلجامش) ثم عاد وظهر على شكل نوح التوراتي. لقد كتبت أسفار التوراة على مدار ما لا يقل عن خمس مئة عام وحتى القرن الأول ق.م. ولا شك أنّ كتابها تأثروا واستمدّوا ثقافتهم من الشعوب المحيطة، من الفكر السومري والبابلي والآشوري والأكادي والكنعاني، وحولوا أبطالها إلى أبطال من نسلهم، ولا بدّ أن يكون العرب أيضًا من قبلهم ومن بعدهم قد نسجوا على نفس المنوال... فالحضارات تتلاقح ويتناسل بعضها من بعض. حكاية لا تنتهي.



## عن أزما أزماتون

حكاية لا تنتهي. ونصوص تكتب ذاتها وتعود الحكاية وتتكسر وتتجدد. أمّا صاحبنا المفترض فيغادر ويختفي خلف الغمام.. ويعود ويتجسّد بشكل آخر.

عاد على شكل أنثى قريبة من الكمال. ما أجمل صداقة الأنثى الجميلة! هي من نسل أناثا وعشتار وفينوس ونسوس والعذراء مريم بنت عمران ومريم المجدلية ذات الشعر الأحمر. هي أنثى أسطورية آسرة، ذات دفء، تعج بالحياة وتقول لسين- إله القمر، وقد اكتمل وصار بدرًا: قم غب لأقعد محلّك! هي أنثى تتجلى فيها كل العبادات القمرية كأنها الأم الأولى الوطباء (والوطب هو النهد العظيم).

تقول الحكاية: إنّنا جلسنا على حافة غدير ينساب ماؤه النмир كأفعى أسطورية.. نداعب العشب الأخضر، وكان الوقت فجرًا. يُرسل الفجرُ جيوشه نحو الليل، يدحره رويدًا رويدًا بدون عنف.. يبدّد الظلام، نحو الآتي بعنفوان هادئ، ومياه النهر تتلقى مياه الغدران المجدولة والتي تبدو راكدة، تجري على مهل، مختالة كعروس فرعونية تزفّ إلى نهر النيل أو أهيريون نهر الإغريق المقدّس دائم الحركة والجريان.

كنا- نحن الاثنين- على حافة برزخ الحلم.. في تلك المنطقة الوسطى ما بين الواقع والخيال، وهي تحدثني عن أزما تون- روح كل الأشياء الرائعة.

قالت- وقد أشرق وجهها واحمرّ كغمامة عند الغسق.. عاتكة (محمرة من الطيب) غمامة، ديمة ذات رذاذ معطر الرّهام: (19)

في هذا العالم ثمة أشياء كثيرة علينا أن نتعلمها نحن بأنفسنا.. من تجربتنا الخاصة ولا يمكن أن نتعلمها من تجارب الآخرين.. كدرس خاص وكمعرفة ذاتية. مثل معرفة الذات. فلا أحد يعرفك كما تعرف أنت ذاتك.

هذه هي.. كُبرى لوحات الحياة، القطعة الأكبر في الحياة، الـ "تحفة" Master Piece، المحبة والحب والعشق وكل المشتقات والتشظيات. هكذا قالت وأكدت على اللفظة اليونانية "إيروئس" ثم تابعت:

"إنه العطش اللانهائي الذي لا نريد أن نعترف به أو حتى أن نبوح به".

أمطرت غمامة الغسق "الإلهي" أول المطر.. كي تغسل خطايا البشر. وانبعثت من الأرض رائحة أوليّة، بدئية، وفرت التربة، ونزت بالعبق الأول عندما التقى تموز بعشتار.. ذلك اللقاء الذي يتكرر كل عام منذ ملايين السنين، كأن الدنيا تُخلق من جديد في كل عام. ما أروع المطر بعد انحباس.

قامت هي نحو سريرٍ أخضرٍ من سُندس وإستبرق، تستعيد ذاكرة. والذاكرة شلال من الأفكار المخزونة تبدو راكدة في بئر دون قرار، لكنها في ركودها نشطة. تتفجر ينبيع بلا ميعاد بعد أول المطر. ما أروع أن يتفجر ينبوع حنان.. أن تأتينا النشوة على سرير الماء، على موجات الغدران.. تندفق واحدة إثر الثانية.. الثالثة من كينونات الكون في كل أوان...

جاءت بكتاب السرير، وهو الكتاب الذي يلازم القارئ الجيد بين فترة وأخرى، فينام معه ويقوم معه ويشكل هاجسًا جميلًا بالنسبة إليه، كتاب "ياناراس"، الشاعر اليوناني المعاصر.. وسيبقى على قيد الحياة، لأنه من الكتب التي تفضّل أصحابها، كما يقول الجاحظ.

يتحدث ياناراس عن تجربة الحب.. القطعة، التحفة، الأروع بهذه الحياة.. عن نشيد الأنشاد وعن أغنية الأغاني، عن ازماتون Asmaton الأروع في كل عمل إبداعي!

ما أشبه ياناراس بابن حزم الأندلسي في "طوق الحمامة"<sup>(20)</sup>. لكن لكل منهما نكهة خاصة. يتحدث كل منهما عن تجربته في الحب وعن تجربته في الحياة - "زوي". والحياة تجارب، وتراكم تجارب.. كذلك يتحدث كل منهما عن تجارب الآخرين التي لا يمكن أن نتعلم منها أي شيء في هذا المجال.

حقاً إننا نستمتع بكل ما هو إنساني كما المتعة التي نستمدّها من دفء كانون النار في ليالي الشتاء الباردة. يبقى الفرق في أن تكون أنت حبة الكستناء أو لا تكون. فلكل منا حبة

القلب ولكل منا الدرس الأول والأكبر والأروع. لكل منا خديعته الأولى وخطيئته الأولى ونشوته الأولى. سواء كان "قمر الزمان" أم "شمس الدين". هذا هو الدرس الأول. وكل منا يتعلم الحب أولاً، على جلده أولاً، وعلى شغاف قلبه.

هكذا يقول ياناراس بحروف سوداء على أوراق صقيلة بيضاء. وهكذا تقول أيضاً أحلام مستغانمي التي لم يطق فحول هذا العصر إبداعها الأنثوي:

الحبّ لا يتقن التفكير، ولا يملك ذاكرة، ولا يستفيد من تجارب الآخرين، ولا حتى من حماقاته (هو) السابقة. الحبّ يجلس دائماً على غير الكرسي الذي لا تتوقعه! (21)

ترجمت لها ما قالت أحلام. رأينا وجه الشبه وأدركنا أنّه ليس للحبّ لغة واحدة. هو فوق كل اللغات. خلق الإنسان اللغة لكي يخفي مشاعره. في الحب تتعري كل الأشياء وتتفجر كل المشاعر والأحاسيس. اللغة عقل ومنطق، والحب مشاعر واختلال توازن ولا منطق وجنون.. وإنّ أجهل الأشياء هي التي يقترحها الجنون ويكتبها العقل كما تقول أحلام على لسان أندريه جيد. وكل ما هو مطلوب "جهد صادق" كما قال لنا غوته.

جاءت عاتكتي الفكرة قبل أن تقرأ ياناراس.. ليس غريباً توارد الأفكار، هي تكتب ما فكّرت به من قبل، بقلم رصاص قرب حروف ياناراس. تخط على الحاشية ما سوف يدوم: "التعلّم من الحياة درسٌ. أجل، ولكن هنالك شيء لا يمكن أن نتعلمه من الآخرين ولا يمكن لتجربة الآخر أن تفيدنا فيه. ذلك هو الحب، ولا يمكن أيضاً أن نتفاداه، الحبّ عطش لا نهائي، لا نستطيع أن نتقبله ولا أن نتجنبه ولا حتى أن نعترف به، أو أن نتعلم من قسوته وسطوته. يكون فينا فنخدعه ونكون فيه فيخدعنا ولكل منا خديعته الأولى".

ياناراس يكتب ملاحظات على نشيد الإنشاد، عن القطعة الأروع في هذه الحياة، عن أزما أزماتون وعن روح الشيء وكل الأشياء. وهي تكتب ملاحظة على تلك الملاحظات بقلم رصاص وعلى هامش الكتابة حيث أحياناً للهامش يكون دور أساسي.

ليس هذا بغريب حين ينظر الإنسان إلى الجوهر. ليس غريباً أن تلتقي هي بأحلام. أن نلتقي جميعاً مع ياناراس. هي تترجم لي ما يقول ياناراس اليوناني:

"نحن - أنا وانت - كآدم وحواء في التجربة الأولى. فبعدما خلقها الله من الطين ونفخ فيها روحاً كانت تجربة الحب الأولى.

تجربة الآخرين لا تعلمنا شيئاً عن الحب.

لكل منا الدرس الأول والأكبر والأروع هذا هو الأزماتون الأكبر - هذا هو الجوهر لأننا نبدأ بالحب في طريق الحياة".

يقول آخر: إنّ الله خلق آدم من تراب ونفخ فيه روحاً ثم نام آدم جراً هذه الصدمة، صدمة الخلق. أثناء نومه استلّ الله ضلعاً وأنشأ عليه اللحم وأجرى به الدم ونفخ فيه فكانت حواء. وكان لقبها فيما بعد سيدة الضلع.

بيد أن ياناراس يقول: نفخ فيها..

قال الأول: أنتِ تكونين له مصدرًا للسرور في غربته وفي وحدته.

وقال الثاني: جاء غراب الين<sup>(22)</sup> فسحل وبال على سين السرور فتكونت ثلاث نقاط فوقها، وتوهم من توهم أنّ الله سبحانه وتعالى يتكلم العربية ويكتب العربية فقط. فكانت حواء مصدر السعادة والتعاسة في الوقت ذاته. حواء الأنثى التي هي فوق كل لغات العالم.. يبحثون عنها حتى اليوم ويبحثون فيها، ويبحثون عن ذلك الضلع الناقص في قفص آدم الصدري. وما زال الناس يتساءلون هل كانت لحواء الأنثى الأولى سرّة! وإذا لم تكن بنت رحم فما حاجتها لها؟ لنفتح اللوح الأول، العمود الثاني في جلعامش الأسطورة السومرية.. حيث تقول الملحمة:

"غسلت" أورورو" يديها وجمعت قبضة من طين، ورمتها في الفلاة. في البراري. خلقت أنكيديو العظيم نسل ننورتا" ابن إنليل وكان إلهًا محاربًا.<sup>(23)</sup>

هكذا نسي الناس الجوهر بمعرفة سرّ الحياة.. نسوا التأويل من خلق أنكيديو في أسطورة جلعامش إلى بروميثيوس إلى حواء التي تجرأت على المحذور وعلى شجرة المعرفة. عندما حسب جلعامش أنّه ثلثان إلهٌ، وثلث إنسان، خنّ أنّ ثلثيه الإلهيين سيسفعان له في مسألة الخلود، فوقع في ضنى البحث عن الذات وعن الخلود وعن سرّ الحياة.

وعندما اجترح بروميثيوس النار- المعرفة- وأهداها للإنسان، حكمت عليه الآلهة أن يُربط بسلاسل الحديد على صخرة في أعلى الجبل، وأن تأكل النسور كبده في المساء لكي ينبت له كبـد جديد في الصباح، هذا هو عقاب سارق النار من موقعها الآخر في السماء إلى موقعها الأرضي والإنساني.

قالت: وهكذا كان أيضًا عندما تجرأت حواء في جنة عدن أن تأكل من شجرة المعرفة فتم إسقاطها وآدم وذريتهما إلى الأرض.. "موتًا تموتين يا حواء وتجلدين وتعانين آلام المخاض إلى الأبد". وتساءلت: ما ذنب بني آدم؟ لماذا فرض الله عقابًا جماعيًا عليهم؟ وكل خطيئة هي خطيئة فردية!

وما أكثر المحن والمخاض والشواهد.. من محنة غاليليو إلى مأساة الحلاج! ذلك الصوفي الثائر الذي وقع في المحذور وُصِّلَ صلب التشهير ثم سُجن ثم قُطعت أطرافه وعُلِقَ مجدوعًا على جذع شجرة ليلة كاملة، انتظارًا لأمر الخليفة في الإجهاز عليه.

مات الحلاج كغيره ولا كغيره وبقي "طاسين الأزل" كتابًا يُفَضَّل صاحبه. (24)

نعود إلى ياناراس الذي يقول:

"إنّ الذي لا نستطيع تحقيقه في الحياة هو ذلك الخليط العجيب من الروح والجسد. الخليط العضوي الذي لا نستطيع أن نفكك عناصره".

وتقول هي:

"حين نموت يموت كل شيء.. إن روعي في دماغي تموت أيضًا، لكنها تبقى في أذهان المعارف والأصدقاء والأحبة. لذلك هي تموت ولا تفنى، والفناء شيء نسبي، والله كما قال أينشتاين ومن قبله شينوزا، اللذان نهلا من حقل معارفه: "الله هو مجموعة القوانين التي تحكم العالم". الجسدية المحسوسة والروحية الهيولية "المجردة"، أو العقل القائم بالقوة، الفاعل والمنفعل والتزواج في ما بينهما.

أقول لها:

يختلف البشر من حيث القدرة على التجريد.. يبقى السؤال معلقاً بلا جواب قاطع،  
وتبقى المسألة مسألة إيمان وعلاقة خاصة، وخاصة جداً بين الله والإنسان.

ويبقى سؤال الأسئلة ونشيد الأنشاد في قضية الحب الذي طرحته البشرية منذ الإنسان  
الأول. ويبقى ما طرحته هي على هامش كتاب ياناراس - الجوهر. بقلم رصاص كتبت  
عن أزماتون الجوهر وعن ذلك الشيء الوحيد الذي لا يمكن أن نتعلمه من الآخرين، من  
الدرس الأول والأولى في هذه الحياة. عن القطعة الأروع والأجل، "عن الحب الذي لا  
يملك ذاكرة ولا نستفيد من حماقاته السابقة". ولا نتوب ولا نعتبر.

ونحن نعرف أننا لا نتوب، ولا نعتبر، خاصة عندما ننزع الدروع الواقية التي نلبسها  
وتلبسنا ونلقي بها في نار بروميثيوس. حتى نقف، ولا بدّ من هذه الوقفة.. عراً أمام وهج  
الحقيقة وصريحين مع أنفسنا أولاً وقبل كل شيء. والحقيقة دائماً تؤلم من تعود على  
الأوهام.. كما قال ميخائيل نعيمة.

إنما يبقى هو الأجل.. أجمل ما أبدعته البشرية، ذلك الدرس الأول نتعلمه بأنفسنا  
ولأنفسنا ولا نعتبر.

ما يبقى هو ذلك العطش اللانهائي كما قالت لي: الدرس الخديعة والخطيئة الأولى  
والمعرفة المتجددة المطلّة من رحم الاكتشاف والتجربة. لقد عبّر الحلاج في ديوانه عن نفس  
الفكرة في مجال الحب الإلهي قائلاً:

يا نسيم الريح قولي للرشا

لم يزدني الورْدُ إلّا عطشاً

لي حبيبٌ حبُّه وسط الحشا

إن يشا يمشي على خدّي مشا

روحه روحي وروحي روحه

إن يشا شئت وإن شئت يشا



أي أنّه يرد الماء فلا يرتوي، ولا ينفد الماء، إنّما يزداد عطشاً في كل مرّة يرد فيها الماء ليشرب من نبع الحب الإلهي.

ويبقى الحبّ لُغزاً لا يمكن تفسيره ومعرفته إلاّ بالمعايشة والممارسة والاختبار. وتبقى القاعدة الأربعون في "قواعد العشق الأربعون" لإيليف شافاق في حوارات مولانا جلال الدين الرومي وشمس الدين التبريزي كما هي منذ ثمانية قرون: "لا قيمة للحياة من دون عشق. لا تسأل نفسك ما نوع العشق الذي تريده، رuchi أم مادي، إلهي أم دنيوي، غربي أم شرقي... فالانقسامات لا تؤدّي إلاّ إلى مزيد من الانقسامات. ليس للعشق تسميات ولا علامات ولا تعاريف. إنّ كما هو، نقي وبسيط." (25)

نعم.. على حافة الحلم كنا، أنا وهي. أفقنا ولم نفق.. وفي منزلة ما بين المنزلتين كنا.. ما بين صرامة الوعي وانفلات اللاوعي تستمر الحكاية. تلك الحكاية التي لا تنتهي.



## عنهم وهم لوط ليسبوس وفعله القتل

وكان قد استلهم يهود السبي البابلي (538 ق.م.) سيرة لوط في سفر التكوين من الأسطورة البابلية لإله الطاعون إيرا الذي دمر مدينتي بابل وإيريك حيث طغت بابل وعمّ الفساد إيريك، مدينة البغايا المقدّسات والغلمان والخصيان واللوطيين في معبد عشتار.

فيتحول إيرا إلى يهوه ومدينتا بابل وإيريك إلى سدوم وعمورة.

كما يتحول لوط رمزًا للمثلية الجنسية عند الذكور، وتتحول ليسبوس لدى الإغريق رمزًا للمثلية عند الإناث.

حكاية لا تنتهي.. فكما أن حواء ليست عربية فهي كذلك ليست صينية..

هراء كما يقول وانغ تشونغ - "بلاهة.. السماء لا تسمع البشر ولا ترى ما يعملون. إنّها عالية جدًا... هل بإمكان الإنسان الذي يقف فوق برج أن يسمع حركات النمل تحت أقدام البرج؟

والأكثر من هذا أنّ الغرباء لا يفهمون اللغة الصينية فأنتى للسماء وهي ليست صينية، ولا هي إنسان والتي هي من طبيعة أخرى تمامًا أن تفقه شيئًا مما نقول؟" (26)

هكذا نقل لنا المستطرف الصيني لهاذي العلوي، أمّا نحن هنا ينقلنا البرزخ إلى جزيرة مثيليني (ربما من كلمة ميثوس اليونانية) في أقصى الجزر اليونانية شمالاً. جزيرة تحمل أيضًا اسم ليسبوس، هي جزيرة سافو - معلمة الموسيقى التي تعشقها تلميذاتها. وتصبح سافو من لسبوس رمزًا للمثلية الجنسية عند الإناث. وتغدو حكاية لا تنتهي، وكذلك تصبح هذه الجزيرة؛ لسبوس مثيليني.. حكاية لا تنتهي للمثليات... نقف عند قدمي التمثال.. نتأمل قيثارها ونصغي لألحانها الخالدة. ثم نتقل إلى القرية السياحية تريغوناس، بعد ضياع في غابة الكستناء، وكأننا وقعنا في متاهة.. ندور ونلف طرقات تلك الغابة ونعود إلى مكاننا الأول، حتى جاء الفرج بالصدفة، وخرجنا من هذه الغابة... وعلى شاطئ

تريغوناس البكر وحدنا نكون كآدم وحواء.. في جنة عدن البحرية أو في أرض دلمون السومرية الساحرة..<sup>(27)</sup> أشجارها تحمل الياقوت والعقيق واللآزورد والزُّمرد واليشم وكل أنواع الأحجار الكريمة.. عنبًا مُدلىً، فنتةً للناظرين.. وشاطئ تريغوناس يعج بمجموعات الأسماك الملونة رأسًا في الأعماق، حيث المياه الصافية تمتد عاموديًا لا أفقيًا كباقي شواطئ العالم.

قلت: نتعلم أكثر حينما ننظر إلى عمق الشيء. من الممكن أن نتعلم من تجارب الآخرين وعن طريق تراكم المعرفة. هذه هي قصة الإنسانية. الإنسان الذكي هو الذي يفيد من تجاربه لكن الأذكي هو الذي يستفيد من تجارب الآخرين حيث يتعلم من المعرفة/ التجربة التي تمرّ على جلود الآخرين. فيكون الآخر هو الذي دفع ثمن التجربة وضنك تحقيقها ومعاونة تجسدها ومخاض ولادتها.

قالت: لسنا نبحث في علم الاقتصاد... إنّما بنار بروميثيوس.

قلت: وقبلها أو بعدها بشجرة المعرفة والفاكهة الثمرة، الحنطة، البلحة، التفاحة المحرمة، وقبلها بكل ما وُجد بأرض دلمون جنة عدن السومرية.

قالت موافقة: المعرفة تتراكم.. لكن شيئًا واحدًا يبقى كما هو ومنذ الإنسان الأول... الأحاسيس والمشاعر الإنسانية في الحبّ والمحبة والعشق والوله والجنون. وهل نسيت أزمّا أزما تون؟

عينها العسلّيتان العميقتان تخترقان المدى.. تكشف الحجب ثم تعود تنظر إلى مياه ذلك الشاطئ البكر، وأشعة الشمس فيه تصل إلى الأعماق. عيونها تمشط جدائل المكان وتنفذ إلى الماورائيات من خلال نافذة الروح... غريبًا كان ذلك المكان. يجمع بين الساحل والجبل والرمل والحصى وأرض الطمي الخصبة.

من نافذة الروح نُطل على الحقول الخضراء والجنّات التي تجري من تحتها الأنهار والغدران، وعلى قمم الجبال تجثم النسور وتتألق أشجار الحور الفضية. تخفي بقدر ما تكشف ذلك القمر، البدر الكامل المعلق في كبد السماء وكبد بروميثيوس كمشكاة تلقي الضوء على جذع الحلاج المعلق على جذع شجرة. كم تتكرر ساعات الفجر الأولى! قبلها

وفيها الليل أشدُّ حُلْكةً من الليل العادي. كم تتكرر شقشقة الفجر، فيها الذاكرة الإنسانية  
أشطان بئر وخيوط نور مجدولة طالعة من نازلة، ونازلة من طالعة، تفضي إلى بئر بدون  
قرار.

قطع كل واحد منا جبل أفكار الآخر.. أرّجعه إلى الوعي. قالت تكمل جملة القاطعة:  
إلا الحب.. إلا الدرس الأول.

وصمتت أو بدأت تتكلم بصمت، تفكّر، والفكر كلام أحرص. وأنا أغيب في عمق  
الأسطورة، في صداقة جلجامش وأنكيدو. حين يمر جلجامش متأبطاً ذراع أنكيدو يميل  
عليه كما يميل على امرأة.. وحين تمر ليسبوس تحيط بها، تزفّها على أوتار القيثارة تلميذاتها  
الجميلات. والذاكرة أشطان بئر والخيال خيوط من نور.. ويمرّ شريط الذاكرة أيضاً على  
صداقة مولانا جلال الدين الرومي وشمس الدين التبريزي... التي حاك حولها الحساد  
والغيورون الحكايات التافهة...

هي تشدني إلى الواقع من جديد. تعاود الحديث عن مسرحية ليزستراتا.. أصغي  
باهتمام.. برغم ذلك كنت آتئذ أفُضِّل البقاء وحدي مع جلجامش وأنكيدو وليسبوس  
والحلّاج ومحي الدين ابن عربي وجلال الدين الرومي وشمس الدين التبريزي، أقطاب  
الصوفية العربية والإسلامية.

وكانت قد طبقت شهرة جلال الدين آفاق العالم الإسلامي، وكان شمس الدين  
درويشاً جوالاً يتمتع بشخصية طاغية "كالأسد الجسور والشمس المحرقة". إلى أن التقيا  
وكان هذا اللقاء الأول فاتحة صداقة خالدة بين الرجلين، واستمرّا ستة أشهر متكاملة،  
انقطع فيها كلّ واحد منهما عن العالم.. حتى دسّ بعض مريدي جلال الدين المكائد بعد  
لأى.. فقتل شمس على يد أتباعه الغيورين.. وراح جلال الدين ينظم فيه شعر العشق  
الصوفي، والحلقة الصوفية تدور على إيقاع الدفوف: "لستُ وحيداً أغني: شمس الدين  
وشمس الدين بل هو الحجل في التلال يغني والبلابل تصدح في البساتين وسماوات تدور  
وتدور.. شمس الدين منجم جواهر، شمس الدين نهار وليل. شمس الدين بحر لا  
متناه." (28)

هي تشدني إلى الواقع من جديد. تعاود الحديث عن مسرحية ليزيستراتا.. أصغي باهتمام هذه المرة.

قالت: المسرحية تُعرض لآخر مرة في هذا الموسم. كتبها أرسطوفانيس قبل حوالي 2400 سنة. انتقد رجال السياسة من خلال مسرحياته الكوميديّة. كان رياضياً، له غربال على اسمه، "غربال أرسطوفانيس". علماء الرياضيات يعرفونه جيداً وهو عبارة عن إجراء لمعرفة الأعداد الأولية حتى عدد معين، وذلك عن طريق شطب الأعداد غير الأولية حسب طريقة معينة.

هي تشرح وأنا ما استوعبت شيئاً. تظاهرت أنني مصغ، أسرح مرّة أخرى في شمس الدين وأنكيدو وفي ليزيستراتا.. تُراها من تكون هذه الشخصية الأنثوية التي أبدعها أرسطوفانيس؟ وكيف سخرها للسخرية من رجال السياسة وأمرء الحرب.

لو لم يكن ميسور الفكر والحال لما أقدم على ذلك. الجرأة وحدها لا تكفي.. هي تستدعي قليلاً من القطران. قال: اجعل مع دعائك قليلاً من القطران. أسرح إلى أبعد من ذلك.. عمل هذا الإنسان في الرياضيات وفي النقد الاجتماعي والسياسي فكتب مسرحيات تعيش حتى الآن. هكذا كانوا في الماضي. علّمهم موسوعي. بدأ الاختصاص نتيجة لتراكم المعرفة.

الأفكار تتزاحم... أعادتني مرة أخرى. قالت: المسرحية عبارة عن صرخة ضدّ الحرب والحقيقة هي هي. منذ فجر البشرية النساء هن الفئة الأكثر معاناة من جراء الحروب، تفقد المرأة الابن والزوج والأب والأخ والصدّيق..

قلت بدون كلام: الحروب هي هي منذ القدم وحتى الآن. تساءلتُ في قرارة نفسي: هل هي حاجة إنسانية لاستعادة التوازن، كالجنس والحفاظ على النوع وإبادة النوع؟ وهل تدمير الذات نزعة إنسانية؟ وهل الإنسان هو ذلك الشيء ونقيضه؟ وهل حواء كانت أول ثاكل في التاريخ المكتوب حين أودت الحرب بربع سكان الأرض؟ أو سُدسها؟ (إذا ما احتسبنا "بنات الناس" اللواتي تزوّجهن قابيل وهابيل، بحسب الأسطورة التوراتية).

ويبقى ذلك السؤال المعلق كما قنديل سحر في كبد بروميثيوس يلقي الضوء على جذع الحلاج المعلق على شجرة المعرفة، والسؤال ما زال معلقاً يلوح في هواء العاصفة، كيف ولماذا ومتى وفي مصلحة من؟ سرحت مرة أخرى.. أعادتني مرة أخرى إلى الواقع وكان لها شرف الإثارة في هذه المرة. من يعتقد أن لديه الأجوبة لكل الأسئلة فهو أكثر الناس جهلاً.

- تحدثوا عن الاقتصاد من القدم وعن الحرب التي تنعش التجارة، في الحرب يتعلم الجندي مهنة القتل وفعل القتل، يصبح القتل مهنة فيها الإنسان هو القاتل والمقتول.  
- أدرك الآن هول العولمة.. الكبير فيها يأكل الصغير، فيها الإنسان هو الآكل والمأكول همبورجياً والكولا فيها إدمان وتسرع عملية الهضم ثم تحرق المعدة.  
- وتكون معاناة الفئات الضعيفة.. المرأة والأطفال والشيوخ والعجزة والفقراء يكونون حطب المعركة. تكون النساء صانعات الرجال والجنود الأشداء وتكون حلقة الدم.

- كل الحق على المرأة، هذه هي حلقة الدم. تحمل المرأة، تلد الأطفال، ترضعهم وتربيههم بسهر الليالي والدموع حتى يكبروا، "كل شبر بنذر". يصبحون رجالاً أشداء، يُدفع بهم إلى أتون المعركة وتكتمل الدائرة.. حلقة الدم.  
- هذه هي الحقيقة.. كل الحق فيها على النساء، وإذا كانت هذه هي الحالة فعليهن إيجاد الحلّ وكسر الحلقة.

قلت: كيف؟

قالت إمعاناً في السخرية: إذا أردت أن تعرف فقم معي لنشاهد المسرحية!





## عن الموسسات

لقد قيل إنّ كونفشيوس هو لقب كونفودزة الذي عاش في القرن السادس ق.م. وأن له كتاب "التعليم الأكبر" يبحث فيه عن أسباب الحروب فيردها إلى فساد الحكم... وفي كتابه "عقيدة الوسط" يتعرض لشؤون الحكم التي تقتضي وجود الحاكم الصالح والوزراء الصالحين وتؤمن الاكتفاء الذاتي ونشر التعليم وتوزيع الثروة.

أستجمع قواي، أفتح كتاب الأغاني التي جمعها كونفوشيوس في الصين، منذ أكثر من 2600 سنة. أعرّ على الأغنية ذاتها.. أغنية الحب في زمن الحرب، كما جاء بها إلينا هادي العلوي الذي عاش في الصين قسراً ثماني سنوات، وكتب لنا عن تجربته. تقول الأغنية وكأنها الحكاية التي لا تنتهي:

"زوجي في الخدمة لأي وقت؟

لا أحد يدري، أوه، متى يعود؟

الطيور تجثم في أوكارها

يوم آخر يمر

تعود المواشي إلى أسفل التل

لكنّ زوجي في الخدمة

وكيف لي أن أسلو عنه.

زوجي في الخدمة

تتوالى الأيام والشهور أوه،

متى يعود إلى البيت مرة أخرى؟

عادت الطيور إلى أعشاشها

ويوم آخر يمرّ

القطعان عادت إلى الحظيرة

لكن زوجي في الخدمة

عطشان، من يدري جوعان..<sup>(29)</sup>

قمنا لمشاهدة المسرحية وكانت باللغة اليونانية التي لا أفهمها. قالت: الفهم شيء والمعرفة شيء آخر والإحساس والإدراك الحسي والمجرد شيء ثالث.

أنت سوف تدرك ما سيدور بالإحساس وبالحدس. لغة الأحاسيس عالمية وأممّية، الإحساس أول المعرفة البدئية.

على الفور تذكرت تلك الأغنية العربية لجورج وسوف، التي تتحدث عن بطحة العرق التي "تسهل علينا الترجمة".. وكانت أنغام الموسيقى الشرق أوسطية تصدح من مسجل السيارة بأغنية يونانية تتحدث عن كرفة الأوزو والسמكة المقلية وقطعة خبز الطلامي "البسومي" وأنا وأنت والحياة: أجل! ثلاث مقابل ثلاثة.

أدركت الكاسيت مرة أخرى.. تقف السيارة عند مدخل المسرح الإغريقي القديم. ينتظرنا أحد الأصدقاء. يسلمنا مسؤول المسرح الوطني أنديرياس التذاكر. ندخل في طابور. نصل المدرج اليوناني العتيق. المقاعد الحجرية على شكل نصف دائرة. الإيكوستيكا رائعة، فأني تجلس تسمع وتشاهد ما يدور على خشبة المسرح بشكل جيد. لا خشب على المسرح، إنّما مصطبة فسيفساء، كان بعض المشاهدين يحملون طرايح إسفنجية يضعونها تحت الإست اتقاءً لشرّ برودة الحجر.

هواء أيلول في تلك الجزيرة منعش، رطب ولذيذ. يتردد صدى الأغنية، الموسيقى لتوكاس والغناء لبانوس، تقول الأغنية:

"آب.. ذلك الشهر الذي أعطيتني

تنسينيه أنت

سنون تمر... وبعد مدة قصيرة..

وها أنت على بعد أنفاسي

أضعنتي يا حبيبتني

ها نحن في الخريف.. وحبنا يغرق.

لا نستطيع أن نجد قمر آب.

جاء أيلول مبكرًا.. ها نحن في ضياع

كيف يمكن لنا أن نفرق؟ هكذا وبسهولة؟

في الخريف.. ميلانخوليا.. حزن وأسى

نسيت آب.. رميت المقاعد التي حجزناها

وأنتِ تعيدني لي إحساسي وشعوري".

أقول في نفسي: حقًا إن لغة الأحاسيس فطرية عالمية بسيطة ومفهومة لكل الناس مهما اختلفت لغاتهم. أحسست بالدفء. أدركت فيما بعد أنها كانت قد التصقت بي والتصقت بها بشكل عفوي. الحزن يقرب فيما بين بني البشر. ولكل أسبابه... فأعود إلى الحلم الأول. تحلمين في الليل بإله ذي شعر أسود. تحلمين كأُم إله. تحلمين كفينوس / عشتار وننسون وإنانا والعذراء نليل والعذراء مريم. تحلمين كمريم في محراب والدها عمران وفي مساجد الليل ومعابد النهار.

وأنا أحلم بتلك العاهرة الطاهرة. بفاطمة التي حملت بلا دنس. فاطمة محمد شكري وفاطمة غوثار وفاطمة ناجي العلي.. وفاطمة أنكيدو فتاة البهجة البغي المقدسة:

"ألا فلتتبوئي مكانتك الحقّة..

ليكشف لك من يعانقك كنوزه،

من عقيق ولازورد وذهب.

وليعطك من يقضي وطره منك حقّك.."<sup>(30)</sup>

المغني بانوس - من نسل فينوس ربة الجمال وعشتار ربة الخصب، يغني مرةً أخرى بعد خمسة آلاف سنة، يغني عن المومسات، عن Lathathica وعن:

"تحويل الأكواخ الصغيرة إلى بيوت دعارة

هكذا يتحدثون عنك بدون حقّ

وأنتِ تنامين.. كأنك في بيت عهر،

وأنتِ تصحين.. أسطورة شائعة،

لذلك لا يستطيعون سجنك

أنتِ على كل لسان، تعيشين في الظلام بشرف

تأكلين خبزك بعرق الجبين

ولا تحلفين أنك طاهرة

إشعاعك يلفّك، تبدين في ثوب أحمر

قميص من دخان أبيض ومن حشيش

تقضين ليلك في الشوارع وعلى الطرقات الرطبة

المصنوعة من الحجارة

على أبواب الجنة يدفعون من أجل الدخول

وأنا أدفع كل ما تريدين

في تلك البيوت يباع كل ما يُطلب

في كل غرفة زنا.. يتنفس فيها شاب قويّ بثقل

ملايين البشر ضاعت في الوحدة

ثم انضموا إليك..

إليك يأتون من وحدتهم وضياعهم

تُقلع السفن بعد أن يأتي البحّارة إليك

كم من البحارة أتت إليك؟

لكي يجدوا رجولتهم ويتركوا حافظات نقودهم".

أعثر في الـ"يوتيوب" على أغنية للمغنية الأمريكية تينا تيرنر، عنوانها "الراقصة الخاصة"، والتي تقول كلماتها: "الرجال يأتون لهذه الأماكن، كل الرجال متشابهون، أنا لا أنظر إلى وجوههم، ولا أسأل عن أسمائهم، لا أنظر إليهم كبني بشر، حتى ولا أفكر فيهم بتاتاً، أبقى فكري حول النقود، وأبقى نظري مسلطاً على الحائط، أنا راقصتك الخاصة، راقصة من أجل النقود، وسأفعل ما تريد، أنا راقصتك الخاصة، من أجل النقود، وأي موسيقى قديمة سوف تستقبل بفرح".

وهنا تعود فاطمة محمد شكري، تتجسد مرة أخرى كما يعود ابن القحبة الذي نقدنا ثمن بضع ثم سرق النقد. كم من المفارقات كانت في وجع اللحن؟

سرحت ولم تطل سرحتي. أعادتني لكزة منها إلى حيث الزمان والمكان الذي كنا فيه. أفيق لحظة ثم أعود إلى عالمي.

هي التي عرّفتني على "ابنة عمي لوزا"، كنا في صالون البيت، ثلّة من الأصحاب والصويحبات، دخلت لوزا تترنح، مدت يدها، وقفت احتراماً لها، ومددت يدي، تصافحنا قالت معرفة نفسها:

- بوتانا لوزا.

- بوتانا وليد.

حسبت أنّها تعني "تشرّفنا أو أهلاً وسهلاً"، علّت الضحكات وضجيج الطرّق على الطاولات. فإذا المعنى "عاهر". احمرّ وجهي خجلاً.

ارتبكت.. حسبت أنّي ارتكبت حماقة وإذا بي ارتكبت خطأ مضحكا بدا كأنه مقصود. أعجبهم "ذكائي" لأنني شاركت في الضحك بيد أنه وفي الواقع، كان ذلك غباءً ما بعده غباء. خاصة عندما أدركت فيما بعد ماذا كان الخبر في أمر بوتانا. واحمرّ وجهي مرة أخرى

ولا يزال حتى الآن كلما تذكرت هذه الحادثة.. يحمّر الآن من الغضب ومن ذلك القهر الذي كانه لويزا فتعدّها منتقلاً إليّ. لويزا مثل تلك النبتة دائمة الخضرة والرائحة الزكية/ روزا، على الرغم من زواجها الفاشل، لم يتجرأ عليها الذبول.

قيل إنّ الخمرة والأطفال تكشف الأسرار.. قالت وهي في حالة سكر:

- لا تغضب. عندما نكون أنقياء من الداخل لا شيء من الخارج يلوّثنا.
  - وعندما تكونين نقية من الداخل سيدتي "بوتانا لوزيرا" لا يغيّر الاسم شيئاً. المهم أن نقرر أن نكون في صفّ الأنقياء.
  - وعندما تتلاقح الأفكار يجبل الواحد وتجبل الواحدة منا حبلا بلا دنس. ومهما كان دنس الآخرين ومهما طالت أشهر الحمل يبقى الواحدة منا نقيّاً كقدّيس، طاهرّاً كملاك، نبيلّاً كروح القدس، دائم الخضرة والشذا كأوراق الروزا.
  - كذلك حين نعرف ماذا نريد لا كما يُراد لنا.
  - تماماً كوالدة جلجامش ووالدة سرجون الأول ووالدة بوذا ووالدة كريشنا وأتخريستوس.
  - تماماً كما عرفت ليزيتراتا وصويجاتها.
- فما الذي كان من أمرها؟ أستجمع قواي لكي أعود إلى عالم المسرحية.

## عن سيروس

تساعد في عودتي لكزة منها مشيرة إلى صديقنا المشترك سيروس، وهو يدخل المسرح من ناحية اليسار. رافعاً عقيرته محرّضاً على ليزيستراتا بحقد وغضب. سيروس صديق مشتركٌ ونديمٌ رائع.. يشرب برميلاً من النبيذ الأبيض ولا يهتز. عرّفتني عليه هذه الصديقة الصدوقة إيليّ منذ أربعين سنة. خلالها قصر أكثر وتكوّر، وأصبح يميل إلى البدانة.. يظل يخلط الجد بالهزل فلا يعرف غير الأذكاء ماذا يقصد.. جدّه هازل وهزله جدّي، لكنه إذا ما تكلم يجبر السامع على الإصغاء حتى وإن تكلم بلغة لا تفهمها. يتحدث بلغة الأحاسيس العالمية الأمية وبتعابير الوجه وحركات اليدين والإيماءات والإيماءات العابرة للقارات والأجناس والألوان والعصبية والقوميات. إنه سيروس الكوزموبوليت. حتى نورا العربيّة الفلسطينيّة التي تعيش في قبرص، تقول عنه ذلك.

قالت إيليّ: إنه لا يتقن غير اليونانية لغة وتاريخاً وحضارة. يتكلم اللغة الفصحى بديالكت واضح وصريح ومعنّق. يعطي كل حرف استحقاقه اللفظي ويعتبر أنّ مناطق الحروف ومنابعها علم قائم بحد ذاته أساسه الفطرة والبساطة والمنطق.

أعادتني طريقته إلى ما كنت قد تعلمت في السنوات الجامعية الأولى. تذكرت دروس المنطق والخطابة والسياسة عند أرسطو. تذكرت حوارات سقراط وأسلوبه وما كتبه عنه أفلاطون. تذكرت متابعتي فيما بعد- خارج أسوار الجامعة- لمنابعهم من الحضارة السومرية والبابلية والأكدية والكنعانية والفينيقية والفرعونية. ومن يتتبع الحضارات السالفة يرى أنّ كلّ واحدة منها، ما هي إلا حلقة في السلسلة، ولا شيء في تلك الحضارات يجيء من العدم.

سألت نفسي أنا الابن الشرعي للحضارة في هذا الشرق من سومر وبابل وأكاد إلى شبه الجزيرة العربية. سألت نفسي لماذا أنا متعلّق إلى هذا الحد ببلاد الإغريق.. بفلاسفتهم وبأساطيرهم؟ مصادر المعرفة بلا حدود. ديموقراطية أثينا كانت قبل 2400 سنة.

لماذا كلَّما شعرت بالاختناق أسافر إلى قبرص أو اليونان أو مالطا أو كريت؟ هل الجزر تستهوي الإنسان؟

الاختناق يخلق الحاجة إلى التنفس. أريد أن أتنفس، معناه أن أسافر إلى قبرص. المحيط الذي أعيش فيه يعرف هذه الظاهرة. حتى زوجتي ليلى التي أحب تدفعني أحيانا. هي أكثر من يعرف طبيعة اختناقي.

هنالك أحيانا ما ورائيات تتحكّم في الواقع. قوىٌ عليا. فوق الحقيقة - سورالية تُفرض فرضًا على الواقع. أشعر أنّي ولدت هناك ومِتّ هناك في دورة سابقة. لست من المؤمنين بالتقمص أو تناسخ الأرواح، ومع ذلك حدثت لي أشياء غريبة. كان ذلك قبل قراءتي لكتاب "بحيرة الشيطان" لغادة السمان فيما أعتقد، إذا لم تخنّي الذاكرة.

أكون في مكان ما لأول مرة وأشعر أنّي كنت فيه قبلاً وأعرفه تماما.

أرى إنسانًا فأشعر أنّي أعرفه من قبل. سبيروس مثلاً أجزم أنني أعرفه منذ أكثر من ألفي عام. وإنّه صديقي منذ أمد بعيد. لوزا هي ابنة عمّي من تلك الفترة وصوفي هي أختي.. "أذالفي" باليونانية.

وهي، هي إيلي حين تعرفت عليها في هذه الدورة قلت لها بشكل عفوي أنّي رأيته في السابق، أعرفها منذ القدم. سخرت مني وظنّت أنها إحدى طرق نصب شبك الرجل للمرأة.

قالت: هذه ليست طريقة أصيلة!

This is not original!

قلت: وهل تكون أوريجينال إذا دعوتك لشرب فنجان قهوة.

قالت: نعم.

كان ذلك في جنيف في مؤتمر لنصرة الشعب العربي الفلسطيني والشعب اللبناني في اوائل الثمانينيات. لم أجرؤ على البوح بمسألة المعارف السابقة. شربنا أول فنجان قهوة معا في التاريخ الحديث. كانت هي مندوبة ومقررة "أبسو" (منظمة الدول الأفرو-آسيوية)



وكنت مندوبًا عن جمعية أنصار السجين.. دامت صداقتنا منذ تلك اللحظة بل وأكاد "أجزم" أنها بُعثت من جديد. منذ عهد أبسو - مجمع الآلهة في أريدو.. خزان المعرفة.

ما أروع أن يعود التمرد على كبير الآلهة زيوس، على سيف النار الذي شطر به الإنسان الأول. كان هذا الإنسان مزودجًا، في كل شيء من حيث الجسد ومن حيث الروح والحوار والمناقضة ومقاومة المألوف والقوة والجرأة. وبعد أن اغترّ وجذّف على زيوس شطره بسيف النار فقسمه إلى نصفين. بقيت في كل قسم جينات وصفات النصف الآخر، ونزعة التمرد على الآلهة والشوق إلى الألوهية.

قويًا كان ذلك الإنسان المزدوج. إلى الأمام يمشي كما إلى الوراء. يرى كل الجهات. قويًا كان وله عقلان وأربع عيون وأربع أيدٍ وأربع أرجل.. وكان ذكرًا ملتصقًا بظهر أنثى وذكرًا بظهر ذكر وأنثى بظهر أنثى قبل انشطاره. أخال إنه سكن في نوعه الأول بجزيرة قبرص على قمة جبل ترودوس وسكن الثاني في اليونان على قمة الأوليمبوس وسكن الثالث في جزيرة لسبوس (ميليبي) في أعلى جزر الأرخبيل. وعاش كل نصف في شوق أبدى إلى نصفه الآخر. وكما اخترع الإنسان اللغة ليخفي مشاعره كذلك اخترع الأسطورة لكي يكشفها.

ما أروع الأسطورة التي تريح الخيال والتهيؤات. في الزمان الغابر فسّر الإنسان العالم بواسطة الأسطورة واستراح، أمّا اليوم "بوتانا زويي"! أي حياة قحبة وأي زانية طاهرة أنت أيتها الحياة.

كم أشتاق لحالة الضياع في غابة الكستناء في تلك الجزيرة النائية.

وتعاودني حالة الاختناق ويناديني النصف الآخر. أشعر بالحاجة لسماع صوتها.. صوت الحياة المغرقة في القدم. أنقر على كبّاس الهاتف. الجهاز الذكي يخترل الأرقام. تكفي نقرة واحدة على رقم خمسة. أتساءل لماذا برمجت الجهاز على رقم خمسة. خمسة خميسة، بقايا أسطورة ضد الحسد، يحییء صوت من الداخل! أضحك من هذا التفسير الساذج. على الطرف الآخر أسمع صوتها: براجالو.. أي عفوًا!

- هايانامو (لفظة يونانية وهي تصغير لما تستعمل في مخاطبة الأطفال للتحب).

- هاي.. لماذا صوتك حزين؟ هل أصابك مكروه؟
- لا.. أكتب عن الميلانخوليا في سبتمبر وعن فاطمة وأزما أزماتون وليزيستراتا.
- إذن ما المشكلة؟
- أشعر بالاختناق.. فأكتب عن الحبل بلا دنس! أتنفّس الأسطورة!
- أنت تقلقني.. صوتك عميق وحزين ومحموم.. هل أنت مريض؟
- لا.. أشعر بالاختناق فقط وأهذي قليلا!
- هل أجريت فحوصاتك بعد عملية الشرايين..
- (هي تعزو ذلك الضيق إلى مرض القلب)
- لا تقلقي!
- أنت تخيفني.. تعال واسترح ولو لثلاثة أيام.
- لا أستطيع.. هنا التزامات أخرى... سوف أتدبّر في أسرع وقت..
- أتنفس الآن من خلال الكتابة، أستمد الطاقة من حقولكم أيها القبارصة الملاعين.
- الطاقة تنبع من الذات.
- ومن الآخر.. ومن الذات الكونية ومن كهربيّة الكون.

تذكرت ما دار لدى الطاهر وطّار بهذا المعنى في "تجربة في العشق"، وتذكرت ما دار بيني وبين سبيروس حول حقول الطاقة، المادية التي تتحول إلى معنوية وبالعكس. نستمدّها أحيانا من المكان أو من الزمان والمكان.. نستمدّها أحيانا من إنسان أو من حيوان أو من نبات.. من بريق في عيون أو من كهربيّة شعر (بفتح الشين وكسرهما) أو من مجال مغناطيسي يحدثه بيت شعر..

قال: كثيرة هي مصادر الطاقة ومتنوعة. يستمدّها الهنود الحمر من حجارة نهر الأمازون الملساء، يرسمون عليها صور حيوانات.. يحتفظ كلّ واحد بحجر الحيوان الذي يتهاهى معه. يلامسه باستمرار ويستمد منه القوة بحسب مزاجه وصفاته.

هنالك حجارة ملوّنة حين نحكّها تُخرج زيتاً ذا رائحة عطرة. لكل لون رائحته ولكل رائحة طاقتها. ضوع الحجر طاقة تنفذ عبر حاسة الشم.

مكان السرير في غرفة النوم.. دخول النور.. أصيص الحبق على حافة الشباك أو شجرة زيتون على قارعة الطريق.. كلُّها مصادر طاقة.

"ما أغرب الإنسان" قال سيروس، وتابعنا الحديث عن المعارف السبع وعن المُستيكا. كان أغرب ما في الأمر أنني منذ رأيته لأول مرة شعرتُ أنني أعرفه منذ القدم. هو لا يعرف غير اليونانية والقليل القليل من الإنجليزية. كان يتعكّز على الحركات والإشارات وتعابير الوجه. هو ممثل بالفطرة. يُعتبر من الصف الأول. ذؤابة قومه من حيث فنّ التمثيل المسرحي، وأنا لم تكن لديّ أدنى فكرة عن هذا الفنّ ما عدا الدور الذي قمت به على مسارح المحاكم العسكرية في المناطق المحتلة 1967... خلال أكثر من عشرين سنة.

أدركنا نحن الاثنان أن كل واحد منا يشكل حقل طاقة بالنسبة للآخر.

كنا جزءاً من مجموعة. حقاً إنّ الأرواح جند مجنّدة.. منها من ائتلف ومنها من اختلف. ولا شك في ذلك. للأرواح علاقة بمسألة الألفة والألاف. ليس الحديث عن شيء سريالي وإنّما عن حقول كهرومغناطيسية وعن ردود فعل وتفاعلات كيميائية. "كيميكال ري أكشين chemical reaction" كما قالت العاملة كليز رانير. أي هنالك علاقة بين الحب والرائحة التي تنبعث من الجسد الناتجة عن الهورمونات والفيرمونات الخاصة. هذا هو أحد تفسيرات الأرواح كجند مجنّدة.

فيل ريشتون يذهب إلى أبعد من ذلك؛ يقول إنّ عاطفة الحب تعتمد على الجينات وعلى التماثل أيضاً بين أعضاء الجسد.. كشحمة الأذن أو الإصبع الأوسط أو قطر الرقبة وطولها وفتحة العيون وعرض الجبين وتشابه الملامح.. وقد أظهر في بحث أجراه، أنّ سبعين في المئة من الزيجات الناجحة فيها تشابه كما جاء أعلاه. أظهر في بحث آخر أيضاً أنّ الضفادع تتألف مع أشقائها نتيجة التشابه الحاصل جرّاء عامل الوراثة.

قال سيروس: ما الغرابة في ذلك؟ خصوصاً في قضية المجال المغناطيسي والكهربيّة الإنسانية... فجسم الإنسان يتكون من عناصر ومعادن مختلفة، رصاص زنك، نحاس، حديد، ولكل معدن من هذه المعادن مجاله المغناطيسي/ الكهربيّ.

قلت: تمامًا كما يقول د. سامي محريز في روايته "بقلبي لا بعقلي": "إن دورة الحياة فينا تتجدد مرة كل سبع سنوات، يتغير فيها جلدنا بالكامل، وبالتالي مجالتنا الكهرومغناطيسية وبالتالي نبضاتنا الموجبة والسالبة". وإن نوع الطعام الذي نتناوله يحدّد معالم هذا المجال وتلك النبضات والموجات. فلهجمل الجمل يّختلف عن لحم البقر من حيث نسبة المعادن والعناصر. كذلك لحوم الماعز والظان والأسماك.. وكذلك أنواع النباتات.<sup>(31)</sup>

أي سيروس! المهم أنّنا نأخذ الواحد من الآخر طاقة وشحنة وقوة وقدرة على الاستمرار في هذه الحياة.. نتنفس من خلالها كي لا نخنق. قال لي المطران كابوتشي وكنت أزوره في سجن الرملة: "أنت الرئة التي أتنفس من خلالها!" هو لم يدر أنّه كان رئي أيضًا. أزوره كلما شعرت بالاختناق. أذهب إليه لأستمدّ من عينيه النبويتين قدرةً للدفاع عن السجناء السياسيين في تلك الفترة. صالح برانسي، داود تركي، وغازي السعدي وآخرين، كلهم قضوا نحبهم... وبقيت وحدي، ربّما لكي أسجّل أسماءهم.

أشعر الآن بالاختناق، أذهب إلى تلك المجموعة في تلك الجزيرة، التي كانت عذراء كشواطئ تريغوناس في ليسبوس (متيليني). كانت عذراء كتليل وكننسون وكفاطمة.. بوتانا زويي.. تحرّري!

- الطاقة في داخلك كامنة فحرّرها. الذات هي المصدر الأساسي للطاقة فحرّرها! بوتانا زويي...

حرّرها! في آذار 2017 اكتشف أطباء المشفى الإنجليزي بالناصرّة تضخُّمًا في شرياني الأهر البطني ثلاثة أضعاف الحجم الطبيعي، كان ذلك بالصدفة، لم يجرؤ أحدٌ منهم على إجراء عمليّة القسطرة، كان الوضع حرجًا... أصروا على نقلي لمشفى آخر، رفضتُ وقلت لهم: هنالك دائمًا أوّل مرّة! ولي ثقة فيكم! شعرت بطاقةٍ كونيّةٍ إيجابيّةٍ تنصبُّ عليّ من الأعلى، ثم تنفرش عليهم... راهنتُ على حصانٍ كاسب، كانت غرفة القسطرة مليئةً بالطاقة الإيجابية. بعد جهد ست ساعات نجحت العمليّة، كانت أوّل عمليّة من هذا النوع يجرونها في ذلك المشفى وكانت أوّل مرّة يستمد فيها الطاقم الطّبي من المريض طاقة لثقة

المريض به.. قلت للأطباء: مش كلّ إفرنجي برينجي! لديكم طاقة، فحرروها! بوتانا زويي!

ولنعدّ إلى حيث كنا! نسافر عبر النفق الجديد بين نيقوسيا وبافوس. تمرّ السيارة مسافة كيلومترين كالسهم المارق من بطن الجبل. من النور إلى الظلمة. أوقفنا دورية سير. ستوب! مخالفة سرعة. المنطقة تحت نفوذ القواعد البريطانية. تدفع المخالفة لصندوق حكومة صاحبة الجلالة منذ "الاستقلال" وبموجب اتفاقية زويرخ لسنة 1966. هكذا يعمل القانون العابر للقارات.

- ممنوع الصيد في ثلث شواطئ هذه الجزيرة.

قواعد عسكرية أجنبية.

- بوتانا زويي.

- هكذا تعمل فيها أيضًا الشركات العابرة للقوميات.

- هي بحاجة إلى ليزيترات!

- سيروكا يختنق، فيلى أين يذهب؟

قلت له: تعال تنفس عندنا ثم أدركت أنّه سيكون كالمستجير من الرمضاء بالنار.

قال: "ليتكلم قوسك إن كنت عازفًا، وقدماك إن كنت راقصًا. وزندك إن كنت

مقاتلاً".<sup>(32)</sup>



## ليزستراتا

ليزستراتا ترفض أن تحتق.. تقود فرقة من النساء الراضيات.. ذوات الطاقة الكونية الإيجابية.

يتحزبن ضدّ العنف. يعلننّ الحرب على الحرب. وهل سمعتم عن الحرب الباردة قبل ألفين وأربعمئة عام؟ وهل سمعتم عن المرأة التي لا تملك إلا فرجها، تحارب به حرب اللاعنّف الباردة بكل معنى الكلمة؟

هذه المرأة القويّة تقود فرقة النساء. يجمع بينهن الثكل واليتم والرّملة.. والقهر والخازوق. حين تتضح الرؤية يكون الالتزام بالرؤيا والالتصاق بالهدف، ويكون القرار: لا يحقّ للرجال أن يقودوا الأمة إلى الهلاك. الأنثى هي الأصل ما دامت تُشكّل حطب المعركة، والمرأة تقود في البيت، والبيت قلعة.. بيت الإنسان قلعته. من هذه الجزئيات ينطلقن إلى الكليات. تتجمع نساء أثينا.. في الاجتماع قوة. تتقدمهن ليزستراتا. يستولين على أموال الأكروبوليس، حكومة المدينة ومركزها وعصبتها. يتم "احتلال" الكابتول سلمًا، بدون عنف. والحضارة والإنسان الحضاري قوة وعنفوان بلا عنف.. والطاقة لا تفنى إنّما تتبدّل بالشكل.

هكذا يحدو أرسطوفانيس بالمسألة. للمرأة الحق في جسدها. تحرير الجسد من العبودية ينسجم مع تحرير الروح. إذا تحرّرت الروح تحرّر الجسد. وحدها المرأة تملك جسدها. وكان العهد النسويّ وذلك العهد الدوليّ من ألفين وأربعمئة عام. لم تأت منظمات حقوق الإنسان بجديد. يدل ذلك على عمق المأساة وتجذّرها في تاريخ البشر.

يتناول أرسطوفانيس هذه المأساة بشكل مضحك. يجعل منها كوميديا نفاذة. تستولي النساء على فروجهن "لا يمكن لرقاب أن تُداس ترفض أن تُداس"<sup>(33)</sup>. لا يستوعب الرجال الأشداء هذا الموضوع قالوا: الفكرة سخيفة، حاجتهن إلينا لا تقل عن حاجتنا إليهن. صحيح ولكن...

تصرّ نساء أثينا.. فإما الحرب وإما الفرج. يدركن أنهنّ يمتلكن المال ورأس المال والقوّة.

لا معنى هنا للاغتصاب.. الضعيف فقط يمكن أن يكون مغتصباً ولا يمكن لمثل هذه العلاقة الحميمة أن تقوم على فكرة الاغتصاب..

هكذا تُضرب نساء أثينا عن ممارسة الحياة الجنسية - "هذا فرجي وأنا حرّة به وأخطئه أو ألقه أو أختمه بالشمع الأحمر. الحرية تبدأ في الرأس وتنتهي في الفرج... في الروح وتنتهي في الجسد".

يحاول الرجال اختراق صفوفهن، لكن عبثاً. تضعف بعضهن لكن ليزيسترانا تبعث فيهن القوة والعزم والعزيمة والصبر والاحتمال. فالشجاعة صبر ساعة وفي الاتحاد قوة.

والرجال الذين قالوا إنها فكرة سخيفة يبدأون بالعواء.. عواء الواوي الذي بلع منجلاً.. ويبدوون بالمواء.. مواء قط فحل محروم في شهر شباط.. حالة احتقان مخيفة.

يهيم الرجال على وجوههم بأعضاء مستفزة ومحتقنة ومتفخة وعصبية وشرسة..

يغرق المدرّج بالضحك. هي تلكزني مشيرة إلى سبيروس، كيف يلوب، كيف يجيد لغة الأحاسيس ولغة الجسم وكيف يتقن لغة الحيوان.

لا ضرورة أن تعرف اللغة اليونانية. هو يتكلم بجميع لغات العالم. يتحدث ويدور حول نفسه تماماً كقط يموء في شهر شباط، يتقوس، يتقلّص ويتمدد في حمى الغريزة. يموء ويتحقرص ويكابر.. يحاول أن يخفي عضوه التناسلي المتمرد، لكنه كلّما حاول وأمعن في طيران المحاولة ظهر وبان التحفز والاحتقان والتمرد..

لم يكن حال مجموعة الرجال الآخرين أقل سوءاً. هذا المشهد الجنسي مضحك لدرجة الرعب.

أمّا "البندوق" فقد كان مخرج المسرحية، يحاول اختزال 2400 سنة في لقطة عابرة لكنها مؤثرة. يمد سبيروس يده إلى جيب قمبازه الفضفاض يُخرج الجهاز الخليوي. ينقر



بعصبية على أزراره، يطلب كاهنة المعبد.. ثم غانية المعبد.. ثم فتاة البهجة. لا أحد يردّ عليه.. يعاود المحاولة مع أحد القوّادين من أصحاب بيوت الدعارة، يدور الحوار:

- أُرسل لي بوتانا!
- ليس لديّ يا سيدي.
- قلت لك دبر لي آية واحدة.. لا تهمني أوصافها.
- عفواً سيدي لا يوجد ولا واحدة!
- قلت لك دبر لي (يرتفع صوته) ماذا؟ وهل تظن أنني هومو؟
- المَعذرة.. لا أقصد هذا أبداً. لا توجد ولا واحدة، فجميعهن مضربات عن العمل تضامناً مع ليزيستراتا.

تنتهي المحادثة. تنتهي المسرحية. يخضع الرجال. تنتصر النساء وتتغلب أميرة الحب على أمير الحرب، ولولا عاهرات أثينا لما تمّ ذلك! ولولا وعي المومسات لما تمّ ذلك! فهل سمعتم عن مومس عذراء طاهرة غير ملوثة؟

هكذا كان لدى بنات أفكار أرسطوفانيس. تلك البنات وهذه الأفكار التي لا يلوّثها شيء ما دامت نقيّة من الداخل.. لا يلوّثها شيء.

وهكذا مع كل فكر.. تتلاقح الأفكار، وتحبل وتلد، وتبقى عذراء نقيّة طاهرة.. فيكون حبلاً بلا دنس.

وهكذا تنتهي المسرحية وتبدأ الحكاية التي لا تنتهي. تبدأ من جديد لأن عناصرها ما زالت مستقرّة في الوجدان البشري، ومستمرة في واقع الحياة، ومستمرة في الحكايات والأساطير التي أبدعها الإنسان.

الحكاية أو الأسطورة التي نعيد صياغتها تخدم الفكرة. تخدم الموقف والموقع. والأسطورة ليس لي، إنها كقطعة أرض ليست لي، أحرثها، أزرعها، أُسمّدها، أرشّها بالمبيدات الحشرية وأصبغها بلونيّ الفكري، سواء كنت الثائر المحترق أو العلماني، أو رجل الدين والدنيا المحترف.

أذكر عندما كنت في العشرينيات وعندما كنت أجد على مخضرة الأدب أنني كتبت جملة جعلتها شعاري في تلك الفترة، وكنت أمرّ بأزمة عاطفية - "كل امرأة عاهر!" كتبتها بخط حروفه مذبذبة، حادة وكأنه خارج من معركة نزوة.

قالت تلك التي كنت على علاقة معها لمدة ستة عشر عاما: وأمك؟  
قلت: بما في ذلك أُمي لكنها مقدّسة.

مع مرور السنين ونتيجة لتراكم المعرفة تتبدل النظرة إلى الحياة وتفتت الأصولية الجنسية وعقدة الخطيئة الأولى. وتأتينا المرأة المستحيلة تتهاذى كغزالة الحلم.. توقظ المشاعر وتحرك عملية الإبداع في الواقع، والواقع المتخيل والخيال الواقعي.  
هذه المرأة ليزستراتا.. هؤلاء النساء عامة والمومسات خاصة، ماذا كان سوف يحدث لولا تضامنهن؟

لا، لا، ليس هذا الكلام الشعاري ما أردت أن أقول. ما أردت قوله هو: لولا نبيل المومسات لما قامت لهؤلاء النسوة قائمة، ولما انتصرن في حرب الاستنصاف وتقاسم الوجود الإنساني الذي تسببه الكوارث والقتل والاقتتال.

هذه هي المرأة. نبيلة في عُهرها وشاخة في طُهرها وحيمة في تعاملها ومُلهمة حين تعرف ما تريد وحين "ترتفع إلى مستوى المسؤولية وتتحصن بالصمود الأسطوري.. تنفض عنها وعن رحمها وعن روحها وعن جسدها كل أنواع الخوف والخنوع وتسعى نحو نسل جديد".

تصوّروا لو أنّ واحدة منهن وهنت أو خانت!

وهل كان ابن عربي - أمير الصوفيين في العرب والإسلام - سوف يغيّر ما قاله عنها؟  
لا اعتقد!

"يقول في كتابه فصوص الحكم:

"فإذا شاهد الرجل الحقّ في المرأة، كان شهودًا في منفعل، وإذا شاهده في نفسه - من حيث ظهور المرأة عنه - شاهده في فاعل، وإذا شاهده في نفسه من غير استحضار صورة

منه تكون عنه، كان شهوده في منفعل عن الحق بلا واسطة. فشهوده للحق في المرأة أتم وأكمل لأنه يشاهد الحق من حيث هو فاعل منفعل.. فلهذا أحب رسول الله (ص) النساء لكمال شهود الحق فيهن، إذ لا يشاهدُ الحقُّ مجردًا عن المواد أبدًا. فإنَّ الله بالذات غنيٌّ عن العالمين. وإذا كان الأمر من هذا الوجه ممتنعًا، ولم تكن الشهادة إلا في مادة، فشهود الحق في النساء أعظم الشهود وأكملهُ " (34)

وليس بعد هذا الكلام.. كلام!



## ليزستراتا وبرايسكوس

كتب أرسطوفانس ملهاة ليزيستراتا سنة 411 ق.م. احتجاجاً على الحرب البلوبونيزية التي انتهت بانتصار ساحق لإسبارطة وهزيمة مؤلفة للديمقراطية الأثينية عام 404 ق.م. لقد أهمل هذا النص على مدى قرون، إلا أنه عاد وطفى على خشبة المسرح.. خاصة بعد حرب فيتنام. وظهر مجدداً على شكل تمرد سياسي جنسي في نبرة تهكمية لاذعة في أمريكا. ثم ظهر مؤخراً على شكل "مشروع ليزيستراتا" العالمي المناهض للحرب على العراق سنة 2003، ونشرت ترجمة عربية للمسرحية في السنة التالية لهذه الحرب.

في أواسط القرن التاسع عشر الميلادي تمنى أحمد فارس الشدياق أن يكون امرأة واعتقد أن المرأة تنوف على الرجل، فاستغرب الذكوريون وما زالوا، فقالوا: كيف يتمنى أن يكون امرأة.. وكيف لمتسلط أن ينهزم؟

وجاء من قبل ومن بعد رجال من أتباع العبادات القمرية يؤمنون أن الأنثى هي الأصل. وكان هذا هو الوصال.. يوم كان "العهر" باعثاً للحرية لا كما هو اليوم رمزاً للعبودية.. فبغي المعبد هي امرأة البهجة، وغانية المعبد هي التي كانت تتحكم بالرجال، والغانية هي التي تستغني بجماها عن الزينة، وهي تُطلب ولا تُطلب، تعطي بإرادتها وتأخذ بإرادتها.. لا كما هي اليوم تُشتري وتُباع في سوق النخاسة وفي سوق العولة.. وأسواق داعش... إيه أيتها الأم الأولى!

ثمة سؤال يحضرني الآن.. لماذا اختفت رسالة الجاحظ في القحاب. كم أجهدت نفسي وغيري في الحصول عليها حتى جاء بروفيسور سدان، ذلك الصديق منذ أيام الجامعة العبرية، وقال لي: لا تتعب نفسك! هي مفقودة... والقحبة لغة هي الفتاة البكر، وقحب يقحب بمعنى، سعل. فالقحبة مشاع تؤدي ثمن بضع والسعال مشاع لكل الناس. أما الأمة فهي التي تباع وتشتري في سوق النخاسة وتكون حرّاً لصاحبها، فقط لرجل واحد،

حكرًا له إلا إذا أراد بيعها أو إهداءها أو كان ديوثًا. من هنا يقحب الرجل كما تقحب المرأة. وفاطمة محمد شكري تشهد على ذلك.. وكلاهما يسُعل!

وجهاد النكاح في القرن الواحد والعشرين، يشهد على ذلك، وكيف يقحب الرجل باسم الدين! وكيف يصبح الرجل ديوثًا باسم الدين، فيطلق زوجته ويرسلها لكي تجاهد جهاد النكاح... لتدخل معه إلى الجنة!

وقحاب اليوم يُوجَرْنَ سنويًا بملغ وقدره سبعة آلاف دولار، تمامًا كسوق العمالة في عصر العولمة. أمّا الجارية فهي مُلك اليمين والتي تجري من صاحب أو صاحبة إلى آخر أو أخرى بدل ثمن، والمخبأة هي الجارية لم تتزوج بعد. والقيّنة هي الجارية أو الأمة التي تعزف على آلة طرب أو ترقص أو تغني أو ترقص وتغني معا. وكما جاء فكلهن مملوكات. "وكانت فارسُ تعدّ الغناء أدبًا والروم فلسفة" ومن عادة القيان عدم الإخلاص في الحبّ والعشق لأنها مكتسبة، لا تملك ذاتها، والمقين المربوط هو عاشق القينة كما يقول الجاحظ، لا كما كانت عشتار تنتقي الرجال انتقاءً بإرادة حرّة. وما كانت فارس تعدّ الغناء أدبًا إلا لأن الغناء من جنس الشعر، ووزن الشعر من جنس وزن الغناء وكتاب العروض من كتاب الموسيقى. والمقين هو مدرّب القينة على العزف والغناء والرقص... فنون الجنس.

لماذا اختفت رسالة الجاحظ في القحاب، وبقيت رسالته في القيان؟ لأن الرجال تقحب كما تقحب النساء؟ أم لأنه أراد أن يعود إلى عهد الأمومة؟ سؤال لا تهتك فيه وإنّا نملأه الرزانة. سؤال يخرج من باب حكايات الحبل بلا دنس ومن زهرة اللوتس التي نبت في سرّة الإله ومن روح القدس ومعنى الحياة ومن نبتة القلق، أو بالأحرى النبتة ضدّ القلق.

من هنا جاء الشدياق وتمنى أن يكون امرأة تماهياً مع الأم الأولى.

إذن نحن نكتب لنعرف أكثر ولنغوص في معنى الحياة ونستعيد حالة التوازن الداخلي جرّاء صراع المكونات الداخلية وحالة التوازن الخارجي في الطبيعة، لمعرفة أسرارها وصراعاتها وللفكّك من أسر الطبيعة وبالتالي لكي نتغلب على قوانينها ونتوحّد معها وفيها. تمامًا كما يتوحّد الصوفيون مع الله على المستوى الميتافيزيقي، نحن نتوحّد مع الطبيعة

على مستوى الواقع.. لنعرف سرّها.. سرّ الحياة، ولنسبر غورها في معرفة معناها. معنى الحياة في المعنى العلماني.

"فالقنبلة" التي يتحدث عنها علماء اليوم المصنوعة من أقوى المواد والمعادن ستنزل إلى قعر المحيط وسيكون بمقدورها أن تتحمّل 250 درجة حرارية وألفي ضعف الضغط الجوي.. وستقوم باكتشاف سرّ الحياة.

وما سُمّي مؤخرًا بالجُسيم الإلهي.... قد أعلنت عنه المؤسسة الأوروبية للأبحاث النووية CERN. وهذا الجُسيم هو جزء النواة المسؤول عن خلق الكون وإعطاء خصائص المادة. وقد كان هذا الجُسيم افتراضًا قبل حوالي الخمسين سنة وأصبح اليوم حقيقة بحثية وفي الغد حقيقة! وقد كان في الماضي السحيق سرًا أسطوريًا حدثتنا عنه ملحمة جلجامش قبل خمسة آلاف عام. وستلعب الأجيال القادمة بالخلية الأولى كما تلعب الآن بلعبة الاستنساخ وزراعة الأعضاء واختراق الفضاء والتغلب على قوانين الطبيعة بمسألة الجاذبية، وكسر وحرف الاتجاه الفيزيائي للموجات الكهرومغناطيسية.

وبعد، أليس المستقبل هو الذي يتحكم فينا تمامًا كما الماضي، فكل هزيمة مؤقتة، وكل انتصار مؤقت. و.. "ثمة جمالية خاصة للهزيمة تسمو على جمالية الانتصار" كما قال الكاتب الأرجنتيني بورخيس. هذه الهزيمة الفاعلة التي تُذكي الجانب النبيل في الإنسان وتدفعه وتنقله من رعونة الانفعال إلى رزانة السؤال.

كل ذلك كان تحت ظلال شجرة الغار.. المتجدّدة في كل عام.. في تلك المدينة الغائرة في عمق التاريخ منذ مئة ألف عام والتي عاش فيها "إنسان القفزة" النياندرتال، نسبة إلى اسم أحد جبالها. ذلك الرجل الوحشي.. "أنكيدو الناصري".." يرعى العشب مع الغزلان يرد الماء مع القطعان". وعند مورد الماء كانت له انتصارات وكانت هزائم تُذكي الجانب النبيل فيه كإنسان.

من هنا كما جاء، عند كل هزيمة أختنق.. فأسافر جواً إلى تلك الجزيرة وعلى شواطئ الليلك واللازورد في ذلك الماء أكون بقرية ليفورنيا على مقربة من لارنكا، قرب شاطئ العرّة.

تهبّ العاصفة فنتقل إلى الداخل. الكوخ عبارة عن شقّة فيها كل شيء يحتاجه الإنسان العادي. طاولة ومقاعد خشبية وأرائك وتلفاز وكومباكت ديسك وبرّاد وغسّالة وأسرّة وألعاب أطفال. وفي غرفة النوم سرير عشتار وتموز، تمتدّد فوقه قطعة قماش أزرق غامق، رقعة من سماء، قبة سماء ذات نجوم متألّئة وأقمار في المحاق وملاح وجوه إنسانية.

تهبّ العاصفة وتقتلع ألعاب الأطفال المترامية في الحديقة، وتقترب مياه البحر أكثر من الكوخ.. أشعر بردّاذة يلفح أعضائي وأنا أحاول تثبيت لعب الأطفال، بيوت صغيرة وأبراج وبركة ماء بلاستيكية. فمال الله الله ومال الأطفال للأطفال.

أصارع العاصفة من أجل ذلك الطفل القادم في اليوم التالي. أصارعها حتى تهدأ ولكي تبقى ألعاب الأطفال ثابتة على تلك المخضرة أمام الكوخ.

في الداخل تكون خمسة ضرورات: أنا وهي وسمكة مشوية وكرفة أوزو وقطعة خبز. في داخل الكوخ تترجم لي هي ما كتبه دي إتش لورانس في روايته "عشيق الليدي تشاتارلي" وأنا أفهم بتصرف؟ والثقافة ضرورة سادسة. أكتب: عندما تعطي المرأة ذاتها للرجل تكون هي كحصان جامع ويكون هو منقادًا مستسلمًا بكبرياء.. قبل وأثناء وبعد النشوة.

الخمر وكل أنواع المخدرات لا تصل إلى كعب هذه النشوة. البرهان الوحيد للعسل أن تذوقه! ربما من هنا جاء تعبير "ذاق عسلتها".

من المستحيل أن تُقارن هذه النشوة بأخرى. هذه النشوة هي التي أنسنت أنكيديو.. حيث كان حوار أخّاذ في أوّل العمر المعرفي.. الجنس أوّل المعارف يحوّل الوحش إلى إنسان. هذا حوار أوّل العمر.. وحوار آخر العمر وما بينهما. يقال حين عرف آدم حواء بمعنى مارس معها الجنس. المعرفة في الدماغ والنشوة أيضًا!

ما أروع أن تموت في أعماق المساء.. ثم تُبعث من جديد في شقشقات الصباح. استسلامٌ بكبرياء، نشوة، ثم موت صغير.

ما أشبه النائم بالميت، موت صغير يكون النوم بعد هذه النشوة.

نشوة وموت ثم بعث مع الكثير من الكبرياء الحقيقي والمرضي.



أتابع الكتابة: عندما تقول المرأة للرجل: كن صديقي! فهي تعرف أنّ الصداقة محبة والمحبة حب والحب وَلَهْ وعشق.

والعشق بحر وحصان جامح لا يركبه إلّا من تأنّس.

هذا هو العشق الإلهي. الله محبة. هذا هو الجُسيم الإلهي الموجود في الإنسان ذكراً كان أم أنثى.

فإن تعرف المرأة معناه أن تبدأ بالسير في طرق الآلهة، أمّا أن تكون صديقاً لها فمعناه أن تكون صديقاً لنفسك، وبالتالي أن تكون صديقاً لله السرمدي اللّانهائي، تحبه ولا تخاف منه!

لتعلم أنّه بدون الصداقة يكون الإنسان سمكة جافة.. تبقى جافة مرمية على شاطئ البحر غير صالحة مهما صببنا عليها من الزيت.

يخطئ من يظن أنّ البحر لا نهائي يقول لورانس. للبحر حدود وشواطئ. أما اللّانهائي فهو الأمواج وحركتها وتلاطمها. بالتالي تذيب الصخور وتفتّت الحصى فتحيلها إلى رمال. مثل ذرّات الرمال.. مثل عددها اللّانهائي، كذلك حبها.

عشقها.. يفتّت الحصى، يجعلها ملساء ويحيلها إلى رمال، أليس غريباً أن نجد عند دي. إتش. لورانس بعض ملامح الصوفية؟

تتحجّر الرمال عبر العصور، تتوحد في حصوة ثم في حجر ثم في صخرة هائلة وتعود وتفتّت، وتبقى حركة الأمواج. وتبقى كلمات الصحفي الصديق الشاعر باراسكوس (كريم) ترفرف في أغاني مرغريتا الطفلة ذات الأيام الثلاثة. تقول الأغنية:

"ندفعيني مع قبة مقدّسة واحدة، طاهرة ونقيّة إلى عالم الأسرار

وتجعلين من جسدي الفقير الترابي

جسماً سماوياً،

يرفرف حبي لك

ويخفق قلبي كخفقات العلم  
وأنا بين موجات بحرك الصغير المفتوح  
أغرق في سبع عواصف  
وأثبّت بموجة صغيرة ثلاثة أيام  
ثم أخلق من جديد  
أموت بعد هذه القبلية  
وأقوم كما قام المسيح.  
بالإضافة لحبي لك..  
أنت حاجتي..  
أخذ النور من عينيك.. يضيء ويحترق صدري.  
أنت لا زلت هنا.. اهتمامي وهمي الوحيد  
سأنتظرك حينما تذهبين  
أنتِ حكايتي الأسطورية  
تبعثين الضوء في اللاقرار  
أمشي حتى أراك تسيرين على قدميك  
أذهب إلى الجنة لأحلب لك الماء

من نهرها المقدس "أهيروندا" (الذي يفصل العالم العلوي عن السفلي)

لكي تشربي من شراب الآلهة. شراباً حلو المذاق مخملياً صافياً كبسمة ثغرك."

وهكذا باراسكوس الذي يوازي اسم "كريم" يصنع من أجل وليدته مرغريتا كل شيء.. براسكوس وليزيستراتا يتوحدان في حب الأطفال. يذهب هو إلى النهر المقدس أهيروندا ليجلب لها الماء لكي تستمر الحياة وتذهب هي إلى إخطاة فَرَجها لكي تستمر الحياة وتمنع الحرب، ويغامر جلجامش وإنكيديو ويقتلان ثور السماء، ويصرعان خبابا

حارس الأرز، ويقطع جلعامش بحار الموت حتى يصل إلى أرض دلون- الجنة السومرية، ويخاطر لكي تستمر الحياة بمعرفة أسرار الحياة.. المعرفة التي تمتح من بئر بدون قرار.. في رحلة لا تنتهي.

رحلة البحث عن الحقيقة في العلم والأدب وفي كل شيء أشغل ويشغل الإنسان. وليس بالضرورة أن يقودنا ذلك إلى الإلحاد. لأن العلم والإيمان مستويان مختلفان، يقوم الأول على التجربة والبحث ويقوم الثاني على التصديق بالقلب... يقول شبلي شميل في هذا المجال:

"إن العلم لا يدعونا إلى الإلحاد بل يكشف لنا الحقائق.

إن العلم يعلمنا حرية الفكر، فكيف يجوز له أن يعلمنا الإكراه في الإلحاد؟ إن ذلك ضرب من التعصب مقلوب الوضع".

ويضيف: "الحقيقة أن تُقال لا أن تُعلم".

ومع كل ذلك قُتل هذا الطبيب في عيادته على يد التعصب الديني.



## هو الذي رأيهم

بعد مرور حوالي أربعة آلاف سنة على أسطورة جلعامش يستمر البحث عن السرّ، الذي اتخذ اسمًا جديدًا: الخلية الأولى.

وافترقنا على أن نلتقي تحت أغصان تلك الشجرة التي تتجدد أوراقها كل عام.. بتلك المدينة التي لا تجدد شبابها... والمدن تكلح إذا لم تجدد شبابها. المدينة غائرة في بطن الزمن، حجارة بيضاء وطرق مرصوفة، بعضها بالزفت والبعض الآخر بالحجارة.. وشجرة الغار المتجددة تظلّل المكان.

فما معنى شجرة الغار وورق الغار وإكليل الغار؟

كثيرًا ما يكون لك شرف إثارة السؤال ويكون هذا أهم من محاولة الإجابة عليه. أن تثير الأسئلة خير لك أحيانًا من إعطاء الأجوبة. لأن السؤال يقين والجواب ظني، واليقين أقرب إلى الحقيقة من الظن.. إلّا إذا كان الجواب قائمًا على التجربة العملية والعلمية، والفلسفة هي أم العلوم.

وهل كان ابن عربي من أصحاب "العبادات القمرية".. من الذين يقدّسون المرأة ويرفعونها لدرجة الإله؟ وهل كان أرسطوفانس الذي جاء قبله بأكثر من ثلاثة آلاف عام كذلك؟

ثم لماذا كتب كل هؤلاء؟ ألكي يعطوا الأجوبة أم ليثيروا الأسئلة؟

لقد جاء من قبلهم جلعامش القويّ الكامل الذي عرف كل شيء ورأى تخوم الدنيا. وحاول أن يعرف معنى الحياة، سرّ الحياة، نبتة الحياة التي تعيد الشيخ إلى صباه... تقول الملحمة، تقول الأسطورة:

"هناك نبتة تشبه الشوك، تحزّ يدك أشواكها كما الورد.

فإذا جنت يدك تلك النبتة، وجدت حياة متجددة.

فلما سمع جلجامش هذا فتح (القناة).

ربط إلى قدميه حجراً ثقيلاً، جذبه غائصاً إلى الآبسو، هناك رأى النبتة.

اجتثها، وخزت يديه.. " (35)

والآبسو هو مجمع الآلهة في عالم الأعماق المائية العذبة حيث مسكن الإله أنكي. إذا سرّ الحياة في "قاع البحر" في أعماق مياه البحر العذبة! من هنا نلتفت إلى أسطورة الخلق السومرية.

تقول الأسطورة:

إنَّ الأم الأولى هي التي ولدت جميع الآلهة وهي التي تطلب من أنكي (إله الماء والحكمة) أن يصنع عبيداً للآلهة، فيقول لأمه إنَّ هذا المخلوق الذي نطقت به موجود.

"فاربطي عليه صورة الآلهة

اعجنني الطين الموجود فوق مياه العمق

يا أمّاه قدّري مصيره، إنه الإنسان". (36)

وتتابع الأسطورة، أن أنكي أولم للآلهة احتفاءً بخلق الإنسان. فسكر هو ونماذج التي تشكل نموذجاً أثنوياً آخر للأمم الأولى، تُغافله وتأخذ شيئاً من البشر كالمرأة العاقر والشكر الذي لا هو بأنثى ولا هو بذكر. هذه إحدى أساطير الخلق فيها الأم الأولى هي السيّدة.

هكذا كان في سومر.. فماذا كان في بابل القديمة؟ تتمرد "الأجيبي" وهي فئة من الآلهة الصغار التي تقوم على خدمة الآلهة الكبار، تتمرد على الدونية وعلى كيانها المتصل بالعناء والتعب فتعلن العصيان. ويقود التمرد "دي-إيلا"، باتجاه مسكن "أنليل" الإله الأكبر.. يرقّ قلب إنليل ويخطر له أن يخلق الإنسان ليحل محل الأجيبي في الخدمة والعبودية. وبمساعدة إله الحكمة "أيا" وإلهة النسل "نتتو" يتم خلق الإنسان الأول "لولو" (Lullo) الرجل الوحش النيردانتالي أو إنسان البداءة. تقول الأسطورة:

"أنت يا إلهة النسل، القادرة على خلق البشر

اخلقي لولو من أجل أن يحمل النير

ليحمل النير الذي فرضه إنليل..

ليحمل الإنسان عناء الآلهة".<sup>(37)</sup>

ويكون إنليل - الإله الأكبر - هو صاحب المشيئة، وتكون ننتو إلهة النسل / الخالقة.

وتكون ساعة الخلق وطقوس الخلق.. تطلب ننتو من أيا أن يعطيها الطين الطاهر، يتم ذبح دي - ايللا قائد التمرد الاجيجي و.. يقدم قربانا لإنليل:

"ومن لحمه ودمه مزجت ننتو الطين..

فكانت روح من لحم الإله.."<sup>(38)</sup>

هنا لا أريد أن أتبع أثر الميثولوجيا على الأديان السماوية الثلاثة إنما تتبع الواقع ما أنشد.. واقع الأسطورة وعناصرها.

وهكذا تكون عناصر الخلق الأسطوري من الطين الطاهر ومن الماء العذب وفي حالة خلق الإلهة الأم أورورو لإنكيدو من طين العمق المغموس بلعاب الآلهة. وهكذا يكون سر الحياة ونبتة الحياة التي هي نبتة ضد القلق في مياه "الابسو" على بعد عشرين ساعة مضاعفة من السفر في بحر الموت حيث السدود التي تفصل الماء العذب عن الماء المالح وحيث القنوات - فتحات البراكين التي تصل إلى الأعماق.

وبعد خمسة آلاف عام من هذه الأساطير يستمر البحث عن هذا السر وقد اتخذ له اسما جديدا: الخلية الأولى والحمض النووي والحامض النووي المخفف. فتتشابك الأسطورة مع الواقع كما يتشابك الإيهام مع الواقع في لعبة المسرح. يكون الخيال ثم الخيال العلمي.

ويكون الواقع كما تقول وكالات الأنباء في أواخر سنة ألفين ميلادية، أن علماء الولايات المتحدة تمكنوا من إعادة "خلق" إحدى أهم الخطوات التي مر بها ظهور الحياة على وجه الأرض.

وقد تم تشكيل مادة كيميائية أساسية للحياة، تتكون من سولفايت الحديد أساسا وسط درجات حرارة وضغط عاليين.. مما أظهر الحامض البايروني، سر الطاقة في الجسم الحي وذلك في بيئة شبيهة لبيئة الينابيع الحارة الموجودة في قعر المحيطات.. قرب فتحات أو

فوّهات البراكين الواقعة تحت مياه المحيط.. بدرجة حرارة تبلغ 250 سلزيوس وتحت ضغط ألفي ضعف ضغط الغلاف الجوي. وقد أشارت تجارب العلماء إلى أن هذه العملية ذاتها تقع في قعر المحيط.

هذا ما وصل إليه العلم حتى الآن. وهذا ما بشر به قبل قرن الطبيب الرائد شبلي شميل حين قال: "إن الطبيعة ليس فيها شيء ثابت ثبوتا مطلقا".

ماذا سيحدث حين يتوصل الإنسان إلى "خلق" الخلية الأولى مخبرياً؟ أتساءل لأن العلم شيء والمعتقد الديني شيء آخر! العلم قائم على التجربة والدين على الإيمان الذي هو تصديق بالقلب.

عندما رفض جلعامش الكامل عرض عشتار التي وقعت في حبه، تجرأ عملياً على آلهة الخصب والنماء، يقول في ذلك فراس السواح: "ونحن في تاريخ البشرية كلها لا نعرث على موقف شبيه بهذا الموقف الذي يبلغ فيه الإنسان حدّاً من الثقة بنفسه، يتجاوز معه كل حدود فاصلة بين عالم البشر وعالم الآلهة". وبذلك قد تكونت "الشخصية" الإنسانية التي تؤمن بنفسها قدر إيمانها بالآلهة".<sup>(39)</sup> هذا ناهيك عن موضوع ترسيخ الشخصية الذكورية الجلعامشية للمجتمع الأبوي البطركي في ذلك الصراع الديني والديوي بين الديانة الأمومية القديمة والديانة الذكورية الجديدة.. بين الديانة القمرية التي عبّدت الأم الكبرى والديانة الشمسية الذكورية التي تقدّس الإله الذكر. كان جلعامش ثلثي إله وثلث إنسان، ولدته أمه ننسون الإلهة الثانوية لأبيه لوجال بندا الملك. يقال إنّ جلعامش لم يبحث عن الخلود بقدر ما بحث عن معنى الحياة. عن سرّ الحياة.. فالحياة حق مثل ما أن الموت حق، وكلاهما ظاهرتان طبيعيتان. والبحث عن سرّ الحياة والمعنى في الحياة حق. وهذا الحق لا يأتي إلّا عن طريق المعرفة وتراكم المعرفة. وكثيراً ما تبدأ المعرفة بالحلم أو ما يسمى بالدافع الحلمى. وحلم البشرية هو معرفة سرّ الحياة لا الخلود فيها. والحلم من أنواع الخيال والخيال يتحول إلى العلم فيصير خيالاً علمياً وتستمر المعرفة تكبر في طريق اللانهاية..

المرآة السحرية كانت خيالاً والصعود إلى القمر كان أغرب من الخيال.



ومن خلال شكل البحث عن الخلود عند جلجامش كانت بذرة العطش اللّانهائي إلى المعرفة ومن خلال كل تجربة كان يعرف المزيد..

لذلك جاء عنه في بداية الملحمة:

"هو الذي رأى كل شيء إلى تخوم الدنيا

هو الذي عرف كل شيء وتضلّع بكل شيء..

سيّد الحكمة الذي بكل شيء تعمّق.."

إذن هي المعرفة التي تبدأ بالحلم والأسطورة.. والأساطير مولدة للخيال.. والخيال هو الطاقة الدافعه للإرادة. تبدأ بالمرأة لتكون المعرفة الإنسانية في البدايات ولا تنتهي. لا تنتهي بمعنى أنها خالدة. ومن هنا جاءت نار بروميثيوس الأسطورية التي لا تنطفئ، ثم كانت نار المجوس. وما أشبه حواء التوراتية حين عصت أمر الإله وأكلت من ثمر شجرة المعرفة.. ما أشبهها بپروميثيوس الذي عصى أمر الآلهة وسرق النار (المعرفة) وأعطاه للإنسان...

پروميثيوس يعني باللغة اليونانية، الذي يرى إلى البعيد أو البعيد النظر، هو ذلك الإله الإنساني محب البشر، سارق النار ومهديها إلى البشر متحدّيًا زيوس كبير الآلهة، والذي يناشده كما جاء على لسان غوتيه.. أن يترك أرضه وأن يدع له كوخه وموقده وأن لا يحسده على جمره في ذلك الموقد. يقول غوتيه:

"وحدة الإنسان يقوى على المستحيل

فهو يميّز، يختار ويوجه،

ويقدر أن يُعير اللحظة ديمومة!" (40)

إذن فنحن نكتب لنعير اللحظة ديمومة، ولنحوها من حالة نقطة راکدة قائمة لذاتها وبحدّ ذاتها إلى نقطة مضافة إلى ذلك النهر- نهر الحياة، متحركة فيه قائمة بحدّ ذاتها، ممتزجة بشكل عضوي مع باقي نقاط النهر.. ثابتة في ذاتها متحركة فيه ثم ملغية ذاتها متماهية فيه، هي قائمة في كلية النهر، هي جارية فيه وهو جار فيها. إذًا نكتب لأن الكتابة

هي الملاذ والخلاص الشخصي! والخلاص الشخصي جزء من الخلاص العام. نكتب لنكشف ولنكتشف.. مهما حاولنا الاختباء. فهذا الشاعر اليوناني المعاصر يانيسريتسوس، هو من الذين يختبئون خلف الكلمات. يقول: "خلف الكلمات البسيطة أختبئ، حتى تعثروا عليّ"، فإن لم نعثر عليه فسوف نعثر على أشياءه التي تركها خلفه. وهو يتابع بخصوص الكتابة فيقول: "إنني أكتب الشعر في الحقيقة كما لو كنت أصليّ"، وهو لا يريد واسطة بينه وبين الله، حيث يتابع القول: "وإذا كنت أرفض استخدام الآلة الكاتبة في الكتابة فلأنني لا أريد شيئاً وسيطاً بين أصابعي وصفحة الورق.. إنني أحتاج إلى تحسس ملمسها كما أتحسس مادة حيّة..".

هكذا فإن لكل شيخ طريقة!

## عودة ليزستراتا المستقبل الذي يتحكم فيه الماضي والحاضر

"هناك من يكتب ليخفي ذاته"، يدخل تحت جلد الآخرين ويلتحم بهم. وبما يمثلون وبما يقولون حتى لو كانت قناعاتهم مغايرة. وهذا أمين معلوف الروائي اللبناني العربي الأصل الذي يكتب بالفرنسية ويترجم إلى العربية بشكل محترم. يحلم في اختراع كاتب وهمي يكتب أمورًا مختلفة جدًا من دون أن يستطيع أحد التعرف عليه، على أمين أو إليه! فهل هذا المبدع هو الآن والآخر في الوقت ذاته؟ ربما! ربما هو كذلك لأنه العربي الذي يكتب بالفرنسية! لاسيما وهو مؤلف "الهويات القاتلة" <sup>(41)</sup> وهو صاحب سؤال، هل يحق للمرأة أن يكون في فرنسا جزائريًا وفرنسيًا في آن واحد؟ وعليه ينسحب السؤال - عربيًا وفلسطينيًا و"إسرائيليًا" في الوقت ذاته وهكذا دواليك!؟

ثم ماذا قال الطاهر بن جلون؟ أو كاتب ياسين. وسائر الكتاب الجزائريين/ الفرنسيين من أصل جزائري؟ والسؤال الذي طرحه هذا الروائي اللبناني الذي يكتب بالفرنسية سؤال هام وجدي! وخصوصًا لنا، نحن الكتاب الفلسطينيين في داخل الداخل (1948) وفي الداخل (1967) وفي الشتات. ويبقى السؤال لماذا نكتب؟ وهل الإنسان يستطيع أن يعيش بدون هوية حتى لو كانت قاتلة؟ لا سيما وأنّه "لا يبدع إلا من بحث عن الأفضل، ولا يسأل عن الأفضل، إلا من تزود حبا كبيرًا للبشر" - كما قال فيصل دراج.

لماذا نكتب؟ وهل للكتابة قدرة علاجية؟ (وهذا السؤال له إجابة ضمنية بنعم)، أولاً وقبل كل شيء للكاتب ذاته ومن ثم للآخر.. قدرة علاجية بالمعنى النفسي الجواني الداخلي، وبالمعنى العلاجي لأمراض المجتمع الإنساني بهدف إيجاد الحلول لمعضلات العصر ومأزومه.

قال أحد الكتاب: لو لم أكتب لجُئْتُ! وأظنه جمال الغيطاني. وهذا محمد شكري يقول إنَّ القراءة والكتابة أنقذته من الإدمان على الكحول والمخدرات. <sup>(42)</sup>

وصل غونار إيكيلوف إلى حافة الجنون، حاول الانتحار، أنقذه أصدقاؤه والكتابة. كذلك كافكا وغيرهما من المبدعين. الخيط رفيع...

لقد علمونا ونحن نعلم غيرنا أن الأدب وبالأحرى الأديب مرآة الحياة يعكس الماضي والحاضر بهدف التأثير على المستقبل وتحديد معالمه.

هل هذا هو الواقع أم أن العكس صحيح أيضاً؟ أي أن المستقبل الذي نصبو إليه هو الذي يحدّد معالم الحاضر ومن ثم الماضي، أو أن الغيب والماوراء هما اللذان يحددان الحاضر! وكل حاضر يتحول إلى ماضٍ في برهة من الزمن قد تتشكل في بعض أجزائه، وتعطيه صفة الديمومة لحظة الكتابة. إنّ الهدف السامي كمعنى الوجود وسرّ الحياة يحدد أسئلة الحاضر على مستوى الواقع الأنطولوجي. أي أن الإيستيمولوجيا هي التي تحدد معالم الأنطولوجيا.

وبعد، ففي أي جزء من الثانية يتحول الحاضر ويصبح ماضياً؟ وهل الزمن شيء افتراضيّ؟

لا أدعي اكتشاف هذا السؤال. منذ القدم والإنسان يسأل عن معنى الزمن ومعنى الوجود. أسئلة الزمان والمكان كانت ولا زالت. هاري كريشنا الإله الممتد أفقياً على وجه البسيطة جاء ليعلم البشر كيفية التغلب على قوانين الطبيعة. لم يكن فيزيائياً، إنما أسألته الفلسفة مهدت الطريق للفيزيائيين. في الماضي القريب جداً استطاع علماء الطبيعة التغلب على قوة جذب المغناطيس وكهربية المغناطيس. أي التغلب على قانون مهم من قوانين الطبيعة. لقد تمّ الحصول مخبرياً على مركّب جديد يتحدّى هذه القوانين، يتألف هذا المركّب الجديد من النحاس والألياف الزجاجية ويقوم بعملية كسر الموجات الكهرو مغناطيسية المارّة عبره وحرفها باتجاه معاكس لاتجاهها الطبيعي.

يحدثنا العلم مؤخراً عن نبات صناعي "يتنفس" طبيعياً، يمتص ثاني أكسيد الكربون وينفث الأكسجين في النهار ويقوم بعملية التمثيل الكلوروفيلي محاكاة للطبيعة! هذه الورقة الصناعية مركّبة من بروتين الحرير مع طبقات كلوروفيل. وقد أعلن عن هذه العملية المخترع البريطاني جوليان ميلكيوري سنة 2014.

كثيرة هي القصص والحكايات والفايولات والأساطير التي تحولت إلى خيال علمي ومن ثم خضعت للعلم التجريبي وللمختبر. وكثيرة أيضاً المعتقدات التي تحولت وتغيّرت وتبدّلت كذلك. خاصة إذا كانت مفتوحة للمساءلة والحوار والمناقشة والاجتهاد.

هاري كريشنا الذي جاء ليعلم الناس كيف يتغلبون على قوانين الطبيعة خلق براهما بشكله الناسوتي كأحد تجلياته الجسدية. براهما يشبه آدم لكنه لم يخلق من طين وماء إنّما من زهرة اللوتس التي نبتت في سرة الإله.

وفي أسطورة جلجامش قصة إنكيدو شبيهة جداً بقصة خلق آدم مع اختلاف الخالق.<sup>(43)</sup>

وبعد هذا بآلاف السنين جاء السيد المسيح من الروح القدس نفحة من روح الله. وكان الإمام بحسب مذهب الموحّدين الدروز منذ الأزل هو غاية الوجود، جاء لفكّ الخلق من أسر الطبيعة والارتقاء بهم إلى المنزلة الرفيعة. وجاء الحاكم بأمر الله وهو إمام من نسل سيدنا علي، تجسّداً للإله في شكل الناسوت حتى يعلم الناس كيف يتغلبون على قوانين الطبيعة. ثم جاء من بعده الثائر بأمر الله...

ليس هذا حقّ الغام ما دمنا نكنّ الاحترام للفكر الإنساني. وما دمنا نسأل لماذا التكفير قبل التفكير؟ ولماذا لا نعيد فتح باب الاجتهاد على مصراعيه؟ ونحلّل ما كان ونتفحص ونتممّق في سؤال ما سيكون وتأثيره على ما كان.

لنعد إلى المستوى الأنطولوجي. لقد كان أحمد فارس الشدياق العربي اللبناني مستقبلاً بالنسبة لأرسطوفانس اليوناني. لنستعر صفحة من فكره ونعطها لأرسطوفانس حتى ندور ولو قليلاً في فلك فكرة ليزيستراتا مرّة أخرى. لنسمع الصوت يدوي في مسألة ليزيستراتا. في مسألة كأنها مسألة ليزيستراتا المستقبلية. وكأنها تقول في خطبتها أمام الحشد موجهة "الخطاب" إلى القاعدة من القادة والعوام:

"واعلموا أيها القادة أنّي سأوصي كل كاتب للتاريخ وكل مبدع ألا يكتب وألا يوصي بالكتابة عنكم، وألا يستوحي منكم، وألا يحضر أو يستحضر أيّ قائد قتل الناس وهدم البيوت وشرّد الأولاد والأرامل والثواكل. سأدعو إلى شطب أسمائكم من الكتب وألعن

الأقلام التي تأتي على سَيْركم بغير اللعنة. تموتون ولعنًا ستلعنون أبد الدهر. أمّا الإنسان الذي يزيد الأرض رهافةً وخضرةً ونماءً ويعتق الحضارة وكل ما هو إنساني ويعانق الحياة فهو الذي سيحيا في بطون الكتب وعلى صهوة الحياة، مسارح الحياة في وحدة البشر وعظمة الإنسان. من أجل عدم تكرار التاريخ ولا مآسي التاريخ لا كله، لا كلها ولا بعضه ولا بعضها.

ثم ألا تدركون أنّ من اغتيل سياسيًا لن يقتل. ومن اغتيل اجتماعيًا لن يقتل. ومن اغتيل فكريًا لا يموت لأنّ فكره سيبقى مشتعلًا كنار الله الموقدة."

"ليس لعمري بين الوحوش الضارية والطيور الكاسرة ما بينكم من العداوة والبغضاء. والضعن والشحناء. اذكروا يوم صعد خطيبكم المنبر، وعبس وبسّر. وتوعّد وتنكّر. وخطأ وكفر. وحضّ على القتال ودمّر. ثم دعا فاستغفر واستخار الله واستبشر، فأغرتم على جيرانكم وانتهكتم حرّمات إخوانكم وفرّقتم بين الأم ورضيعها. والمرأة وضجيعها وبين الأب وولده وسبيده ولبده. اذكروا يوم حشد رئيسكم إليه أعوانه، وأهاج أهله وإخوانه على من يخون سلطانه. وأي خيانة وما ذلك إلا لمخالفة في الحزر والتقدير والتأويل والتعبير والتخريج والتفسير.

اذكروا يوم أن أعلمتم أنفسكم بعلائم الجهاد وقتلتم هذه حرب الله، هذا قتال لرضى ربّ العباد، هذا يوم كسب الثواب والنجاة من العذاب فأفيضوا إلى العدو من البر والبحر واغتنموا عند الله أجر هذا البرّ.

أذكروا يوم أن تنازعتم على لون طعام تأكلونه. وشكل شراب تشربونه، ورخصة جسم تغسلونه، ونوع فراش تفرشونه، ورقعة ثوب تلبسونه، ووجه كلام تعفكونه، ومتاع تستعملونه! أللخلاف في هذه الدنيا فطّرتُم أم بالخصام والمعاداة أمِرتُم، وما بال علماء الرياضة والهندسة والتنجيم لا يختلفون في أدلّتهم؟ وإن اختلفوا لا يشبّوا النار لتحقيق غلتهم وأنتم تشبّونها عند كل فرصة تسنح لكم ووهم يسبق إليه فكركم، وكان الأوّل أن تتواطؤوا على رأي واحد كما تواطأ أولئك، وأن تشبّوا لعباد الله مصالحهم، لا أن تدخلوهم

في هذه الملاحك وتربكوهم في هذه المراكب وأن تهدوهم إلى أقوم المسالك لا تلبسوا عليهم في هذه الحوالك".<sup>(44)</sup>

وما أن أنهت ليزيستراتا اليونانية خطبتها العربية الشدياقية، حتى استهزأ بها من استهزأ وأخذ بكلامها من أخذ وكان ذلك الأخذ في أقلية من الرجال وفي أغلبية من النساء! ثم أخذت القلة هذه تُنشد ضد من يجرهم من حرب إلى حرب ومن كارثة إلى كارثة حتى عقب ذلك نشيد "الإخوة تشامبلولو". ولا بأس من إشراك حانوخ ليفين اليهودي الدين، الإنساني المعشر، وهو المستقبل بالنسبة للشدياق:

"نحن الإخوة تشامبلولو

نسقط على رؤوسنا

في حياة كريمة عديمة الأمل

لأننا الإخوة تشامبلولو

نسقط على رؤوسنا

مرة كل عشر سنوات

يعملون لنا حرباً..

بعد ذلك نعود

(لا نعود كلنا بالطبع)؟؟"<sup>(45)</sup>

ثم، وبعد هذا كله. أما أن لليزيستراتا أن تعود؟

ليزيستراتا المستقبل تعود لتلم نساء العالم ليخطن فزوجهن وليقفن وقفة امرأة واحدة. تبدأ بتنظيم صفوف العاهرات فمن مأمنه يؤتى الحذر. لأن دول اليوم حديثة العهد بالديمقراطية، ففي دولة كالتي نعيش فيها، يتجاوز عمرها نصف قرن. يبلغ سعر العاهرة سنوياً سبعة آلاف دولار أمريكي. ينخفض ذلك السعر في أطراد حتى تصبح الواحدة لا تساوي شيئاً في نهاية ديري السوق. سوق النخاسة التي ابتدعتها داعش في سوريا والعراق

حيث تباع السيّة في حرائر الشام والماجدات العراقيات والأيزيديات ذوات العيون التركمانية ملكًا لليمين مقابل مئة دولار أمريكي.

ثم تنتقل ليزيستراتا إلى تنظيم صفوف زوجات الجنرالات ومن بعدهن إلى تنظيم زوجات الضباط وضباط الصف ومن ثم إلى زوجات الجنود العاديين. وهي بحذقها المكتسب تاريخيًا لا تنسى زوجات السياسيين الأكبر أهمية في المعادلة لأنه في الدولة الديمقراطية، السياسي هو الذي يحرك العسكري. وإنّ كل شيء في خدمة السياسة. فما بالكم إذا كان السياسي هو العسكري والعسكري هو السياسي كما هو الحال في هذه البلاد. وليزيستراتا تعود وتتحرك لأنها الأم في المستقبل والحاضر والماضي، وموجودة في كل مكان بهذا الكون.



## (1) لماذا عنيتم رؤوسكم حتى الركبة (نصر)

(1) لم أبحث في ذلك المساء عن ظل يقيني من حرارة شمس تونس الساطعة. لم أبحث عن سور يحميني من صَهد الزمن العولمي المتكرر لفلسطينيتي، فأنا في ظل هذا العراقي الباحث عن ظل يحميه.

إنه عبد الرحمن مجيد الربيعي الذي أهداني كتابه، أنا "المحامي الأديب والأديب المحامي" كمال قال، والمحامي الذي يبحث عن يحميه كما قلتُ له. المقاتل بالكلمة والذي لا يدير ظهره لعدوّه، المدافع عن المظلومين، الذي يبحث عن كتف تُكاتفه ولا تُكَتِّفه وعن آخر يحمي له ظهره.

و... نجتمع هناك في تونس ليس صدفة لكن بدون ميعاد، أنا وهو وبسام الآغا والكومندان عبد العزيز وياسين معتوق وتوفيق فياض وآخرون، عند قدمي التاريخ لسيدي الصحابي أبي زمعة البلوي.. حلاق الرسول. نتشَبَّث بأهداب الجامع الذي بناه الصحابي سيدي عقبة بن نافع في مدينة القيروان. فاتح المغرب العربي في أواخر القرن السابع الميلادي وفي صدر الإسلام الرحب كما أفهمه!

أعلم فيما بعد- والعلم عند الله- أن القيروان هي رابع مدينة عربية إسلامية قداسة وأهمية. أسجّل المعلومة على وريقة تبديل عملة للاتحاد الدولي للبنوك بتاريخ 2001/10/29، ليس لي دفترٌ أسجل عليه ملاحظاتي كعبد الرحمن، فأنا أسجل على كل ما صادف العقل والقلب والقلم، وأحياناً أعتمد على ذاكرتي الانتقائية.

"مكة والقدس والمدينة والقيروان".. أتساءل عن مكة والمدينة، أين هما الآن؟ وعن القدس وما حلَّ بها وبأهلها! القدس التي كانت في بدايات الدعوة المحمدية قِبلة الإسلام، لأسباب سياسيّة، ولمدّة سنتين تقريباً. ثُمَّ تحوّلت القبلة إلى مكّة، لأسباب سياسيّة واقتصاديّة أيضاً! لماذا لا نعيد القدس قبلةً للمسلمين الآن؟ خاصّةً بعد إعلانها عاصمةً

للدولة اليهودية الصهيونية! فتكفُّ مكّة عن اللعب بعواطف المسلمين، وبأموال المسلمين التي تصبّ في خزانة آل سعود، ثمّ أمريكا، ثمّ الكيان الصهيوني الغاصب!!! وأدسّ الوريقة بين دفات كتاب عبد الرحمن - "السومري" .. قصص قصيرة.

أعود إليها، تدهشني تلك القصة التي تحمل اسم المجموعة ربما نتيجة للإحساس المشترك عند ولوج باحة جامع عقبة بن نافع في القيروان.. أو لإلحاح الحاجة لظّل ذلك التاريخ.. تاريخ كل العرب بمسلميهم وبمسيحيّهم، بقضّهم وقضيضهم. بنسائهم وبرجالهم. بأنبيائهم وصحابيهم وحواريهم وُحْداتهم وُحْداديهم ونجاريهم وحلّاقهم.

قال الربيعي:

"كانت القيروان وجهتي.. واسم عقبة بن نافع تعويذة أتمم بها".

تمامًا مثلما قلْتُ وتمتّت وفكرتُ. لم أعد إلى المراجع.. أركنت إلى دفتر الربيعي لكي أستعيد الاستماع إلى خرخشة أوراقه وهي تُطوى واحدة في إثر أخرى. وهو يبلّل إبهامه وشاهده بلعابه. واللعب البشري يلعب دورًا مهمًا في فض بكاراة الكتب والدفاتر، كما لعب اللعاب الإلهي دورًا في عملية خلق أنكيدو.. ففي كليهما خلق.

"شهد عقبة فتح مصر وتولّى قيادة الجيش الإسلامي الذي فتح الكثير من تخوم الشام. وكان ذلك بتفويض من القائد الفاتح عمرو بن العاص. ثم تولّى قيادة الجيش الذي اتجه إلى تحرير شمال أفريقيا، فظل في تقدّمه حتى وصل وادي القيروان من أرض تونس فأعجبه المكان وبنى له مسجدًا". أتساءل عن معنى الفتح ومعنى التحرير!!! ألسنا بحاجة الآن إلى فتح مكّة مرّةً أخرى؟

كان ذلك في سنة ثلاث وستين للهجرة، ولم يكن مع سيدي عقبة سوى أمثاله وسيفه وحصانه ودعائه في رضى الخالق والجهاد في سبيل جمع الكلمة. أعتقد أنّه من هنا جاء الاسم "جامع عقبة بن نافع" جامع الكلمة وصلاة الجماعة يوم الجمعة. أتساءل ماذا حلّ بالجهاد وكيف أصبح جهادًا للنكاح في عصر داعش!؟

"فالجامع ليس هو المسجد، وليس مدرسة لتلقين علوم الدين، بل جهاز إداري مسؤول عن تسيير الإدارة جمعياً، بموجب مبادئ أساسيين في جوهر العقيدة الإسلامية نفسها" - فلا وساطة في الإسلام، والإسلام لا يبطل بقية الأديان.<sup>(46)</sup>

يقول حكيم التاو في الصين القديمة: "لا يوجد أكثر من الماء ليونة ورقّة، ولكنه الأقدر على تفتيت الصلب".

أتوقف مع صالح عند مكان الموضوع.. نتأمل خرزة البئر الرخامية شديدة البياض والنقاء. نلاحظ أثر الحبال، نازلةً تغرّف، طالعةً تنتشل الماء العذب الزلال، وكيف حفرت الرخام الصلب. تعود إلى الذاكرة نقطة الماء التي تنزل باستمرار على صخرة فتحفها. كم هي قوة النقطة في ضعفها. أمن هنا جاء المثل الجزائري "الدوام يثقب الرخام"؟ أقترّب من المدخل الرئيسي للجامع.. أرفع رأسي أتأمل الأعمدة وتيجانها المختلفة، الأشكال والألوان والمضامين. كيف اجتمعت أعمدة من العالم القديم في مكان واحد.. وماذا يعني هذا التناسق وهذه التوليفة بين الأعمدة الرومانية واليونانية والفينيقية والمصرية الفرعونية والعربية القديمة؟!

أدخل في خشوع، روعة المكان تحتم ذلك. أخطب تلك السمكة المتحجرة في ذلك العمود الرخامي على يسار المنبر: من أي عصر أنت؟ أمن عهد "تعامّة" أنت؟ من عهد "ايا" صديق الإنسان أم من عهد "إيل ويمّ وبعل الكنعاني"؟ أرى وجه برومثيوس سارق النار - المعرفة - وهو صديق آخر للإنسان، بعد أن كانت هذه المعرفة مقصورة على عالم الآلهة. أحدّق في وجه حنا أبو حنا، "حنا بعل" وأرى بعين الخيال وجه سوفوكليس وأرسطوفانس.. ووجه تلك المرأة الشامية روندا يقتحم الموقف.. ولا يفارقني منذ وصلت سهل القيروان.. منذ دلفتُ الجنان المحيطة بخزّاني المياه التي تعكس زُرقة السماء الصافية، تجلب الحظ والارتواء، تدفع الحسد ويكيد الشيطان. عيناها السنجايّتان ترافق جوارحي ترسل إلي الإشارات بدون كلل أو ملل. تظل تبحث في قلبي المتعب وتنقب عن الآثار، فأرى في عينيها الشامتين روعة الجامع الأموي الذي بُني على أنقاض كنيسة يوحنا المعمدان، الذي بني على أنقاض معبد حدد، إله الزراعة والعطاء والخصب السوري.

وتشدني إلى عالم الميثولوجيا وتاريخ الأديان فأكاد أغرق.. ثم تسحبني إلى عالم الشعر، فتطيح بي المرة تلو الأخرى على مرّ العصور، وفي عيون الشعر أكاد أغرق:

وإنما دهلها سحرٌ تصيد به      وإنما قلبها للمشتكي حجرٌ  
جنّةٌ أولها جنٌ يُعلمها      رمي القلوب بقوسٍ ما له وترٌ

(2) هي تجذبني نحو الواقع.. تسألني كيف ولماذا هذا العشق المفاجئ؟ وأنا أقول من دهشة الفجاءة: لأنك أُمي التي ولدتني.

فتقول: كيف ألدك وأنا عذراء؟

فأقول: الخصب في العذارى!

فتسأل مثاقفة: كيف ألدك وأنا أصغر منك سنًا؟

فأجيب: تلك هي المعجزة!

وكنا على منحني.. فأسمّيها روندا، وكتبْتُ على وصل كهرباء، ثم قرأت لها ما كتبت:

روندا اسم دائريّ.. الموسيقى تقفز من بين حروفه. كذلك تطل من ثناياه البداية والنهاية.. فيكون الأول آخرًا والآخر أولًا. مدهشة أنت وبعكس منطق الأشياء.

تشيًا فيك منذ أقدم العصور، وتخلّق منذ عهد إياوا وتانااشتيم واتراحسيس وأسطورة وأساطير الطوفان من بابل وآشور وسومر وجلجامش ونوح العهد القديم، بل وقبل كل ذلك. أهو الحب الذي لم يبدأ لكي ينتهي أم الذي بدأ حتى لا ينتهي؟ فيتجدّد منذ كان هناك في الأعالي لا شيء ولا أرض ولا سماء؟ والأدق كما تقول أسطورة التكوين البابلية "الإنيوما إيليش": عندما في الأعالي لم يكن هناك سماء. وفي الأسفل لم يكن هناك أرض...

(3) أتركها وأعود إلى خرزة تلك البئر كرّةً أخرى، أرى أشرطانها وآثارها على لحم الحجر الرخامي. أتجوّل ما بين العمدان. أتأمل التيجان. أنعم النظر وأمعن في الطيران.

أحلّق وأحلّق وأعود ألجُ إلى الداخل مرة أخرى. أسمع ناي نبيل عازار، يتفصّد اللحن ويقطر حينئذٍ. وهو مقرّص عند مدخل الرواق يحلّق ويحلّق.

أسمع صوت حنا بعل يجزره بغير عنف وكأنّ اللحن لا يتناسب مع هذه الأجواء. قطرات الحنين لا تأبه بالملاحظة يستمرّ اللحن، فأرى قوافل العيس العطشى.. "والماء فوق ظهورها محمول".. أخلع نعليّ لأدخل الجامع للمرة الثالثة، تلازميني العيون الدمشقية ترمي سهامها من قوس بلا وتر.. أتأمل أقواس السقف وأغوص في لعبة الظلال.

يسيل شعوري رهامًا مطرًا خفيفًا ورهافة وخشوعًا. أتذكّر تلك الحالة النفسية التي انتابتني يوم دخلت في رحاب الجامع الكبير - جامع الكاتدرائية في قرطبة الأندلس. كان ذلك قبل ثلاث سنوات.

بدأ المرشد السياحي شرحه عن المكان. بدأت أرنبه أنفي تنمم. تحجرت دمعة في عيني، لا تراجع ولا تتقدم أو تنصدع.

تَزَجج حلقي.. شعرت بالاختناق.. تراجع بك كل ثقل جسدي، ابتعدت عن الركب.. أجهشت بالبكاء متكئًا على أحد الأعمدة، بكيتُ حتى الثمالة. لولا الدموع لكانت روح الإنسان قفرًا. الرجال تبكي من القهر. أنا لا أبكي على الفردوس المفقود.. إنما أبكي على وضعنا كعرب ومسلمين وعلى ما حلّ بنا من صنع أيدينا! وتذكرت ذلك الأعرابي الذي أوسع الغزاة سبًا وقد أودوا بالإبل!

قلت لها: سأزور دمشق، ولا أخشى البكاء تحت ظلال الجامع الأموي - كنيسة المعمدان ومعبد حدد. فرحت واغرورقت عيناها السنجائيتان بالدموع. ثم انصدعت.. توقّف قلبي في رحاب الجامع الأموي ثم عاد وخفق ورُفرف وازداد خفقانه، عندما قلت في نفسي: إيه يا سوريّ الهوى! لعنكم الله يا سايكس ويا بيكو.

(4) "عاد عقبة.. يتعبًا بالاطمئنان الوافر الذي يحسّه به كلّما عاد من معركة وكان النصر حليفه فيها. لم يكن يعرف أن الأعداء يتعقّبونه.. دارت رحى معركة غير متكافئة. استشهد"، كما استشهد القائد يوسف العظمة في معركة ميسلون.

أخلط لعابي بلعاب الآلهة وأقلب صفحات التاريخ الذي يذكره الربيعي عن وصية عقبة - "إياكم أن تملأوا صدوركم بالشعر وتتركوا القرآن". ثم يذكر دُعاءه: "اللهم املاؤها علماً وفقها وأعزها بالمطيعين والعابدين واجعلها عزاً لدينك وذلاً على من كفر، وأعز بها الإسلام وامنعها عن جبابرة الأرض". أتساءل: هل يكفي الدعاء؟ وأتذكر أن الله يحب عبادة الأحرار لا عبادة العبيد!

أقف عند قدمي منبر عقبة وكأنني أسمع هذا الدعاء للمرة الألف. أقف وكأنني أستذكر الوصية على نسق آخر - إملأوا صدوركم بالشعر ولا تتركوا القرآن.. وخاصةً جزءه المكّي، تنفّسوا التاريخ وأساطير الأولين، واحذروا المتأسلمين!

أتحمّس خشب المنبر، أرى لبنان العتيق وحارس الأرز خباباً. أتحوّل إلى عمود الصوان من الناحية اليسرى للمنبر، أتحمّس مرة أخرى السمكة المتحجرة منذ ملايين السنين.

ألمح مصرع خباباً حارس الأرز على يد جلعامش وصديقه أنكيدو، أعود في لمح البصر إلى مدينتي، يمر شريط بسرعة أرى عشرة مساجدها وجامعها اليتيم.. الجامع الأبيض، الذي مزط من المصادرة ولم يُحسب أملاًكاً للغائبين، بحسب القوانين الإسرائيلية، لكونه وقفاً ذرياً لعائليتي. ثم في لمحة أخرى أشاهدها بعين الخيال على شرفة تطلّ على جبل قاسيون، تحتضن وسادة بلّله الكحل. أسمع صوت فيروز وهي تُغني بيروتَ ودمشقَ وكل عواصم العرب:

حملت بيروت في صوتي وفي نغمي	وحملتني دمشقُ السيف بالقلم
فنحن لبنان وكُرُ النسر دارتنا	والشام جارتنا يا جيرة الهمم
من ها هنا نسّمات المجد نافحة	ومن هنالك راياتٌ على القمم
أنا على الدرب يا واد التحرير هوى	بين الحبيبين ما قلبي بمنقسم
هن اللواتي جرحن العمر في شغف	وطرن بي نغما ييكى بكل فم
قلبي من الحب كرم لا سياج له	نهب الأحبة من ساه ومن نهم
ويا هوى من دمشق لم يفارقني	سكناك في البال سكنى اللون في العلم

وتدمع عيناى من شدة الحنين إلى وكر النسر وإلى دمشق الممنوعة من الصرف!

(5) مرة أخرى أكدت لها أنني سأزور دمشق.. وسأدخل من أوسع الأبواب لا من الشبابيك. فنظرت إلى نظرة باهتة، شديدة الحزن، ما لبثت أن تحرّكت فيها كل الحيات. فيها الكثير الكثير من الكلام الصامت. قلت: إذن، ما العمل يا راهبة الحلم؟!

ما العمل "يا هوى من دمشق"؟! كيف خرجت لي الآن "جنّة بحر" من شواطئ تونس وأنت من دمشق اللاذقية وأنا من ناصرة عكية؟

كيف ولماذا الآن؟ وماذا كنت ستختارين ذيل السمكة أم القدمين، ذيل سمكة مع القدرة على الكلام أم القدمان مع الخرّس وعدم القدرة على النطق والكلام؟

لماذا الآن - يا هوى من دمشق - يخرج العشّ من قمقمه؟ فيجلس الحبّ على الكرسي غير المعدّ له؟

وحين تُسأليني عن المعنى أفصح فأقول: إقرأي التاريخ! فهوى دمشق لا يخون، إقرأي ذاكرة الجسد وفوضى الحواس لأحلام، والتي انتقلت إليّ.

وتسألين: من هي؟ فأقول لك: أحلام مستغانمي، أحلام جزائرية تعيش في فرنسا وبيروت "وكر النسر" جارتك "يا جيرة الهمم".

غير البعيدة عنّا ونحن هنا في تونس، وهي أحلام الإرادة البشرية المقاومة. نعم كل منا يحلم على قدر ما يستطيع أن ينقل الحلم إلى واقع.

فوعدتني بالتعرف على أحلام من خلال الروائتين، وأوفيت بوعدك. بدأت بالقراءة في تونس وتابعتها في دمشق الشام. أه يا حبيبتي! تخنقنا هذه العواصم من شدة الحبّ.

كم هو جميل أن نحلم، والأجمل أن نحلم بفعل الإرادة.. الويل لنا إذا لم نحلم، خاصة ذلك الحلم الإرادي، نتحكم به فيحركنا فعل الإرادة، فعل المقاومة، الإرادة هي التي تحرك الإنسان لكي يحقق حلمه.. إرادة المقاومة!

جميل أن تكون لكل فرد حكاية شخصيّة، والأجمل حين تتوازي حكاية الفرد مع حكاية المجموعة، تتناغم معها، فيؤول الكل إلى رماد من شدة الحنين وعذوبة الحلم الإرادي الجماعي والذاكرة الجماعية والشعور النفسي الجمعي ومن هنا نتعلم كيف نتنفس التاريخ والحكاية والأسطورة.

وتسألين: "هل نحن نذهب طوعاً إلى قَدَرنا، معقدين طبعاً أننا نحن الذين نصنع أقدارنا"؟!

فأجيب بنعم ولا، في الوقت ذاته.. أعتقد ولا أعتقد في آن واحد. فأنا أحمل الشيء ونقيضه كما حياة الإنسان، وكما الحياة ذاتها، تحمل بذور الموت والموت بذور الحياة.

قلت: إذن لماذا أَحْبَبْتَنِي؟ وهل كان ذلك بفعل الإرادة؟

قلتُ: وهل يُسأل النهر لماذا يجري، والطير لماذا يغرد والنسر لماذا يحلّق؟

العشق يا غالية لا يدقّ الباب ولا يستأذن أحداً للدخول. إنّه كالموت يجيء فجأة وتستوي فيه البداية والنهاية، يغيّرنا فجأة، يقلب نظرنا إلى الحياة فجأة، يغيّرنا إلى الأفضل فجأة. ينحر الرتبة فينا من الوريد إلى الوريد ومن النقيض إلى النقيض.

لا بأس إن أثقلت على صدرك المنعم الجميل في هذا الإبهام والتناقض. هي ذي الحياة. فلا حياة بدون حبّ ولا حبّ بدون تناقض. إقرأ أي "طوق الحماية"! لم يتغير شيء علينا وعليها منذ ألف عام... ومنذ ألف ألف عام... ومنذ ألف مليون عام... فالإنسان هو الإنسان يتبدّل الشكل ويبقى الجوهر، تتبدل الطقوس ويبقى الله محبة.

وَعَدْتَنِي وَأَوْفَيْتِ بالوعد كعادتك.. وقرأت "طوق الحمامة" لابن حزم الأندلسي.. وتلك علامة من علامات الحب لأنّ الوفاء من شيم العشاق والمحبين. فأسمع تسجيلاتك الخليويّة في ساعات الفجر الأولى.. ليس صدفة كل ما يحدث لأنه يتكرر، والصدفة تحدث مرة واحدة. وعدتني أن يكون الطوق كتاب السرير. وكان ذلك. فتناوب مع مخدّة الكحل التي تحضنين. فأنت سائرة نحو خلق هذا القرار الجميل.. هذا القرار الحلم الذي نصنعه بفعل الإرادة.. كي تفتح أبواب السعادة. والإنسان يبذل الجهد ذاته في خلق السعادة وفي



خلق التعاسة كما أنّه يبذل الطاقة نفسها في اللذة وفي الألم. والذي يحلم بفعل الإرادة وذلك الحلم الممكن تحقيقه إنما يمشي أمام القدر ولا يسير خلفه.

كم هو جميل يا غالية أن نسير أمام أقدارنا فنرى المستقبل يتشكّل في رحم الماضي والحاضر بفعل ذلك الحلم الإرادي.

جميل أن يتشكّل الإنسان من جديد وهو في قمة نضوجه، فيتغير دفعة واحدة. إذا وقع الفنّان أسير فنّه فليقع دفعة واحدة، وإذا وقع المبدع أسير إبداعه فليقع دفعة واحدة وإن عشقتك دفعة واحدة وفجأة ولا ردني الله!

فالعشق كالموت المباغت، والمرء لا يموت مرتين والشجاع يموت مرة واحدة أمّا الجبان فيموت آلاف المرات.

غرائبية كانت أفكارك في تلك التسجيلات الليلية. أهو العشق يا حبيبي يفتح خلايا الدماغ المغلقة ويشعل الإبداع؟

أهو العشق يَنفُخ الروح في قلب الإنسان؟ أم هو التواصل الذي يبدأ بالحلم الإرادي فيتحقق بفعل الإرادة والخلق الواقعي فيكون الخالق مخلوقاً والمخلوق خالقاً؟ أهو أنت يا راهبة الحلم تبدعين وتبعثين في حركة الإبداع كي يتواصل الإبداع مع الإبداع والإنسان مع الإنسان والجنون مع الجنون؟ ولا موت مع الإبداع كما لا موت مع الخلق المتجدد بالبعث، حيث يستحيل كسر الدائرة المرتبطة باسمك الذي خلقتُ على الورق.. روندا.

وبعد، أيتها الماريّة.. الجنيّة الطالعة من بحر عكا وحيفا واللاذقية والاسكندرية وتونس وسوسة والحّمّات. يا راهبة الحلم.. أيتها العذراء الأكثر خصوبة من جميع بنات عشتار وحواء وإنانا. ومن كل بنات الأفكار الأسطورية والواقع. أدري كيف وأنا معك ينتظم إيقاعي المتنافر. أدري كيف انضبط الإيقاع!

أنت برونزيّة وأنا لما لفحتني الشمس. نجلس في مقهى الشمس. على كرسيين مصنوعين من القصب متقاربين. كل منا يقنع نفسه أنها صدفة كي نفني التهمة أمام الآخرين، والرقيب المكتوبجي. نجلس صدفة، نتقارب صدفة، نهمس صدفة، يلمسُ الجسدُ الجسدَ صدفة. نتحاور حوار حبّات الكستناء في المقلّي. تضجّ غابة الكستناء نضيع

ولا ضياع. تتشابك الأغصان بفعل الريح التي تهبّ بشكل ناعم، تتطاير خصلات شعرك الأشقر.. تلمع تحت إشعاعات العشق الأولى. كل شيء يلمع في لحظات العشق. كل شيء يدخل في حوار. تنبع الحركة من جوف السكون. تعبق الحياة وتختلط الحواس، يتحاور فينا كل شيء، كأننا وحدنا في غابة كراسي الخيزران، وكأنه البدء حيث لم يكن هنالك بشر.. نحرص ألاّ يرانا الله. نبادل موطئ القدم من تحت طاولة الخيزران ذات الوجه البلّوري الذي تغطّيه فناجين القهوة. مرة يكون نعلي فوق نعلك ومرة أخرى نعلك فوق نعلي.

أسمع ذلك الثغاء النازف من جلد النعل.. حوار بين شاة وحمل يخرج من بين أصابع القدم الحبيسة.

وددت لو كنت حافيا. من قال إن الجلد غير موصل جيد لحرارة ثغاء العشق؟ كنت في تلك اللحظة الأم الأولى، تعيشين في الما وراء؟

كنت الرواية القادمة التي تمشي على قدمين، وقد تأنسنت، أم إنك ستبقين عروس بحر اللاذقية؟

وهل سأتبقى أمشي وحدي لا ألتفت إلى الوراء ولا أدير ظهراً لعدوّ؟ نعم لن أدير ظهراً لعدوّ!

أتابع المسير في حركة ما، شبيهة باسمك! فنكون الحاضر الحالم بالمستقبل والمستقبل الذي يقتحم الورا فيصوغ الحاضر.

(6) هكذا كان حين جئت القيروان.. هذه قصتي يا أيها السومري.. حيث دخلتها مهزوماً كما خرج منها سيدي عقبة بن نافع. حاولتُ أن أستدرّ عطفه، فإذا به في أمس الحاجة إليّ. نعم دخلتها مهزوماً إلا من الإرادة.. فاقداً كل شيء سوى الإرادة. وإذ التقيت بذات العيون الدمشقية حملتني إلى رحاب بني أمية، إلى الجامع الأموي، إلى بقايا معبد حدد، يُبعث في ذلك الماضي السحيق الموغل في القدم، فأتشكّل من جديد وأشكّل المستقبل الطالع من رحم الحاضر. وأستمد من كل هذا الإرادة وروح المقاومة، وثقافة المقاومة، والقدرة لكي أهزم هزيمتي في ذلك العشق البدئي الكامن والخارج من قمقمه فيسيل كما

تسيل الطاقة، والطاقة لا تفنى. وإذا بي أسمع صوت بعل إله الخصب الكنعاني صارخاً في وجه مجمع الآلهة: "لماذا حنيتكم رؤوسكم حتى الركب؟" لماذا؟ فأضمر صرختي إلى صرخته عندما أرسل "يُم" (إله البحر) في طلبه لقتله فأحتمى بالآلهة ممتشقاً سيفه. أتفهمون؟ ممتشقاً سيفه.



## (2) لماذا هَنَيْتُمْ رؤوسكم حتى الركبة؟ (تناص)

تقول أساطير الأولين كلامًا مبيّنًا:

بأنّ الخليقة كانت بلل

ومنذ الأزل

مياهٌ وغمرٌ وفوضى سكون

ويمُّ إله كبير

ملكٌ مطاعٌ محيطٌ بدون قرار

وكلُّ إله من الماء كان

يعيش يمازج أمواههُ بدون انقطاع

إلى أنْ جاء بعل

وبعل إله يحب الحياة

ولم تُكْ "بدرية" النور بعد

ولم تُكْ "طلية" بعد

ولم تُكْ "أرصية" بعد

وبعلُّ إله الحياة.. عدوُّ السكون

تحاشى الصدام.. لكن يَمَّ أغار عليه!

ففرَّ إلى بيت - إيل .. احتسى

لعلَّ الإله الكبير يُعين  
ينظّم ما بينه من جهة  
وما بين يمٍ وإيلٍ إله البحور  
يزاوج ما بين الحراك وبين السكون  
ويُطلق سلماً.. ويفرض عدلاً...  
بشأن كهذا وكل الشؤون  
فلا هو عبدٌ ولا يَمُّ سيّد  
لعلَّ السلام يساوي الجميع  
لعلَّ السلام بحضرة إيل الكبير يكون.

ويمُّ إله عميقٌ عقيمٌ، عنيدٌ.. يُيمّم شطر الإله الكبير  
إلى بيت إيل العتيق العتيد  
يطالب رسوليّه أن  
"امضيا أيها الشباب  
امضيا ولا تتقاعسا."  
وفي مجمع إيل يكون اللقاء  
"في وسط جبال الليل  
عند قدمي إيل لا تسجدا  
قولا لثور  
قولا: لإيل أبي.."  
أن سلّموا ذاك الذي إليكم أوى

وإلا أفيض.. وإلا أدمّر وأسحق وأجرف  
كل الذي كان أو سيكون!  
سَلِّمُوا بعل ابن داجون!

"وقبل أن يلتئم مجمع الآلهة"  
قبل أن يجلسوا للمائدة  
كان بعل واقفاً قرب إيل  
فلما رأى الآلهة الرسولين..  
حنوا رؤوسهم حتى الركب  
وهم على عروشهم بجلالهم واقفين  
انتفض بعل، وبخهم قائلاً:  
"لماذا أطرقتم أيها الآلهة؟  
لماذا حنيتم رؤوسكم حتى الركب؟  
إرفعوا رؤوسكم.. ارفعوها!  
سأنبري أنا للرد، بعد إذن الرب، على رُسُلِ يم..  
رُسُلِ السيد نهر"  
وانبرى بعل للرسولين يريد القتل، لكن الأم الكبرى  
منعته: فليس من عاداتنا قتل الرُسُل  
فقال: نعم.. وثار نحو يم  
وبعل لا يركع أمام عنف..  
وإن ركع.. فماذا يبقى للمقدس؟

إمّثشق ابنُ داجون سلاحه  
بيد أمسك خنجرًا  
وبالأخرى حجر.. ماضيًا كان  
عاصفًا اسمه.. صاعقًا كان  
وشطريم انطلق  
كسهم، كصقر جناحيه خفق  
بالعاصف يصعق يم عرش يم  
بين عينيه أصابه.. تضعضعت قواه  
خرَّ يم سقط.. تهاوى كجلمود صخر  
فمزقه بعلُ العليّ  
وطّد النظام.. رَوّض المياه  
وأرسي قواعد الكنع في رسالة الزمن  
فبعل بن داجون إله، والزمن إنسانيّ  
هو سر مدي..  
يتجدّد.. في الإنسانيّ الكنعاني  
يكون في تتابع الفصول، دائم الحضور  
هو راكبُ الغيوم يعتلي متن السحاب.  
يُصرفُ الرياح والعواصف صواعقًا،  
يحمل سلاح البرق والمطر، يُنضجُ البذور والثمر  
يبعث الخصوبة.. ويحيي الأرض اليباب.  
يمتع النظر "ببدرية" ابنة النور والقمر،



وينحني على "طلية" بالطل والرّهام  
ويحنو على "أرصية" ابنة الأرض.  
يمتّع الحياة بالنور والطل والرّهام والمطر  
وبالتراتب التراب والخصوبة  
فتولد الحياة، تُبعثُ من السكون  
وحبنا إلهنا يكون.. نهارنا يكون  
"وليلنا بجناحيه السوداءوين،  
في قاع الهوة المظلمة العميقة،  
وضع بيضةً في رحم الريح.  
وبتوالي الفصول ينبثق الحبّ  
إيروس بأجنحة من ذهب".  
من ظلمة العماء والخواء يولد الحبّ، يرفرف كيوييد السهام..  
وبولادته ينتظم الكون والجمال، وبحركته يهزم السكون في الزمان والمكان.  
يتوجه بعل بن داجون إلى أمّه، عشتاره، عناته.. يقول:  
"ليس لبعل بيت كبقية الآلهة  
ولا هيكل كأبناء عشيرة  
ليس له مسكن كمسكن إيل  
ولا كبيوت أبناء إيل  
ولا كمسكن عشيرة، وفينوس سيدة البحر الأثيرة  
ولا كبيت "بدرية" ابنة النور  
ولا "طلية" ابنة المطر

ولا "أرصيّة" ابنة الأرض  
أو كبيوت الحوريات العظيمات "  
تجيبه عنائه عذراؤه دوّمًا تقول:  
"سيهتّم أبي إيل، الثور، بالأمر  
من أجلي سيهتّم أبي بالأمر"  
لكن بعلاً يرتجف، ينتفض، يخاف أن تعود موجة الركوع!  
هائماً يظل، بدون بيت يؤوب إليه  
لا شيء عنده، "وجموع الناس لديها أكثر مما تحتاج!"  
سلاحه الإصرار والمقاومة<sup>(47)</sup>.

## أسطورة أثينا ومقيقت الدمعراطيت

ذات مساء.. وفي ليلة واحدة نبتت شجرة زيتون ضخمة، هي إيليا باللغة اليونانية الكلاسيكية، (وإيلياء من أسماء القدس أيضًا)، لم يكن لها شبيه أو شبيهة.. وارفة الظلال كانت هذه الشجرة، وعلى مقربة منها انبثق فجأة نبع غزير، فزادها جمالاً على جمال، وهيبة على هيبة ووقاراً على وقار.

أدرك الناس أن في ذلك سرًا إلهيًا ورسالة من السماء. واحتار الملك في ذلك الزمان، فأرسل إلى عرافته بمعبد دلفي، يستخيرها ويستطلع الأمر. فقالت له هذه العرافة، بعد أن صامت وتظهرت واستوحت: أن هذه الشجرة هي الإلهة أثينا، وأن نبع الماء هو الإله بوسيدون وأنها أي إلهة الحكمة وإله البحار يخيران أهل المدينة باسم من منهما تسمى مدينة هذا الملك. وكانت الممالك بتلك الفترة عبارة عن مدن لا أكثر ولا أقل.

جمع الملك بساحة المدينة رعاياه امتثالاً للأمر الإلهي، الذي جاء على لسان العرافة وقال لهم: اختاروا!!

فصوتت النساء إلى جانب أثينا وصوت الرجال إلى جانب بوسيدون.. وعند فرز الأصوات كانت الغلبة للنساء فسميت المدينة أثينا.

لا ندري لماذا كانت النتيجة هكذا فالأسطورة تناسب لغة القوم منه جاءت ومستوى تفكيرهم ومنابع معارفهم ولغتهم، وهي على عادة ذلك الزمان لغة مبسرة ومختزلة وجميلة لأن البلاغة في الإيجاز كما نقول نحن العرب. يتدخل علم الأسطورة اليوم (الميثولوجيا) وبمساعدة بعض اللقى والمكتشفات الأثرية والتاريخ وعلم الاجتماع وعلم النفس.. ويحاول أن يفسر لنا تظهر الأسطورة وظروف زمانها ومكانها ومستوى وعي العقل البشري بتلك الفترة التي أنتجتها.

أما إذا عدنا إلى الأسطورة هذه، فتقول: إن غلبة النساء كانت ربما لأن عدد النساء أكثر من عدد الرجال بسبب الحروب أو ربما لأن بعض الرجال صوتوا إلى جانب النساء بتأثير

من عرافة دلفي أو نتيجة لمحبة الأم والأبنة وحب الزوجة والعشيقة. على كل حال، لسنا هنا بصدد التفسير الأنثروبولوجي الذي أجمع عليه العرب حديثاً، على غير العادة، أنّه علم الإنسان/ الأنسة.

تقول الأسطورة إنّ هذه النتيجة لم تعجب ذكوريّة بوسيدون، فغضب غضباً جماً وأرسل مياهه المالحة فغطت المدينة أو كادت. ثم تراجع المياها بأمره وتركت أملاحها في التربة التي غدت غير صالحة للزراعة.

وفي هذا يروح الصالح بعزاء الطالح. وليس في ذلك عدلٌ.. والعدالة عمياء.. حاولت الرجال تهدئة غضب بوسيدون، وفرضت على النساء ثلاث عقوبات، هي عدم التمتع من الآن فصاعداً بحق التصويت وعدم الانتساب إليهن وعدم حملهن لقب الأثنيات أبد الدهر. فيقال الأثنيون ولا يقال الأثنيات.

رضي بوسيدون وتراجعت إلهة الحكمة. وقفت بقدها الممشوق، عصبت عينيها بخرقه، حملت ميزان العدل يسراها، كشفت عن صدرها، وحملت سيف الحق بيمنها. وكان في وقفها هدوء ما قبل العاصفة وكان في طريقة حملها للسيف تحفُّزٌ.

هكذا قال لي تمثال أثينا حين لجأت إلى الكتابة، وضعت أمامي على عادة المحامين، ولمسته واستقرأته فطوق.. تماماً كما نطق المارد في حكاية/ خرافة مصباح علاء الدين.

حدثني أثينا عن معنى الأسطورة. وكان ذلك على لسان حياة الرايس في كتابها "جسد المرأة من سُلطة الإنس إلى سُلطة الجن".<sup>(48)</sup>

قالت حياة: إنّها محاولة لتفسير علاقة الذكورة بالأنوثة وترميز لعلاقة الرجل بالمرأة وتصوير الانقلاب الذكوري الكبير على الأنوثة منذ فجر التاريخ.

ولنلاحظ هنا عدم وجود صراع في البداية بين الإله الذكر والإلهة الأنثى، ولنلاحظ أيضاً أنّ هذا هو الوجه الأساسي لديمقراطية الإغريق العريقة، الموغلة في القدم.

كما وعلينا أن نلاحظ أيضاً محاولة تصوير الصراع بين البشر وكأنه صراع جنسي بين الذكر والأنثى.. فعندما جاءت نتيجة التصويت رضي الناس جميعاً بها. لكن بوسيدون الإله المهزوم انقلب وفقد روح الديمقراطية الأساسية بعد أن وافق على مسألة تخيير البشر. بمعنى آخر، لقد كان ديمقراطياً في إعطاء الخيار للناس وعندما هُزم انقلب على اختيارهم.

أي أنه أصبح ضد الديمقراطية، بعدما أدرك أنه لم يكن يملك روح الديمقراطية، إنما شكلها فقط. وما يفسر أيضًا الغبن التاريخي الذي أحاق بالمرأة وبالإلهة أثينا صاحبة الحكمة التي فضلت الحكمة على العدالة في حينه. فكشفت زيف ديموقراطية بوسيدون ذلك العصر وكل عصر حتى يومنا هذا.

إنّ منع المرأة من حقها في التصويت بمثابة حجاب، أي حجب عقلها تمهيدًا لانتزاع حقوقها المدنية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية. وإنّ الانتقال من المجتمع المتوازن الذي يعطي لكل ذي حقّ حقّه جاء عن طريق العنف والمنع والكبت والحرمان والسيطرة، كذلك الانتقال من المجتمع الأمومي إلى المجتمع الأبوي كان بالعنف وبالتالي استسلام الأمومة بدون مقاومة أي الخضوع، كمثّل سليمان الحكيم التوراتي في مسألة الطفل والمرأتين اللتين ادّعتا بنوّته، فتنازلت الأم الحقيقية عنه حين حكم سليمان بشرطه إلى نصفين!

هكذا لم تقاوم "أثينا الإغريقية" بعكس جدتها "نُعامة" (تِيَامِت)، الأم الكبرى، بحسب "الإينوما إيليش" أسطورة الخلق البابلية، والتي حاربت ولكنها هُزمت من قبل حفيدها الإله الذكر "مردوخ"، الذي قطعها إربًا إربًا وجعل من جسدها الأرض.

لنتتبع الآن مسيرة الفكر الإغريقي، ولنرّ سقراط يخضع لقانون مدينة أثينا على الرغم من كونه جائرًا، فيرفض فكرة تلميذه كريتون بخصوص تدبير أمر هربه، ويتجرع السّم راضياً قانعاً بأن يكون الضحية، رافضاً الدّل بتغيير قناعاته.

ولنرّ أيضًا امتداد فكرة هذا الفيلسوف العظيم وانعكاس فلسفة الخضوع في الأزمة والانهيار في عالمه الأثيني. ولنرّ أيضًا كيف دعا أفلاطون إلى مشاعية النساء ولماذا صرّح أرسطو أنّ المرأة هي "رجل ناقص"، وميّز فيتاغوروس بين عالم النور والنظام والخير عند الرجل وبين عالم الظلام والفوضى والشرّ عند المرأة. أمّا أبو قراط واضع قسّم الطب المعروف باسمه فقد انحدر أكثر عندما قال: "إنّ المرأة هي خدمة البطن".

والآن وبعد أسطورة أثينا بكثير.. فهل من جديد؟

إنّ قضية المرأة وأسطورة أثينا ومسألة الديمقراطية لا تخص المرأة وحدها، إنّها هي قضية سياسية واجتماعية واقتصادية وتنموية وتربوية وثقافية. هي قضية تخص المرأة كما

تخص الرجل، لكن المرأة وحدها هي التي تحرّر المرأة، والأصح أن العلاقة جدلية، لن تتحرر المرأة دون أن يتحرر الرجل ولن يتحرر الرجل دون أن تساهم المرأة وتسعى لذلك. إنَّ عدم استسلامها أو خضوعها ورفضها الدائم والمعلن للهيمنة الذكورية وسعيها المستمر نحو حقوقها ووعيها لذاتها هو الكفيل لإحداث التغيير بالرفض والمقاومة.

## أسطورة الديمقراطية

سنة 400 ق.م. جاءنا نبأ عن تحقيق الديمقراطية في أثينا.. ألهب النبأ وألهم فلاسفة الإغريق في حينه وحتى فيما بعد إلى يومنا هذا.. ومنهم إلينا.. حتى فلاسفة الغرب قاطبة في عصرنا الراهن، لكن الأهم في الموضوع أنّ هذا الكائن - الحيوي جدًّا - الديمقراطية، ظهر وكأنه صناعة غريبة.. حامية للغرب من جهة الشرق. فأصبح مسحًا استشراقيًّا! إلى أن أُصيبت الحضارة الغربية بعقدة الخوف من الغرباء - وتسمى هذه العقدة في علم النفس الاجتماعي: إكسينوفوبيا - خاصة تجاه الحضارات الشرقية القديمة والحديثة: حضارات ما بين النهرين وفارس وآسيا الصغرى والهند وحتى الصين واليابان.

الديمقراطية تعني ومنذ عهد أثينا، حكم الشعب للشعب.. لكن أي حكم؟ وأي شعب؟ النساء والعبيد والفقراء لا يحق لهم أن يُصوتوا.. على الرغم من أنّهم كانوا وما زالوا حطّ الإنتاج المادي والمعنوي، الرئيسي. إذ لا يمكن أن تنتج الثروة بدون أيديهم.

ففي تلك الفترة - 400 ق.م. كان نصف المجتمع نساء كما اليوم أيضًا، وثلاثة أرباع النصف الباقي عبيدًا وأنصاف عبيد وأحرارًا فقراء. أي أن ذلك العهد كان قمة الأوتوقراطية والأوليغاركية والموناركية والدكتاتورية. ومن كان يحكم هم فئة صغيرة، وصغيرة جدًّا.

فأين حكم الشعب في هذه الديمقراطية؟ أين حكم الشعب في هذا الديموس قراتوس؟

لقد حلّت دولة إسبارطا العريقة مشكلة العبيد ومشكلة القوى العاملة فيها في بساطة متناهية وذلك باحتلال دول الجوار وتحويل سكانها طُورًا إلى عبيد وسبايا... فتحسن نسبيًّا وضع العبيد المحليين! ثم جاءت حضارة ما بين النهرين/ العراق وفارس وتصدت لحضارة الإغريق وإسبارطا والرومان فيما بعد. تصدى الشرق للغرب ونتج عن ذلك

اللحاق ما هو جديد خرج من رحم القديم. مثل ذلك حكم الأباطرة السوريين في روما حوالي سنة 200 ق.م.

وظلت عقدة الخوف من الغرباء، بسببها انهار حكم الأباطرة السوريين في روما. لكن بقي الأثر... في تأثير الشرق على الغرب والغرب على الشرق تأثيرًا متبادلاً. مع هذا بقيت العقدة في تاريخ الغرب الذي يخاف الغرباء فأخذ ما يحلو له من حضارة الإغريق والرومان فيما بعد، أخذ ما يلائمه ولفظ ما لا ينسجم مع عاداته وتقاليده وموروثه الثقافي. بقيت هذه العقدة بهدف المحافظة على الذات كما أعتقد.

لنعدُ من القديم إلى الأقل قدمًا، ومن أثينا إلى الناصرة حين كان في المجلس البلدي الصوت للملّك في العهد العثماني.

فقد كان أجدادنا رحمهم الله يسجلون بعض عقاراتهم بأسماء الخدم والحشم حتى يتسنى لهم التصويت في انتخابات البلدية بموجب قوانين الديمقراطية العثمانية التركية في حينه... ثم وبعد ذلك يجعلونهم يخلعون ما ألبسوه، بعد الانتخابات. هكذا كان في ديمقراطية الناصرة في بداية التكوين لبلدية الناصرة منذ سنة 1875 م.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولهم، فأنا أولاً وقبل كل شيء لستُ من عبدة الأسلاف.

عندما نقول ديمقراطية - حكم الشعب، علينا أن نسأل دائماً.. حكم أي شعب... ومن هو هذا الشعب؟ هل هو شعب أثينا؟ حيث حرية الانتخابات هي للأحرار فقط! وأما النساء والعييد والفقراء فهيك وهيك لأهمهم! علينا أن نسأل دائماً كيف ومتى وأين؟ وعندما نسمع عن الاستبداد والحرية علينا أن نسأل أيضاً هذه الأسئلة. استبداد من وحرية من؟ وهل هي حرية المستبد في استبداده كما يحدث اليوم في عصر العولمة؟ في عصر الغربنة؟ وفي عصر الأمركة؟

أساطير! أليس كذلك؟ والأسطورة هي ضرورة ووجود، لكن ليست أساطير من هذا النوع!

وإذا عدنا إلى العهد الإسبارطي ونتيجة الظروف في ذلك المجتمع المقاتل.. حققت المرأة



الحرّة إنجازات، وتحملت قسطاً من المسؤولية في أثناء غياب رجلها المحارب.. وكان أرسطو قد انتقد هذه الظاهرة أشد انتقاد خاصة وهو القائل بأنّ "المرأة هي رجل ناقص"، فلا يختلف بهذا عن العامّة ورجل الشارع اليوم الذي يقول بأنّ "المرأة ناقصة عقل ودين". أية مأساة هذه حين يلتقي الفيلسوف مع العامّة؟! في مسألة دونيّة المرأة، وفي الإرث وتعاطي الرياضة والحقوق المدنية والسياسية! ولم يشذ عن أرسطو في هذه النظرة الدونية للمرأة لا سقراط ولا أفلاطون، ولا فيثاغورس ولا أبقرات.. ولم يكن وضع المرأة أفضل لا في الصين ولا في الهند ولا في فارس إلّا النزر القليل، في بابل على أعتاب شريعة حمورابي وفي مصر عهد الفراعنة، بوجود بعض مظاهر المجتمع الأمومي. وكذلك في الإسلام الذي راوح ما بين القديم والجديد مع بعض الاستثناءات القليلة.

أمّا النكوص الكبير فقد كان في القرون الوسطى، حيث عزلت الكنيسة المرأة مرة أخرى وكان "حزام العفة" فيه يجبس الرجل فرج المرأة كلما نوى على السفر.. وما عرف "بحق التفخيز" أو ما عرف تاريخياً بحق "الليلة الأولى Prima Noctae" في العراق القديم في عهد جلجامش.

والآن أتساءل لماذا أتكلّم عن المرأة في مقال عن أسطورة الديمقراطية؟ ما دخلها في ذلك. ولم الاستطرد؟ إلى آخره.. لكنني أقطع الطريق وكقاطع للطريق في عرف البعض أشدد على حلمي. فأنا أحلم كما يحلم الفيلسوف الفرنسي ايمانويل مونتي (1905-1950) "نحنلم بمدينة تشحذ المرأة فيها طاقة زاحمة لم تستهلك بعد، وهي ذلك المخزن الهائل من الحب لفرقة مدينة الرجال القاسية والأنانية". ولكي تكون ليس مجرد صوت في صندوق الاقتراع. إنني أحلم بزعة الوعي الجمعي للذكر والأنثى في بيروت والناصرة والقاهرة وعمان ودمشق النازفة منذ حوالي العقد، وتونس العاصمة وعنّابة والدار البيضاء وبغداد الجرح النازف، أو غزة التي ستلقى في البحر إذا لم نصحّ أو نتزعزع. أساطير...! أليس كذلك؟ لكنها تعكس حياة المجتمع، وإن أكثر ما يميزها أنّها من التآليف الجماعي. إنّها تعكس روح العصر. فماذا تعكس لنا اليوم أسطورة الديمقراطية؟ هذا السؤال يحتم علينا أن نسأل، أين؟ أفي إسبارطا الجديدة، الكيان الصهيوني المدجج بالسلاح من الرأس حتى أخمص القدم؟ أم في عالم القرن الواحد والعشرين بعد الميلاد الذي يسوده

الجنون؟ جنون العظمة وجنون المصالح والفلتان المتوحّش لرأس المال المعولم، جنون البشر الذي يصب في خانة الاستهلاك والاستهلاك فقط على طريقة اسبارطا الحديثة، والتي تريد لنا أن نلبس الجينز ونأكل الهوت دوك ونشرب الكوكاكولا وندخن المارلبورو ونشاهد الستار أكاديمي ونحلم أنّنا أبطاله كما ونحلم أنّنا ربحنا المليون (نحلم فقط) وباسم الديمقراطية. اسبارطة أمريكا هذه التي تريد أن تعلم نمط الحياة فيها لتشغيل مصانعها. والتي تريد أن تنفي الآخر حضارياً وثقافياً واقتصادياً وسياسياً وباسم الديمقراطية... إذن وهكذا فعلينا أن نسأل الآن أي أسطورة هذه! أهى ضرب من الخيال الذي يتحقق؟ وأي ديمقراطية هذه التي تفرض فرضاً؟ وأي نظام هذا الذي يريد أن يعلم نمط حياته وأن يفرضه بقوة السلاح التقليدي وغير التقليدي على الآخر. هل من الممكن أن يستمد قوته من الشعب؟ ألم أقل لكم أنّها أسطورة؟ ليست أسطورة بالمعنى الإيجابي إنما خرافة، لا ليست خرافة، بل كذبة كبيرة.

## الرئيس الذي عاش قبل عشرة آلاف سنة

الديموقراطية هي المحاسبة سواء أكان المحاسب إلها من آلهة هذا العصر أم بشراً عادياً. والأساطير هي خزانة الشعوب فيها تحتفظ بقيمها وعاداتها وتقاليدها ودياناتها وفلسفتها وتجاربها. ما أحوجنا لمعرفة أساطيرنا!

إذا أخذنا نظرةً على الصحف والمجلات أو ألقينا آذاننا إلى المذيع والمرة أو أطلقنا حركة أصابعنا وأدركنا أضرار الإنترنت والحاسوب، فإننا سنرى أن أكثر كلمة متداولة هي كلمة الديمقراطية. باسم الديمقراطية ضُربت أفغانستان واحتلت العراق في الراهن، وصارت أزمة سوريا وقبلها أزمة كوبا وبعدها أزمة فينزويلا. وباسمها زالت دول في الماضي وبرزت أخرى وزالت امبراطوريات وصعدت أخرى...

نلاحظ أيضاً أن الكل (عامل علينا أبو علي ومعلم)، وكأن أساس الديمقراطية ليس من الشرق إنما من الغرب. صدقوني أنني لا أقسم الدنيا إلى شرق وغرب، فأنا من المؤمنين بوحدة العالم وبوحدة الإنسان والإنسانية وشموليتها، من المؤمنين بالخير للجميع، فلا ظالم ولا مظلوم ولا قانع ولا مقموع. وأن الحضارات والثقافات تُكمل بعضها بعضاً، وإن حضارات الراهن ما هي إلا حلقةٌ وسطي بين الماضي والمستقبل.

الديموقراطية ليست اختراعاً غربياً، وحضارات ما بين النهرين (العراق القديم) من سومر وبابل وأكاد وأشور حتى الفينيقيين والكنعانيين وحلقاتها المتصلة تشهد بذلك. أدعوكم الآن لملاحظة مداها فكرةً وأسلوب حياة وتظهرها في أعماق التاريخ الافرديني والسوري (الأشوري)، والشرق أوسطي، والأدنى القديم. لقد جاء في أسطورة ولادة القمر - سين بوجهها السومري ما يؤكد قولي. والسومريون لمن لا يعرفهم بداية التاريخ المكتوب وهم أول من اخترع الخط الذي سُمي بالخط المساري لكونه يُشبه المسامير، في

فترة تعود إلى ما قبل حوالي عشرة آلاف سنة.. هذه الفترة التي فيها دجّن الإنسان القمح البري والحيوان فكانت الثورة الزراعية وحياة الاستقرار.

جاء في هذه الأسطورة السومرية أنّ إله العاصفة ورئيس مجمع الإلهة إنليل شاهد نتاليل وهي تستحم في ترعة قرب النهر، فاستهوته... وفي رواية ذكورية أخرى أنها تعمدت إغواءه. وفي الروايتين تصده نتاليل قائلةً بغنج ودلال:

"إنّ فمي صغير لا يقدر على التقبيل

وإنّ مهيلي ضيق لا يقوى على الجماع".<sup>(49)</sup>

يغلي الدم في جسد إله العاصفة، لا يتمالك نفسه، يشدّها بالقوّة، يقودها إلى مركبٍ يطفو فوق النهر ويغتصبها هناك.

ينتشر الخبر كالنار في الهشيم، يصل عنان السماء ومجمع الآلهة. يلتئم المجلس، خسون من الآلهة الكبار وسبعة من الصغار - الأنوناكي. كان هذا المجمع عبارة عن الهيئة العليا لمجلس الحكم الإلهي الذي يترأسه إنليل وآن إله السماء. المهم في الأمر أنّ هذا المجلس الأعلى غاضبٌ من إنليل لأنه دّس حدود مدينة السماء، فيحكم عليه بالنفي خارجها إلى العالم السفلي. وتتابع الأسطورة بأنّ نتاليل تعلّقت به بعد حادث الاغتصاب فتلحق به إلى العالم السفلي وهي حاملٌ بإله القمر سين أو نانّا بحسب الاسم السومري القديم، حيث تلد ههناك. فيحزن إنليل لأنّ ابنه هذا الإله الجميل سيكون تريباً.

ولكن الأهم الذي يُمكن استنتاجه من هذه الأسطورة هو أنّ رئيس مجمع الآلهة تحت القانون لا فوقه. إذ يأتي هذا الرئيس قبل عشرة آلاف سنة ويقف صاغراً أمام المجلس لكي يُحاكم ويُحاسب!

هذه هي ديموقراطية العراق القديم، هذه هي سوراقيه (سوريا والعراق)، الأرقى بنظري من ديموقراطية أثينا أيام سُقراط الحكيم (400 ق.م.) وما قبله كديموقراطية الإله بوسيدون، إله البحار الذي يؤيدها حين تكون لصالحه وينقلب عليها إذا لم تكن كذلك.

لقد سبق وكتبت عن أسطورة أثينا بوليس وتسميتها. ولا بأس من التكرار! ذات يوم أفاق الناس وإذ بشجرة زيتونٍ وارفة الظلال نبتت في الحال قرب عين ماءٍ انبثق فجأةً.

احترار الناس فذهبوا إلى الملك الذي كان أكثر منهم حيرةً، ذهبوا إلى عرّافة معبد دلفي فإذا بها تقول لهم: إنّ هذه الشجرة هي إلهة الحكمة أثينا، وإنّ هذا النبع هو إله البحار بوسيدون، وهما يُخيران أهل المدينة بتسميتها. فكان لهم ذلك وكانت الغلبة في جانب أثينا. لم تُعجب هذه النتيجة إله البحار فأغرق المدينة بمياهه المالحة، جذبت الأرض وعلا صياح الناس جرّاء الملوحة والغرق والجذب والقحط والجوع والدمار. وكانت التسوية مع بوسيدون:

أولاً ألا تُسمى ساكنات المدينة باسمها، وثانياً ألا يكون الانتسابُ إليهن، وثالثاً ألا يُسمح لهنّ بالتصويت فلا يؤخذ برأيهنّ.

تراجعت مياه بوسيدون... رضيت أثينا مُرغمةً وعادت المياه إلى مجاريها فدبت الحياة في عروق المدينة.

هكذا نرى أنواعاً من الديمقراطية، من تلك التي تُحاكم الحاكم إلى تلك التي تتحكّم بالمحكوم. من ديموقراطية العدل والقانون إلى ديموقراطية المصالح، يُفصلها الحاكم على مقاسه هو ويُريد أن يُلبسها لجميع شعوب الأرض.. ضعيف سمين طويل قصير غير مهم، فكلّ ما يهمّه هو أن تكون على مقاسه وبحسب مصلحته. والحاكم هنا لا يعني الفرد وحسب ولا الوزراء من حوله ولا الحاشية وحسب، إنما من يُمثل هؤلاء جميعاً من مؤسساتٍ دينيةٍ ومدنيةٍ وعسكريةٍ، ومراكز نفوذٍ ومراكز أبحاثٍ وشركاتٍ عملاقةٍ عابرةٍ للقارات والمحيطات والقوميات. ذلكم هم آلهة العصر.

كثيراً ما يكون هذا الرئيس أو ذاك مجرّد دمية، تُحرّك خيوطها الزواحف من العائلات الثرية كروتشيلد وويندسور وبارونات المال والأعمال والأخويات السريّة كفرسان الهيكل وفرسان مالطا والتنظيمات السريّة كالماسونية... فهل كان الوضع كذلك قبل عشرة آلاف سنة؟ لا أعتقد.

أمّا لمن يعتقد بأنّ الأساطير هي مجرّد خرافات وأنّني أبحث في مواضيع لا طائل منها ولا جدوى، أقول له: على مهلك! الأسطورة هي الخزانة التي كانت الشعوب تضع فيها

قِيمَها وعاداتها وتقاليدها وديانتهأ وفلسفتها وتجارها وحكمتها و... بعض الأجوبة على أسئلتها الكبرى. ويمكننا أن نتعلم منها اليوم ونأخذ العبر. <sup>(50)</sup>

## هَلمْ بحريّة.. سيرينات

مفردها سيرينا وهي جنّة البحر، لها رأس أنثى بشرية بديعة الجمال وجسم طير. وفي أسطورة يونانية أخرى جاء أنّ للسيرينا شكلاً آخر، رأس أنثى فائقة الجمال وشعر طويل طويل يزيد جمالاً على جمال ونوراً على نور وعينان بلون البحر وجسم سمكة وهي حورية البحر.

وفي الأسطورتين تغوي السيرينات البحارة بصوتهن الجميل وتخطف ألباهم فينجذبون ويهوون إلى حالة عشقية جارفة تشل الإرادة، فتقودهم إلى حيث يكون إمّا بحر الظلمات والهلاك أو إلى شاطئ الأمان. فإذا كان الهلاك تكون هذه جنيات متعطشات للدماء في خانة الشياطين البحريّة، وإذا كان شاطئ الأمان فهن من نوع الملائكة.. وهنّ بذلك يشكلن وجهي عشتار العابس والضاحك أو وجهي الأم الكبرى الشيطانيّ والرحمانيّ. هذا هو الشاعر هوميروس الإغريقيّ الأعمى يصور السيرينات في ملحمة الأوديسة. تقول الأسطورة أنّ أوديسيوس سدّ أذان بحارته بالشمع، وطلب إليهم قبل ذلك أن يقيّدوه ويشدوا وثاقه على صارية السفينة. حتى إذا دخل بحر الظلمات، وظهرت السرينات، وبدأت تصفر وتغني أعذب الغناء فلا هو يستطيع اللحاق بهن ولا البحارة يسمعون... بهذه الطريقة نجا أوديسيوس وبحارته، حيث لا أحد ينقاد رغماً عنه... فينجو... لا أحد يضمن الموت ولا أحد يضمن الحياة.

قالت لي في هذا الجو الأسطوري: أنتَ محظوظ لأنك عرفتَها.

قلت: من؟

قالت: السيرينات الساحرات.

ثمّ نظرت إليّ نظرة ثاقبة عميقة عمق البحر أرادت بها أن تسبر أغواري.

قلت: ما أجهلني، فكلمّا عرفتُ أكثر، اكتشفت كم كنتُ جاهلاً.

كنت أبحث عن السعادة، وإذا بها شبح شكسيري كلما اقتربت منه ابتعد، فأبقى  
أسيرَه، وأسير خلفه حيثاً مهرولاً راکضاً خلفه إلى الأبد.. وإذا بالسعادة تماماً كالمعرفة كلما  
نهلتُ منها عطشتُ أكثر، وإذا بها مثل الحبّ أيضاً.. ذلك العطش الأبدي مثل الحلاج  
والشاعر المعاصر ياناراس...



## سيريناد

و... كنا على متن سفينة.. هكذا هو اسمها- سيريناد. هي أشبه بعمارة كبيرة ذات ثمانية طوابق. يبلغ ارتفاعها من على سطح الماء علو ستة أدوار، لأن طابقين منها تحت الماء. تبين بعد السؤال أنها تقوم على عمق الحد الأدنى، حوالي 36 متراً.. هذا العمق يجب أن يكون ضعفي ارتفاعها من على سطح الماء، بحسب القوانين البحرية.

السيريناد أشبه بحارة يبلغ عدد سكانها غير الدائمين حوال الألف إنسان. إذا مارسوا فيها الحب أو الرياضة البدنية أو الرياضية الروحية، فإنهم ليسوا بحاجة إلى الهز. فإنها هي أكبر هزاة في ذلك المحيط المائي. حتى الأكل فإنك لست بحاجة لأن تمضغه، الاهتزازات الرتيبة تقوم مقامك... تمضغ عنك وتمضغك. لست بحاجة إلى الشراب، السيريناد تشربك حتى الشالة، لست بحاجة للسكر، حدث عنه ولا حرج، فأنت بلا حاجة إليه، الدوخان اللذيذ والنشوة الاهتزازية العائمة كما السفين على سطح الزيت الرائق، تشعر أنت والسفين ومن معك كأنك في حضن الإله. عشنا خمسة أيام في هذه الأحضان المائية.. ننزل في الموانئ ونغادر الجزر ونعود إلى بحر الزيت الأخضر المزروق... لم نبرح سيريناد في مكان واحد، لم يستطع أحد أن يغادر السفينة القلعة الحي بأكمله.. على شواطئ تلك الجزيرة لا يهدأ البحر بداً.. أو هكذا خيل إلي. كان ذلك في ميناء جزيرة سندوريني.. قبل حوالي الألف وستائة عام (ق. م) ثار بركان من أعماق البحر. غار القسم الأكبر منها تحت الماء وانقلبت أعاليها سافلها أو سافلها أعاليها. لا زال اللغط مستمراً، فيقال إن حجارته وصلت إلى جزيرة كريت. ويقال أيضاً إن ما جاء في التوراة عن إحدى الضربات التي وجهها يهوا للفرعون بليلة العماء والظلام كان سببها بركان سندوريني الأسبق، قبل حوالي ثلاثة آلاف عام. هكذا قالت لي رفيقتاي إيلي ونورا.

ساندوريني جزيرة بركانية. حفر السكان- من بقي من سكانها على قيد الحياة ومن أتاها فيما بعد- بيوتهم في الجبال التي كانت جحماً وصخوراً ذائبة فأصبحت رماداً.. تكلس

ففيما بعد على مدار قرون... حفرت البيوت وشقَّت الطرقاتُ في الجبال... يعتبَر السكن في هذه البيوت القديمة بسندوريني مفتخراً ومكلفاً جداً.

حين تدقُّ عيناك في الجبال البركانية الصلدة وفي جبال ووديان الرماد ترى عظمة الطبيعة وجبروت الإنسان حين قرر أن يطوِّعها.

ذلك الإنسان الباحث عن المعرفة وعن السعادة تراه كيف يتقلص وينكمش ويتداخل في بعضه البعض حين يخاف فيتوقع! وحين لا يخاف ينطلق ويتحدى الموت، لكنه ويا للغرابة، حين يحب ويعرف ويسعد يتمدد! إذن هي المعرفة والسعادة والمحبة والخوف.

## السيرينا

إذن هي المعرفة.. المعرفة التي تبدد الخوف، لأن الإنسان عدو ما يجهل. عرفتُها.. هكذا قالت لي:.... إذا أنا محظوظ.. عرفتُها إذا أنا أحب، عرفتُها إذا أنا سعيد.. عرفتُها إذا أنا لا أخافها. ومن عبد الله عن جهل فإنما قد عصاه.

عرفتُها.. هي جنية البحر، فعرفت أن أجمل الأشياء هي التي يقترحها الجنون ويكتبها العقل بلغة تُخفي أكثر مما تكشف... ومن يكشف ظهره إنما عليه أن يسنده إلى حائط!

عرفتُها وحينئذ لا أخافها. أحببتها فلا أخافها، وكنت مثل ذلك الصوفي الذي لا يخاف الله لأنه يحبه، ونحن حين نعرفه حق المعرفة لا نخافه، نعرفه فنتماثل معه، ونتماهى فيه ونتسامى إليه نتهالك فيه. فيكون فينا ونكون فيه بالمحبة. وحدها المحبة هي التي تبدد الخوف. عندها يكون كل شيء ممكناً.. عندها لا نكون مثل الناس العاديين.. ومأساتنا أنهم لا يؤمنون أن كل شيء ممكن... وأن اكتناه الذات ممكن، ومعرفة أعماقها ممكنة. ليس بالضرورة أن تكون صوفياً حتى تشطح شطحةً روحيةً وأنت في أعماق البحار على سطح سيرنادا وتقوم برحلة مع السيرينات إلى العالم الآخر ثم تعود أكثر اكتنازاً، وقوةً وعنقواناً وقدرةً على التغيير. عرفتُهن فقلن لي: لا تفقد الأمل في التغيير، وقلن لي أيضاً: لا كتابة خارج التاريخ والجغرافيا، لا كتابة خارج الزمان والمكان، ولا كتابة خارج الذات والواقع، وعلمني أن أحلم أحلاماً ممكنة التحقيق.. وأن الدافع الحُلُمي والقلق الإنساني الوجودي والتوتر الداخلي هما الأساس لكل كتابة إبداعية.



## حياة يسوع بين هيجل وتوبنر وكلائنتزاكس

كتب هيجل كتابه هذا عندما كان شاباً<sup>(51)</sup>، وعندما أراد أن يكون قساً... في جميع مراحل حياته أراد أن يكون مصلحاً، وشدد على المبدأ الخُلقي. وكان "يفكر في تأسيس ديانة شعبية تقوم مقام المسيحية الوضعية التي يعتقد أنها دين سلطة وعقيدة.. كان يحلم بدين يُرضي متطلّبات العقل والعاطفة في آنٍ معاً..." (هامش 51 ص 13) في شبابه ترجم "أنتيجون". وتأثر باليونان، وتعتقد الكاتبة روسكا أنه من هنا جاءت فكرة "الديانة الشعبية". كتب هيجل حياة يسوع سنة 1795 بهدف التوفيق بين العقل والإيمان. وكان نتاج عصره أي القرن الثامن عشر، وهو عصر الأنوار والعقل والحرية والفضيلة. وقد أمده نجاح الثورة الفرنسية 1789 بفكرة تأثير العقل وقوّته وأثره في تغيير وجه الأشياء الإنسانية. فكتب حياة يسوع بعيداً عن المعجزات. قال: "وُلد يسوع في قرية بيت لحم اليهودية. وكان أبواه يوسف ومريم" (ص 48 منه) وفي موقع آخر يقول أنه وُلد في الناصرة (ص 56) حيث كانوا يسكنون معظم الوقت، ثم في كفر ناحوم. واضطروا للذهاب إلى بيت لحم، مسقط رأس يوسف، بسبب الإحصاء الذي أمر به أوغسطس قيصر. تعمّد يسوع على يوحنا المعمدان، "وكانت معموديته عملاً رمزياً يدلّ، بمشابهته عمل التنظيف من الأوساخ، على التخلّي عن طريقة العيش الفاسدة. وجاء يسوع بدوره إلى يوحنا واعتمد منه... فشهد له بأنّه لا يحتاج إلى المعمودية، ونصح الآخرين بأن يتجهوا نحو يسوع ويتعلّموا منه" (ص 49) اتبع يسوع الناموس الخُلقي "ولم يبدأ يسوع تعليمه الفعلي إلّا في الثلاثين من عمره" (ص 51). سمّي بالناصري لأنه أمضى معظم شبابه في الناصرة.. وكان يزور القدس - أور سالم، أورشليم - في الأعياد اليهودية وخاصة الفصح، وكان يقدّم نفسه كمعلّم، أغضبته ذات زيارة ممارسة البيع والشراء والصيرفة والقرايين في الهيكل، فقام بطرد الباعة من الهيكل. "التقى يسوع بكثير من الأشخاص الذين قبلوا

تعليمه. وأدرك تمام الإدراك تمسك اليهود بأوهامهم القومية المتجذرة، وقلة إدراكهم للأمور السامية" (ص 52) فلم يأمل إصلاح اليهودية من الداخل. وفي حوار مع نيقوديموس، أحد الأحبار اليهود، معلّم الشعب، تظهر نزعتُه نحو دين جديد لا يغيّر الناموس إنّما يتمّمه. وأنّ الإنسان بما هو إنسان فيه الروح والجسد، والروح هي "جذوة من الكائن الإلهي" (ص 53) وإنّ العقل "لا يدين النوازع الطبيعية ولكنه يوجّهها ويشرفها" (ص 54). وإنّ الصلاح ينبع من داخل الإنسان وإنّ عليه أن ينمي بذرة الخير في داخله. فالخير يقرب الإنسان من ملكوت الله. لقد فهم هيجل حياة يسوع الإنسان، وفهم الدين وخاصة المسيحية فهمًا عمليًا.. لذلك ابتعد عن الخرافة والأسطورة والمعجزات. فقال على لسان يسوع ما كان يفكر به هو، تعبيرًا عن قلقه الوجودي وتوتره الروحي. قال: "لم يكن قصدي أن أحصل على المجد بواسطة أمور فردية وخارقة، بل أن أعيد الاحترام المفقود للإنسانية التي أضاعت اعتبارها. موضوع فخري هو الخصائص الكلية للكائنات التي وهبت العقل، وتنظيم الفضيلة المعطاة للجميع!" (ص 123).

## كولم تويبنز (52)

لم يكن هيجل لا الأول ولا الأخير الذي يتحدث عن العطاء من باب العقل. فهذا كولم تويبن الإسكوتلاندي المعاصر يحدثنا عن مريم، والدة يسوع، في كتابه "شهادة ميري" كأم طبيعية، وكامرأة عجوز مجربة، تبحث عن الحقيقة وفهم الأحداث التي تكون منها العهد الجديد. هي تعيش في أفسوس القديمة بعد أن مرت سنوات على صلب ابنها غير الوحيد يسوع. يعتني بها الحواريون (تلامذة المسيح)، حيث لم تكن لها مصلحة معهم، لأنها تعتقد أن ابنها هذا لم يكن ابن الله، ولم يكن موته على الصليب مجدياً وهو لا يستحق تلك الميتة. وأن أياً من هؤلاء التعساء الذين التّموا حوله، لا يستطيع الواحد منهم أن ينظر في وجه امرأة في عينيها. وأن مريم هذه لم تبق عند أسفل الصليب حتى مات ابنها، إنما هربت لكي تنقذ نفسها. فهي بطلة تراجيدية توازي ألكترا أو ميديا أو أنتيغوني كما يصورها تويبن. هي امرأة سُلطوية، خشنة، عدوانية، عنيدة، تفعل ما تقول، خاصة عندما يتعلق ذلك بخصوصياتها. تقول لنا: إن ماريوس من قانا الجليل لم يكن ابن عمي، كان يناديني هكذا لأن أمهاتنا ولدتنا في ليلة واحدة وفي دور متجاورة. وكبرنا معاً حتى الجيل الذي كان علينا فيه أن نفرق. وهو عندما أتى إلى الناصرة من القدس أورشليم، كنت وحدي. كان له مزيج من الخجل والثبات، وقابلية لأن يوافق مع كل إنسان وألا يكون له رأي ذاتي. هي تشك في قصة المسيح عن شفاء الأعرج وحكاية الميت لازاروس (العازار)، وكذلك في أعجوبة عرس قانا وتحويل الماء إلى خمر، كانوا جميعاً سكرانين وكان ما يشبه الفوضى والهرج... قالت لابنها على التو: أنت في خطر وسحبته معها إلى الناصرة. وكان الجو ماطرًا. وفي الناصرة، عندما اشتد الخناق على ابنها هرب مع أصحابه - تلاميذه إلى كفر ناحوم. اشتدت العاصفة في بحر الجليل، قال الجيران إنه مشى على الماء، لكنه في الواقع مشى على اليابسة التي خيلت لهم ماء بفعل العاصفة وضوء القمر. قالوا إنه سيطر على العاصفة وجعلها تهدأ، وهنالك من قال إنه سيطر على الريح. تقول مريم إنها لم تفكر بهذا ولم تعره انتباهاً. مريم هذه أم طبيعية، من لحم ودم ومشاعر، هي دائمة القلق على ابنها

المشرد، الذي تدور حوله الإشاعات والأقاويل الغرائبية، ازداد خوفها وقلقها عليه عندما عاد وتشرد في الجبال. قال لها ماركوس: إنه سوف يُصلب! قالت: متى؟ قال: بعد وقت قصير تعرف السلطات أين هو! سيلقون القبض عليه وعلى أتباعه. قالت: لست من أتباعه. قال: عليكِ بالهرب إلى أورشليم، وسأجد لك مكانًا بالقرب من مكان ابنك. في ذلك الوقت كانت النساء تتحدث مثل الرجال عن الاضطهاد الروماني وعن الضرائب وعن ضيق العيش... في أوقات الضيق يشيع الحديث عن العجائب والمعجزات والغرائب التي لا يقبلها العقل. ساهم التلاميذ في نشر الإشاعات الغرائبية التي كان يصنعها المسيح في مخيلاتهم. عندما وصلت مريم إلى أورشليم كان ابنها قد أودع السجن. وكأم كانت في حالة يرثى لها، خصوصًا بعدما تم رفض فدائه باللص براباس، حين طالب الجمع المتعطش لدم المسيح بإخلاء سبيل براباس... "لا خلاص" قال لها مرقس! كانت تتوقع أن ينقذه تلاميذه، وخاصةً الأشداء منهم، الزيلوت المتمردون على الرومان. وهنا يصف الكاتب طريق الآلام وإكليل الشوك وحمل الصليب... ولنلاحظ أنه يستعمل كلمة الجمهور بدلًا من اليهود! ويصف مريم أنها امرأة جبّارة وهي تنظر إلى المسيح المصلوب وإلى تثبيت المسامير بأطرافه على يد العمالّ الغجر. تقول: لم يمت بعد، سأنتظر حتى يموت. يغادرها الألم وكأنّه ألمه هو فقط وليس ألمها أيضًا. لا نعرف من هوى الكتابة، أهى كانت تحلم أم أنّ ذلك كان حقيقة! نعلم من الكتاب أنّه كانت لمريم ابنة متزوجة وابن آخر. يقول الكاتب إنّها حلمت هي وماري أخت العازار حُلماً مزدوجاً في ذات الليلة، أنّ المسيح سوف يقوم.. كان في بئر، سحبناه من الماء وكان جسده غضاً ناعماً يشعّ منه الجمال، فتح عينيه، حرّك يديه وذراعيه وأنّ أنيناً خفيفاً، كانت علامات الصلب على جسده، رفعناه بصمت وكان يبدو حيّاً. أفاقتا وكأنّ شيئاً لم يكن، سمع الحراس منهما عن الحلم المشترك. يُعلمنا الكاتب أنّ والد يسوع يوسف النجار كان قد مات قبل صلبه. وأنّ والدته عندما سمعت من التلاميذ أنّه مات لكي يخلص العالم، وأنّها حملت به من الروح القدس... ابتسمت!



## كازانتراكس (53)

كذلك يعتقد الكاتب اليوناني نيكوس كازانتراكس أنَّ المسيح ابن إنسان بشريّ، وولد في الناصرة لمريم ويوسف النجار. وكان له أخ يُدعى يعقوب، وأنَّ ميلاده العذريّ كان من خيال متّى، كذلك ميلاده في بيت لحم، في زريبة بحسب روايات العهد القديم الخرافيّة. ومن باستطاعته تكذيب النبوءات التوراتية؟<sup>(54)</sup> وبحسب كازانتراكس أحبَّ يسوع مريم المجدليّة وعاشرها كما تزوّج من مرتا ومريم أختي العازار كما جرت العادة في ذلك الزمان، وأنَّ مصدر قضيّة الميلاد العذري هو نبوءة أشعيا، التي اعتمدت على أساطير الإغريق وأسطورة سيبيل الأم الكبرى في آسيا الصغرى. وقد سبق واستفضتُ في هذا... ولنعد إلى واقع اليوم!



## سوق القحاب

بعد مرور أكثر من سنة، أحاول أن أستعيد التجربة، هذه التجربة التي لم أستعد لها لا نفسياً ولا جسدياً.

وكان من عادة الإنسان القديم.. الموغل في القدم أن يستعد وينتهي للتجربة الروحية. فكان يغتسل ويتطهر ويتطيب أو يتحنّث ويتأثّم ويتزهد، فيلجأ إلى الاعتزال ولا يأكل إلّا ما يسد به حاجته من الطعام الخفيف على المعدة.. وكان من عادته أيضاً أن ينام في المعابد أو المغر أو الغار الواقع في قُلة (قُنة) الجبل حتى يتقرب إلى العالم العلوي بأقرب ما يكون من السماء. عند برزخ العوالم العلوية تنقشع الرؤية بالبصر ويفيض النور لتكون الرؤيا بالبصيرة عند القلة القليلة من البشر والتي قد تصل حدّ الوحي والنبوءة لدى الأقل من هذه القلة.

أما أنا ففي هذه المرة لم أستعد، وحتى إنني لم أكن مؤهلاً للتجربة. فقد وقعت على وقوع الصاعقة، فلم أتجاوز حدّ الرؤية.. بالكاد الرؤية الحقيقية.

سأل صالح - وكنا مجموعة من الزملاء:

- هل سمعتم عن سوق القحاب هنا في تونس؟

ولفظ "سوق القحاب" باللهجة المحكية في تلك البلاد. لكي يبدو أنّه نقلها إلينا من الأصل بدون رتوش ولا تحنّف.

قلت: نعم، لكن بشكل عام.. وكنت قد رأيتهن معروضات في فاترينات الدانمارك وهولندا والسويد.. ولا أذكر تماماً.

قال: أقصد على طبيعة البلاد العربية.. فهناك.. الشيء طبعي أمّا هنا!! فللهنا نكهة خاصّة.

قلت مقاطعًا: أينما يكون الإنسان.. الطبيعة في جوهرها لا تختلف.. الإنسان هو الإنسان في كل زمان ومكان.

قال: لنذهب ونَرَ!

فقال شيخنا حنّا أبو حنّا: العلم بالشيء خيرٌ من الجهل به؟

قلنا: على بركة الله...

وقمنا فيمّمنا وجوهنا شطر السوق. وكان عددنا أكثر من حمولة سيارة سيرفيس.. فانفصلنا إلى سيارتين وافترقنا على أن نلتقي عند أقدام "قوس النصر" في تلك الساحة التي لا أذكر اسمها الآن، يبدو القوس كبوابة كبيرة كانت لها جدران فيما مضى، وتفضي إلى ساحة البلدة القديمة. في وسطها ما يشبه "البحرة" بلهجة أهل الشام، وفي مركزها ما يشبه السارية التي يتدفّق منها الماء، ولولا زخرفتها لقلتُ إنّ الدفق من أول الدنيا.. فقد ذكرتني بالعضو الذكري وعبادة الفالوس.

في قديم الزمان كان الناس يتعبدون للسواري والنُصب، فهي تذكّرهم باللاوعي بدفق الحياة وبانتصارات الذكورة على الأنوثة والأمومة في الأزمان الغابرة.

لقد سحبتني هذه النافورة إلى تلك الأزمان. وبعثت فيّ وعيًا لما مضى ولما هو قائم اليوم من عبادات الخفاء.

وصلت مع حنا. اتجهنا بالغريزة نحو اليمين كما الطير السانح. أشار عليّ أن نسأل الشرطي الواقف عن مفترق طريقين.. إلى أيّة نتجه حتى نصل إلى سوق القحاب.

كان عليّ أنا أن أسأل لكوني أصغر منه سنًا. أشعر أنه أخي الكبير، فأذعنت، ربما بسبب صداقته لأخي غير الشقيق منذر. فقد كان والدي، رحمه الله، أبا العلات، أي أنّه كان له أبناء من عدة نساء لم يجمع بين اثنتين منهن بتاتًا. أشرفت وقتها أنا على الستين وأشرف حنا على الخامسة والسبعين. قلت إنّ كان أخي الذي لم تلده أُمّي ولا بذرة أبي، أو هكذا أشعر. ربما لأنه لا يزال يعاملني هكذا.. فأنا ما زلت بالنسبة إليه ذلك الولد الشقي ابن الخامسة بشعره الأشقر المفلفل وظلّه الخفيف.. على حدّ قوله.

سألت الشرطي: أَمِنْ هذه الطريق سوق القحاب أم من تلك؟  
نظر إليّ.. دقق فيّ أولاً ثم في كِلِينَا كأنه لم يصدّق ما يسمع. ربما لم يفهم لهجتي  
الفلسطينية النصراوية/ الشامية.

قلت: المومسات.

فاتسعت حدقُهُ عينيهِ! خُيِّلَ إليّ أَنَّهُ لم يفهم. أكدت له مرة ثالثة: القحاب، المومسات،  
العاهرات، الشراميط، بائعات الهوى...

أكدت لي نظراته أَنَّهُ فهم، لكنه لا يريد أن يصدق أن رجلين مثلنا يمكن أن يفكرا بهكذا  
موضوع. ابتسمتُ ثم ضحكت، ثُمَّ فقهته حتى أهدئ من روعه وحيرته. ربما لكي  
أطمئنه أو أحاول إقناعه أَنَّهُ ممكن أو أن لنا في ذلك مآرب أخرى..

ولم يكن وضعنا سهلاً. لا عليه ولا علينا. قلت لحنّا: لست أدري ماذا سيكون لو كنت  
أنت السائل؟

قال: تأدب يا فتى.. اخجل من شبيبي... لكن ما علينا، لا فرق.. فنحن في الهواء سواء،  
وإنّ فارق خمس عشرة سنة في عمر الشعوب لا شيء يا رفيق!

ثم قرصني ببيت شعر، لا أذكر منه سوى لذعته ومعناه، "يا ما في الحبس مظالم" ثم  
تابع حديثه عن ذلك الشرطي المسكين الذي تصور أنّنا من رواد ذوات الرايات الحمراء..  
واحترت فيمن هو المسكين أهو أم نحن!

قال: ما علينا.

وتابعنا سيرنا وكنا في السرى أي في أول الليل. وهو يشرح لي الفرق بين السرى  
والإسراء الذي هو في آخر الليل. ويفيدني أفاده الله، عن النساء في عهد الجاهلية وكيف  
كانت المرأة، إذا أرادت رجلاً، وضعت له في شق الخيمة راية حمراء. وكيف غدت هذه  
العلامة إشارة إلى البغاء في الجاهلية. وكان حنا وما زال عاشقاً للغة العربية.. حافظاً  
للطُرف والنوادر من فوق ومن تحت الزنار. وتابعنا، عرجنا واستويننا كما أشار ذلك  
الشرطي مشدوهاً معقود اللسان. مشيناها خطى كتبت علينا؟ لا، مشيناها خطى سريعة

مقاربة مع قليل من الوثب المتعمد. كان حنا يمشي وزوزة، ويتقافز كابن العشرين، ولو أنني نظرتُ إلينا عن بعد لفَطَسْتُ من الضحك.

كان الواحد منا ينظر إلى وجه الآخر تارة ثم إلى وجه الطريق تارةً أخرى. ذلك الطريق الذي أخذ يضيق ويتحول من نهج وزنقة إلى زقاق وخنقة ودهليز.

وكان صالحٌ وبقية الزمرة يقفون على البلاط في أول الزقاق. والبلاط من صوان مربع يميل أحيانا إلى الاستطالة، ولا يتسع لأكثر من ثلاثة رواد. كنا نتقافز كأبناء العشرين. منظرنا غير مألوف. أهو الاغتراب عن أنفسنا؟ كنا نشعر بالأصابع تشير نحونا. وكل الناس تنظر إلينا على الرغم من أن واقع الأمر ملفوفٌ بعدم الاكتراث. فما من أحد يأبه بنا.. غير ذلك الصوت الأثوي القادم من ناحية اليسار.. من القاع: Welcome! وشدّدت على اللام الإنجليزية، هي امرأة نَصَف تقف عند مدخل الماخور. سمراء البشرة تضرب إلى الخضرة ترتدي ولا تلبس فستانا ترقوازيًا يكشف أكثر مما يخفي. يُطرقع اللبان في فمها بشبق مصطنع، بدلال وتأؤد. والنور القادم من الداخل يتكسر على فخذيها وعممة المساء تُغري.

وهي تستعيض عن القحاب (السعال) بالطَّرْقة.. طرقة العلكة.

أشرت إليها بحركة من يدي اليمنى كأننا عائدون،

وقلت: سلام!

فقلت: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. تفضلوا!

قلت: مازحًا: بالأفراح إن شاء الله!

وما عادت تقول Welcome بتاتا في حضرتنا.

وكان حنا قد غدَّ السير أكثر منا فتبعناه وكل ينظر نحو اليمين ونحو الشمال. فهذه في العشرين وتلك في السابعة عشرة وأخرى في الثلاثين عارية إلا من ملابسها الحميمة، تقف بغنج عند مدخل دار عتيقة... المدخل بدون باب. لا حاجة للأبواب. لا يسع الداخل إلا أن ينحني، ربما إجلالا للمحاريب أو رهبة لولوجه في ديار أول مهنة في تاريخ البشرية.

الشابة بضّة ممشوقة القد وضيئة الحدّ حتى بدون تلك الطبقة من المساحيق. وهي في الواقع لم تكن بحاجة إليها، لكن قاتل الله الثقة بالنفس. فكيف تجابه الدنيا وصروف الدهر بدونها؟ وهي الغانية، الحسنة التي بإمكانها وإمكانياتها الطبيعية أن تستغني عن الحلّي والبهرجة.

يلكنني أجدنا.. أنظر إلى الناحية الأخرى فأرى أنثى في الداخل، عبلةً وطباءً في غير سرّد وانكسار، تدلق ثديها الأيسر وتغطي الأيمن بشال أسود. والضدّ يكشف حسنه الضدّ، فيزيد السواد البياض شدّة ووضاحة وملاحة. أكتشف لوهلة أن قحاب تونس أشرف من "الإخوان المجرمين".

قيل: تموت الحرة ولا تأكل بثدييها. هراء! لا زالت الناحية الجمالية لذلك المشهد ماثلة أمامي، حتى الآن وبعد مرور أكثر من عشرين سنة. لا أدري إن كان ذلك جرّاء الفجاءة أم لأنّ الثدي نقطة ضعفي، لما فيه من براءة وقدسيّة حتى عند قحبة.. ولما فيه من خصب وعطاء وملمس وحياة وحياء وذكاء أبيض من وضح الصبح. كذلك هو منذ أمنا حواء. ومنذ الأم الكبرى تياميت أو تُعامّة ومنذ عشتار أو غانيات المعبد وفتيات البهجة والبغايا المقدسات.

حقاً إنّ الإدراك نسبي وإنّ الفضيلة كما الرذيلة نسبية، تختلف من عهد إلى عهد. فعلى طول التاريخ وعرضه يبقى الإنسان يصنع الحضارات في ليله وفجره وفجوره وقداسته وذنسه. يبقى الإنسان هو الفاعل والمفعول، الجاعل والمجعول حتى لو كان أصغر من ذرّة رمل وتناهى في الصغر بالنسبة لهذا الكون وباقي الأكوان. يبقى الحكيم أيضاً كما جاء في كتاب التاوتي تشينغ، "لا يتدخل في مسار الأشياء، ويُعلّم بدون كلمات". والحكيم فقط الذي يدرك كم هو جاهل.

أدرك الآن وأنا في قلب سوق البغايا، كم جميل أن نتعامل معه بجديّة. أدرك كمّ العائلات التي تعيش من كدح العاملات في هذه المهنة. عائلاتهن وعائلات الغير، كالشرطي الذي لمحناه أولاً في بداية الطريق والشرطي الآخر في أول الدهليز وهو بلباسه المدني يهاتف ذوي الأمر بجهاز اللاسلكي، والقوّاد والبترونة يحاسبانهن على ثمن

البضع. هو في الخارج وهي في داخل الماخور تجلس جلسة سُلطوية وأمامها طاولة صغيرة عليها فناجين القهوة وأقداح الشاي، وذلك الطبيب الذي يقوم بفحصهن أسبوعياً، يحرص على نظافة الفروج، والصحة العامة، والنظافة من الإيوان، ويقوم بتزويدهن بالأدوات الصحية والطرايش الواقية شهرياً.. بالكرتون كما قالت لنا إحداهن. كم من الموظفين والكتبة والإضرابات في دائرة الصحة وكم من المسؤولين والمسؤولات عن هذا الفرع الاقتصادي بشكل مباشر وغير مباشر، سواء كان ذلك في الدول النامية أو في تلك التي نمت منذ عهد بعيد كالدول الاسكندنافية في شمال الكرة الأرضية. أتساءل: أليس هذا أفضل من دعارة السوق السوداء؟ أو من تجارة الرقيق الأبيض؟ أو من سوق سبایا داعش الحلال في سوريا والعراق؟ وبعد، فمثل هذا السوق كمثل باقي الأسواق لا يخلو من الباعة المتجولين الأبرياء. وكانت عربة تقف وسط الزقاق.. كدّس عليها البائع أكوام الصبّار وفتافيت الثلج.

تعالوا نأكل صبراً- قلت لأفراد المجموعة. فتعزّزوا، فتابعت محاولاً إغراءهم: على حسابي، ولكي تصبروا على هذه المحنة التي أوقعكم فيها الملعون صالح. تمنّعوا وهم راغبون.. فأردفت: أم أنّكم تخافون أن يصيبكم ما أصاب الواوي الذي بلع منجلاً؟!

وكانت روعي قد عصمت ونفسي قد احتقنت كأنها قد أكلت كل ما على العربة المزركشة من ثمار التين الشوكي. فأردت أن أفرّج عنها. فتضاحكنا.. وإذا بصوت أنثوي يشاركنا الضحك. التفّت نحوها فإذا بها إحداهنّ.

قلت: هل فهمتِ.

قالت: نعم نعم برّشا (تقصد كثيراً) أي والله بالمنجل بالمنجل..

وظلّت ترددها حتى فطسنا من الضحك! نحن وبائع الصبر والقوّادون والبلغايا.

ساد المرحُ هذا الجو المشحون الشائك. كما أكواز الصبر كان الموقف. والبائع البريء يقشر لنا ونحن نستزيد حتى قال أحدها وهو يتلمّظ.. كفى!



فما علينا إلا أن ننظر إلى شرّ العاقبة.. وعدنا من حيث أتينا. فإذ بمن صادفتنا في أول الزقاق تنتظر، كم هي حكيمة، لأنها تعرف أن الأول يكون أخيراً والأخير يكون أولاً.  
قلت في نفسي وهل في عملهن لذة.. يبدو أنني تكلمت، فجاء صوت حنا يخرق طبلة أذني هامساً: سلها.

قلت: ماذا؟ كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ والماء فوق ظهورها محمول..  
قال: عما حدثت به نفسك. فماذا يفيدك علم النفس والفلسفة والقانون إذا لم تخضعها للتجربة العملية؟ ألسنت أنت القائل أنك تنتمي لمدرسة الجاحظ؟ أمّا وقد ضاعت رسالته في القحاب فأعدّ نفسك لبديلها.

تقدمت منها بعد أن استجمعت قواي.. فتشت عن الكلمات، ثم انهالت الأسئلة..  
قالت: أنتم سوريون؟

قلنا: أجل، وفلسطينيون نعيش داخل "دولة إسرائيل"، نحن من برّ الشام.  
قالت متحبة: أنتم من فلسطين.. يا هلا يا هلا يا أهلاً ويا سهلاً!

(زها وجهها الأخضر وشعّ النور من عينيها السوداويتين، وإذ بهذه الجملة التي اعتقدنا أنها غير مفيدة تعمل كالسحر) أجيبكم فقط لأنكم من فلسطين.. نحن نجبكم برشا..  
ونحب كل المناضلين.. كان الله في عونكم.

أمّا أنا فدمعت عيني، وهي تابعت الإجابات بلهجة تونسية محبّة ودخلت في أدق التفاصيل. كانت فرحة وحزينة في الوقت ذاته كمن ترقص في مناحة.. حتى قالت: كفى! بإشارة يديها وبكفيها وبأصابعها العشرة.

غادرنا صامتين تفكر فيما فعل اسم فلسطين.. ونلوك ذاتنا ونسبح، كل واحد منا في عالمه الخاص. أمّا عوالم الآخرين فلا أعرفها وأمّا عالمي الذي سرحت فيه، فقد كان من عالم المبدع اليوناني أرسطوفانس.. في مسرحية ليزيستراتا. وسرحت أيضاً بتضامن بغايا أثينا مع ليزيستراتا ورفيقاتها. فلولا ذلك التضامن لما نجح الإضراب، ولما تخلى القادة

السياسيون والعسكريون عن الصولجان وطيلسان الأرجوان. ولما بقي ذكر ليزيسترانا على  
لساننا نلهج به حتى الآن.. في آخر أيام سنة 2002 الميلادية وحتى الآن وفي كل أوان.  
حقاً.. اختلط عليّ الأمر.

هل هو دنس بلا حمل أم حمل بلا دنس؟

نعم اختلط عليّ الأمر.. وكانت الصاعقة.. عندما أردت نقدتها ببعض الدنانير التونسية  
مقابل الوقت الذي أضاعته معنا.. رفضت بكبرياء.  
قتلتني بكبريائها!

## نساء ما بين الناصرة وبغداد

قلت لها: إنني حزين ومضطرب بسبب موتها، على الرغم من أنني لم أحدثها منذ خمس عشرة سنة.

قالت لي من وراء غلالة الموت البيضاء:

ومن مثلاً لم يموت جسداً؟ اكتب عني! اقتلني على الورق! ربما ترتاح.

قلت: قتلتك منذ فترة.. وها أنت اليوم تعودين كعنفاء الرماد. كنت أقتل وأقتل وأقتل ببشاعة القتل المعنوي الذي هو أقسى وأشرس من القتل الفعلي، لم يفدني ذلك.. ربما كان من أجل فقط ديكورات الحياة والعلاقات بين الناس وسطوة المجتمع وانتحار الروح.

قالت: إذاً لماذا كل هذا الحزن العميق ما دمت قد فعلت ذلك؟ وأنا في الوقت ذاته معك روحاً.

قلت: مجرد تمثيل حقيقي على مسرح الحياة.. أقف أمام القدر، وأحاول تغيير مجراه. مجرد محاولة، لقلب الحب إلى كراهية كما يحدث لمعظم الناس. لا يسعفني ذلك، ربما لأن الروح خالدة والانتحار غير وارد.

لكن ربما يظهر الشيء على حقيقته بعد الموت، فالموت يكشف ويعرّي الإنسان من كل ثيابه ويساوي ما بين الناس.

لم أستطع الكتابة عنك أثناء الحياة، فهل سأستطيع بعد الموت؟ الموت كشف حقيقة شعوري وأرجعني إلى قواعد غير سالم. ما فتئ فعل الكتابة فعل الحياة يشهد ان الكاتب/ة كاملة الحضور. فأنا أكتب معناه أنني موجود وأنني أفكر!

يقال عاد إلى قواعده سالماً.. وأنا كيف لي ذلك؟ وقد بُرت العلاقة فيما بيننا ولم تتسام.. علاقة من رصاص كانت وأتى للرصاص أن يتسامى وهو بكل تلك الكثافة والثقل؟

منذ أكثر من ستين سنة وأنا معلق بقنديل ثدييك. ثدياك اللذان أضاءا لي طريق المعرفة منذ كنت طفلاً. أمتصُّ منهما رحيق الهداية وشذا وَصُوع الياسمين. والتجربة العنقودية. أتدريين يا روح الروح بعودة الغائب عن أرض الوطن الذي تلقَّه الحبيبة من كلِّ الجهات؟

أتدريين بعودة الإنسان إلى المياه البدئية حيث تكوّن؟ أتدريين كيف يكون شعور القشّة التي يتشبّث بها الغريق في أمواج البحر المتلاطمة؟  
قطعان من التيتان التي تأكل الأخضر واليابس. لكن حين ترضعيني رضاعة الكبير يهدأ بحري. أَرْضِعْ وأتحمّس شامة الروح على عنقك.  
أتدريين ما تعتقده القشّة بعدم جدواها؟ وبرغم ذلك لا ترفض تشبّث الغريق بها ولا تعاند. الضعيف لا يعاند!

حين يُذبح الجسد نرى مدى البشاعة الحيّة. لكن حين تُذبح الروح لا نرى مدى هذه البشاعة، إنما نكون نحن البشاعة هذه، وأنا في بشاعتي أذبح روحك كل ليلة، ثم أدرك قيمتها كعنقاء الرماد، كما سماها أجدادنا هنا أو كطائر الرعد كما سماه الهنود الحمر أجدادنا في أمريكا. كم وكم نشبههم!

هراء؟؟ لا يمكن التخلص من إلحاح الروح، ولا من ضغط الماضي، خاصة حين يتكرر، هل هذا نوع من أنواع عبادة الأسلاف؟ أرواح الأسلاف تعود دائماً إلى الأماكن التي عاشت فيها...

في كل ليلة تنتصبين أمامي، تجرفين تربتي، تقلبين كياني، وأنا أكون كمن يحرث في البحر.

كتبت لك عنك، وكنت على يقين أنّ كتابتي لن تصلك. كان ذلك قبل أن تغادر روحك الجسد بثلاث سنوات. في فترة الحرمان والهجران القسري أو الإرادي خوفاً، دِيّةً فضيحة من يظنه الناس عاقلاً، أشدّ ممن يعتبرونه جاهلاً، لذلك يقال (الدِيّةُ برقبة العاقل).  
أَيّة دِيّة أدفع الآن بعد أن غادرت الروحُ الجسدَ ولم تغادر الروح الروح. يُصبح جسدك في الجرّة المحكمة بوضعية طفل في الرحم. أمّا روحك فتزحف دون أجنحة.

تطلعين عليّ من شرفة الروح، تتقدمين مني بهدوء بدون وقع قدم. تندسّين تحت غطاء السرير.. الروح طاقة، والطاقة لا تفنى، إنّما تتغيّر بالشكل، تتحول روحك إلى أشياء حسية.. ألمس كوز العسل.. أتنفّسه، أسمع صوت الشيد: "صوت حبيبي هو ذا مقبل، وهو يطفر على الجبال ويقفز على التلال... إنّني نائمة وقلبي مستيقظ، إذا بصوت حبيبي قارعاً، أن افتحي لي يا أختي! يا خليلتي! يا حمامتي، يا كاملتي، فإنّ رأسي قد امتلأ من الندى، وغدائري من قطار الليل.

قد نزعْتُ قميصي فكيف ألبسه...

حبيبي أبيض وأشقر، علمٌ بين ربوة...

شفتاك ونطقك عذب. ثدياك كحشفتيّ طبية، توأمان يريغان السوسن. قامتك مثل نخلة وثدياك مثل العناقيد... و... كما قال شاعر ما بين الرينه وحيفا في مزموره: تعجز جوقات كل الكناري وأسراب كل البلابل عن مثل مزمور شهقة شهوة.

أحاول استحضر لمى شفتيك وطريقتك الممتازة في الكلام وصوتك المخملي المنسوج بخيوط من حرير أزرق. أدرك تأثير أسلوب ألف ليلة وليلة على مجرى خيالك ولغتك:

"بلغني أيها الملك السعيد، ذو الرأي الرشيد، أنّ الفتى مهران عندما رأى ابنة ملك الجان... "ألخ.

ربما كانت هذه الحكايات التي كنا نستمع إليها من راديو القاهرة قبل أكثر من ستين عاماً هي ما كان لها أكبر الأثر عليّ... تلك الحكايات التي عمّرت دهوراً، وما زالت تُقيت خيال الشعراء والأدباء والفنانين والمبدعين كافة.. وتلك الأساطير.. آه يا أسطورتني أنا الشخصية.

أذكر تلك الشتائم على من اخترع المذياع، عندما كان يُجرّن الجهاز فلا يعود صوته، إلّا بعد لطمه على بيته الخشبي العتيق. كنت أدق على الخشب فتقولين: تفضل! فيعود مهران إلى حبيبته ابنة الجان... تلطمني الآن روحك على قسوتي التي كان لا بدّ منها. تصفّعني كلما أحرن القلم وجفّت روحي واضطربت أحاسيسي.

قالت: اقتلني حبراً.. ادفني في أوراقك الخاصة فأنا بردانة". القبر فطيع.. الوحدة قاتلة.

وخرجت كما دخلت من تلك الشرفة. لم يك لك جناحان. لا جناح للروح، ولا جناح عليها إن دخلت وإن خرجت عاريةً من تلك الطاقة.. هي طيف من رماد وضباب وخليط من نار ونور وغبش.

سمعتك تستغيثين لأن روحك لم تكُ لا في الجنة ولا في النار. هي في منطقة محايدة. اعتقد اليونانيون أن دفن الجثة واجب ديني، والجثة التي لا تُدفن بحسب الأصول والطقوس، تظل روحها هائمة في المنطقة المحايدة.. ما أصعب حياد الروح! لا حيدة حتى في جهنم ولا في الجنة!

الروح لا تحب المناطق المحايدة!!!

قالت: ادفن روحي! لا يكفي أن تدفن جسدي، كفنها بأوراقك! ادفنها في قبر من الحبر. الأرواح تجيد العوم في بحور النص.

قلت: بحر اليتم.. يتم الثدي، ويتم الصدق والانفعال الصادق، ويتم الجهد الصادق، ويتم الوطن لا أب له ولا أم، وطن يتيم لا يلد غير أيتام ما لهم غيره أو سواه. والأرواح أفراس جامحة. روحك فرس بريّة بيضاء.. لا رسن ولا لجام ولا سرج، عُرِفها قصيدة زرقاء.

هراء.. منفاك لن يبعدي.. منفاي يقربني منك.. المنفي يحمل وطنه في جيوبه الأنفية وروح الوطن تسكنه.

هراء.. المادة لا تفنى.. تتحول من شيء إلى آخر.. فهل أنت وطني اللامتناه في الصغر؟ والذي يعيش في تجاويف الروح، أو اللامتناه في الكبر والذي يسع الكون والمجهول. هل تحوّلت إلى وطن؟ آه يا ظيبيتي!<sup>(55)</sup>

هراء.. كل شيء آيلٌ إلى العدم. لكن هذه الكلمات العادية التي تحدث في داخلي تحيلني إلى ثدي امرأة أمازونية.. نصف وطن يشد القوس ولا ينطلق رحيل السهم، وإن رحل

فإنه يرحل إلى الداخل وإلى داخل الداخل، حيث تنزلق الروح من بين الأصابع الأمازونية القويّة، فتجوع الحرّة ولا تأكل من ثدييها.. تقطعه تجتثّه ولا تأكل منه، تكويه بقضيب من النحاس المحمّي منذ نعومة أظفارها، لكي تجيد تسديد السهم.. وتحمل حملاً مقدّساً بعد كل قرء. الأمازونية تنتقي رجلها.. تلتقيه في الغابة، تُعاشره، ثم تهجره فلا تعيش معه عيشة الأزواج.

قالت متردّدة: هراء هراء هراء! وما من هراء. حافظت على عفتي برغم محاولات الجيران والعقارب والأقارب.. أما أنت فمسموح لك أن تحرث النصف الأعلى من غابتي إلى حدّ الشهقة.

كل ما كان سيكون.. منذ الإبرة الأولى المصنوعة من عظم الحيوان والمسنونة باحتكاك الإبداع الإنساني، والحاجة التي هي أم الاختراع، وعاطفة الأنوثة التي هي أم الاكتشافات! منذ الشهقة الأولى.

منذ، وما قبل نار برومثيوس حتى الإبرة الفولاذية والإنسان الآلي واكتشاف الخلية الأولى، ما زلت أحيك لك ذلك الرداء، وملاية السرير السوداء الموشاة بسنابل القمح الذهبية.

تقولين: أنا "نسّاجة ماري" في القرن العشرين ما قبل الميلاد، وأنا نسّاجة الناصرة في القرن العشرين ما بعد الميلاد.

الإنسان هو الإنسان يا حبيبي، والأنوثة هي الأنوثة، والمروءة هي المروءة! والإنسان منذ كان، مجبولٌ بالخوف ومهروس بالقلق، يحبّ فيغفر، ويكره فيحقد، لا تحاول القلب. فلا يأخذ من له قدرة على العطاء.

قلت: الدنيا أخذ وعطاء.

قالت: تختلف قوانين الأرض عن قوانين السماء.

قلت: لك اليوم أصلي صلاة علمانية بالكتابة عنك.

قالت: لا قوانين للصلاة عندنا.. فكل صلاة هي طقس عبادة، إيقاعات للجسد تحرك الروح. عندنا الروح هي التي تُحرّك الروح.. والروح هي التي تُحرّر الروح.

قلت: أيتها الأم الكبرى.

قالت: أنا لا أم ولا كبرى.

قلت: أيتها العذراء التي لم تثلم الولادة عذريتها.

قالت: ولدتُ ولم أنجب. فالنَّجيب لا يُنجب!

قلت: من وادي ظلّ الموت أناجيك.

قالت: لم أعش حتى أموت! متُّ حين مات شبابي...

قلت: فعلاً نَسَاجَة ماري لم تعش لذلك لم تمت، دوّنت حياتها على الرقم قبل أربعة آلاف سنة منذ مات عنها زوجها، عملت في مزارع الأفيون في شمال العراق القديم لتعيل ذاتها وابنتها؛- تلك الوردة، ثم في مزارع العنب بكركميش، لتأخذ حصّتها من النبيذ ثم في حقول الشعير، لتأخذ حصّتها من الجعة، ثم في قصر الملك "زمرى ليم" في مملكة يمحاض التي عاصمتها ماري، تخدم وتنسج القطن والكتان والأصواف.

قالت: أنا "نَسَاجَة الناصرة" إن شئت، مات عني زوجي ولما بلغت نفسي العشرين.. فصنت نفسي، كما تعلم من "نَسَاجَة ماري"، عملت كما عملت، وربّيت طفلي كما ربّيت وغادرتُ كما غادرت، وسوف أعود كما عادت!

بكفن من ورق تنسجه أنت.

رحتُ أنقُب في بطون الكتب. أطلّلت عليّ "حكايا صلصالية لنساء ميتات" للمحامية نادية العزّي.

يا الله! فعلاً نَسَاجَة ماري ظهرت الآن في الناصرة.

هي لم تمت بل عادت. محمولة في بطون الكتب آلاف الأعوام.. هي عادت.. كل غائب سيعود إن ليس بالجسد فبالروح.



إيه يا أيها العراق القديم.. ويا زيت زيتون إيبلا، ويا جعة شعير الخابور، ويا خمر أعناب  
كركميش وفسق حلبو!!!

إيه يا عطور ماري، زيت زيتون يكون أساسها، وهي تتفصّد عطراً عطراً من السرو  
والأرز (أرزأثم) والآس والريحان (أرجم) والورد والفل والياسمين الدمشقي.  
النسّاجة تنسج وتستنشق غبار الصوف والقطن والكتان، تسعل ذلك السعال الأبدي.  
وماري (معري) هي بلد الملوك والحرير والذهب والفضة واللّآزورد.. وعلى مهد النهر  
والذهب الأسود يكون معبد عشتار ومعبد داغان (دجن- داجون) ومعبد نين- حور-  
ساج (نخرساج زوجة الإله إنكي) ونينيزازا.. وشمس وسين والأم الكبرى تيامت  
(تُعّامه).

تتعاقب الآلهة.. من الإله الإله إلى الإله الإنسان والإنسان الإله. تدول الممالك،  
ويتعاقب الملوك على مملكة يمخاض وتكون ماري العاصمة ويكون زمري- ليم آخرهم  
حين قضى عليه همورابي سنة 1758 ق.م.. يموتون جميعاً وتُحرق ماري تدميراً، وتبقى  
الأرملة تعيش في الرّقم والصلصال المشوي كرغيف الخبز المحمّص.

"فحين يهاجر رجل من حياة امرأة! يحدث في روحها ما يحدث للفرات حين يُغيّر مجراه  
فإنّما أن تكون النفسُ الماء أو تكون الرمل..." كما تقول الحكايات الصلصالية.

النهر يغير مجراه وهي تغير مجرى حياتها.

الموت أمر طبيعي.. تتعامل معه استسلاماً، وتكون نسّاجة ماري مجبرة على التحدي  
وعلى تجديد الإقبال على الحياة.

هي امرأة كالسراب، والموت كما قال ابن عربي: هو انتقال من معلوم إلى مجهول.. ما أن  
تصل الروح إليه، حتى يصبح المجهول معلوماً والمعلوم حلماً وسراباً..

هي امرأة أحبّت رجلاً، وحاكت له من خلاياها طفلة. هجرها الرجل موتاً فلم تعرف  
غيره من رجال.. شريفة عفيفة مكافحة كانت.. وكانت حين يطفح الكيل تذهب متبتلة  
إلى معبد عشتار، ترهد طالبة العون على قسوة الحياة، تتبتّل أمام تماثيل العاج والصلصال  
المشوي والحجر الناري السلطاني.

مات الرجل المحارب، وبقيت الطفلة والأم الأرملة، الماتوم (آل مآتم) دوما. وحين كانت تعمل في حقول الأفيون، تشبث الطفلة بطرف رداؤها، تستنشق الطفلة غبار الأفيون، تدمن عليه، ولا معيل سواها لابنتها.

هجرها زوجها موتاً دون عقد نكاح، أصبحت أرملة دون أن تكون رسمياً أرملة. لم يتسنّ لهما الذهاب إلى المعبد ليعلن الكاهن عن الزواج ويباركه، فبقيت هي هي القادمة من المآتم دوماً.

مات زوجها دفاعاً عن قضية ليست له، وماتت هي دفاعاً عن ابنتها في قضية ليست قضيتها.

ماتت غرقاً فداءً لابنتها التي اتهمت بالسحر، والسحر جريمة أشدّ من القتل. اعتقدت أنها تجيد السباحة أما ابنتها فلا تعرف العوم.

والعادة كانت في العراق القديم أن يربط كاهن معبد "حيث" حجرًا بقدمي الظنّين (المشتبه به) ويقفز في النهر، فإن كان بريئاً عام وإن كان مذنباً ابتلعه الإله النهر.

وفي عملية التحكيم الإلهي لنهر الفرات (الأوردالي) تغرق نساجة ماري.

جاء في الرُّقم على لسان القاضي / الكاهن كاتباً للملك:

"مولاي، وحين.. أقوال المرأة لم تكن حقيقة.. وقعت المرأة داخل الإله.. وماتت ولم تثبت أقوالها.."

هكذا.. النهر سلطان، والنهر إله الرافدين. والعدالة في مناطق الأنهار خالدة لا نقاش فيها. العدالة عمياء، أحياناً يكون للهزيمة بهاءٌ أسطعُ من بهاء النصر.. خاصتنا اذا كانت الهزيمة رافعة للقيم ودافعة للمقاومة وعدم الرضوخ. أمّا المأساة فهي جميلة كأنثى الطاووس العمياء ولا أجنحة لها.

تقترب دوماً من الفرات تحايثه وتجري مع جريانه وهو يزخر، وفي جوفه الينابيع والحوامات (الدوّارات).

وهكذا أيضًا كما في العراق القديم، كذلك في إيران، وكما في إيران كذلك في الجزائر، كما في السماء كذلك على الأرض، وكما في بغداد كذلك في الناصرة.. تتشابك الناصرة مع ماري بذلك النسيج وبتلك النسّاجات.

يبقى الإنسان هو الإنسان، والمروءة هي المروءة، والحشمة هي الحشمة، ويبقى الجسد دائمًا وعاءًا للروح، وتبقى الروح هي التي تحرك الجسد وهي التي تعيش. فالإنسان يعيش بروحه وبمعنوياته، لا بجسده وحسب. يتشابه الناس بأجسادهم ويختلفون بأرواحهم سواء كان ذلك في عالم الوهم أو في عالم الواقع. كل من كان يعود وكل ما كان لا يموت، إنما يبقى يتجدد.. بالنسبة لعيون ولآذان حكايات الموسيقى، المرآة العاكسة لحياة الناس. ألم أحدثكم\كن عن "حكاية فاطمة" .. ديوان الشعر.. والشعر من أنواع الموسيقى؟ ألم أحدثكم\كن عن "فاطمة" القطعة الموسيقية لعمر خيرت؟



## مكايانته موسيقية

### (1) ريمبتيكا - العصيان الريمبتي

قلتُ في نفسي؛ الموسيقى أثنى. حيناً توتر وكثيراً ما تهدئ الأعصاب، وتبعث على الانسجام. هي أشبه بالأم الكبرى، تحضن أولادها وآلاتها من كل جنس ولون. تضمهم جميعاً.. تحنو عليهم، تقبل عثرتهم، تُربّت على أكتافهم كتفاً كتفاً، وتضيء الكون لهم. سرح فكري.. هي الأم الكبرى التي كانت قبل بداية البداية وتبقى بعد نهاية النهاية. هي في قلب الكون والعماء كما هي في كل نامة.. ففي السكون موسيقى كما في الحركة، في الكلام كما في الصمت ولكل منهما موسيقاه وإيقاعه.

يقال إنَّ الكتاب هو الهدية الوحيدة التي تفتحها أكثر من مرة... قبل سنة أهدتني إيلي رفيقة الدرب القُرصية كتاباً، كما تهدي الأم الأولى بكرها هدية وهداية، "الطريق إلى الريمبتيكا".. كتبت لي على صفحته الأولى "طريق الريمبتيكا صعب لكنه مدهش.. أوريوس Oreos". الكتابة باللغة الإنجليزية كما كانت لغة الكتاب. وهو لغيل هولست. غيل أهدته بدورها لأبيها، قالت: "لأبي الذي كان واحداً منهم". فمن هم الريمبتيكو؟

تحدث غيل عن موسيقى المسحوقين وعن أغاني الحب والحزن والحشيش والسجن وعن موسيقى الموانئ البحرية.. من بيرريوس ميناء أثينا إلى تسالونيكاً شمالاً.. عبوراً ببحر إيجه حتى البحر الأسود.. ومن استانبول (القسطنطينية) وبورصا وإزمير حتى جزيرتي متيليني (ليسبوس) شمالاً وساموس جنوباً. وعيون إزمير الترقوازية الزمردية تطل على هاتين الجزيرتين منذ ألف ألف عام. ترقب حيناً وتشارك أحياناً بذلك العداء بين تركيا واليونان مثل ديوك شرارية. قلت في نفسي متى يوحدهما الألم وقد وحد الأسى والشقاء الإنساني كل الناس!

ذلك الشقاء الذي ترجمته موسيقى هذه المنطقة منذ بداية القرن الماضي على الطلبة والدربة والطنبور والطلبل المصنوع من جلد الكلب. وعلى العود والبوزوكيو والبغلاما (عود بحجم الكف) وغيرها من الآلات الوترية، صنعت أوتارها من أمعاء الحيوان.

غريبة اهتماماتي.. قلت في نفسي: أليس كذلك؟ حقاً إنَّ الموسيقى مرآة الشعوب. هي تعكس نشأتها... كأي نوع من أنواع الفن.. تعكس بيئتها وتعبر عنها بادئ ذي بدء بشكل عفوي وطبيعي.

بدأت هذه الموسيقى كيفما اتفق، لماً واحتجاجاً، وفشةً خلق في سنوات العشرين من القرن الماضي.. ثم سطعت في سنوات السبعين، ثم أصبحت ظاهرة في الثمانينات. ودرجت أغاني الريمسيتيكا حتى خرجت من البيئة التي نشأت فيها.. تلك البيئة الاجتماعية الأقرب إلى القاع، وهذه الموسيقى غدت ظاهرة تعبر عن ثقافة القاع وترفض ما هو سائد اجتماعياً وأخلاقياً... جاءت صرخة احتجاج تاماً مثل ظاهرة البلوز في أمريكا، وظاهرة الشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم في مصر وأيمن أبو الشعر في سوريا وأحمد مطر ومظفر النواب في العراق، مع بعض التفاوت والاختلاف في أسلوب الرفض ودوافعه. ويبقى الجامع.. تعددت الأسباب والرفض واحد.. نعم إنَّ العين ستمدع والفرات سيسمع، والعراق حزين لكنه رافض.. وسوف تكون إيقاعاته أكثر حزناً ورفضاً... كما سوريا.

قبل أقل من نصف قرن كنت ترى الشاب في حي البلاك بأثينا يدخل القهوة/ المقصف/ الخمار (التايرنا)/ الكافتيريا، يُلقم "صندوق الجوك" عملة معدنية فتخرج منه الموسيقى.. ثم يبدأ بالرقص، غالباً ما يكون وحيداً فيسمى Rembetiko. الجسد يحرك الروح.. والروح إذا تحركت تكلم الجسد.. يفرد ذراعيه من أجل التوازن ثم يحاول أن يطير ويخلق، يصنع دوائر صغيرة ما تلبث أن تكبر.. يثب ويضرب الأرض بقدميه، هذه النائمة عليها أن تصحو، يحثها أن تستفيق. تبدأ الحركة بسيطة ثم ما تلبث أن تتعقد في انسجام وتحفز، بالأذرع وطرقعة الأصابع والقدمين والخصر وكل جزء من أجزاء الجسد، فلكي تصحى الأرض، عليك أنت أولاً أن تكون متيقظاً. ثم ما تلبث هذه الصحو أن تتخدر بنوع خاص من التطهر وتفرغ شحنات الغضب والاحتجاج بحركات طبيعية لا

شرقية ولا غربية أو قل نصف شرقية ونصف غربية تذكّرنا برقصة الخنجر عند حنا مينا، وبرقص الفلامنكو الإسباني والرقص العربي التركي الصوفي، ورقص البلوز بأمريكا.. لكن الريمبتيكا شيء قائم بحد ذاته.. إنه فنّ رقص طبيعي على أنغام قصّة بعيدة بسيطة وشعبية تأتي من قاع القرية أو من أطراف المدينة.. وأطراف المدن عادة تكون متمرّدة، عاصية، لُقاحية، لا تدين للسلطان ولا تصلها يد السلطان. وهي ترجمة لأسىّ يندفع نحو الخارج... يُقال إنّ العرب فيما يسمّى بالجاهليّة كانوا قومًا لُقاخًا، أي لا يدينون لسلطان! كذلك نرى المعارضة اللقاحية للحكم الوراثي لدى الأمويين والعباسيين...<sup>(56)</sup>

والريمبتيس هو رجل الريمبتيكا.. يوناني في الأصل.. أت من القاع.. فقير كادح يصرف ما في الجيب حتى يأتي ما في الغيب.. يعيش يومه.. رجل الحياة العائلية، لكن قلّمًا يتزوج، وله خليّة دائمًا. طيّب القلب هادئٌ وودودٌ لا يعتدي على أحد، ولكنه "إذا سحب خنجرًا لا يردّه إلى غمده دون أن يستعمله!" وهو رجل بكل ما لهذه الكلمة من معنى.. كريم شهم يعاقر الخمر ولا يسكر، يدخن الحشيشة، ولا يسمح لها أن تودي بعقله، وهو لا يحب الشرطة.. تدور نرجيلته على أصدقائه.. فهي خاصة ومشاع في الوقت ذاته.. يعزق ألمه الداخلي نحو الخارج بكبرياء وشمم. يحترم ذاته ويقدرها تقديرًا عاليًا. ابتداءً حياته في مهد بيربوس منذ بداية القرن العشرين ثم انتشر في جميع أقطار العالم فيما بعد حيث توجد الجاليات اليونانية. هو غير مثقف لكنه حقيقيّ وشفاف.

في أثناء حرب الاستقلال اليونانية وجراء عالم السجون اخترع الآلات الصغيرة لسهولة إخفائها وتهريبها كالطبلّة الصغيرة والبغلاما.

والإنسان اليوناني لا يستطيع أن يعيش بدون موسيقى. فكانت أغاني السجون وآلات السجون، خاصة إذا عرفنا أن أصل كلمة "ريمبتي" تركي، بمعنى الخارج على القانون أو العاصي اللّقاخي!

عندما انتهت الحرب التركية/ اليونانية سنة 1922 كان لا بد لها أن تضع أوزارها من بؤس وفقر وحرمان وآثار النفي والسجون والهجرة والتهجير وتبادل السكان وما يرافقه من التشردّ واللجوء وانعدام المأوى والبطالة والدعارة. كل هذا عنصرٌ من عناصر

الموسيقى المغموسة بألم ذي لون خاص ونكهة خاصة لا يعرفها من يعيش عيشاً رغيداً.. ولا يعبر عنها غير الذي عاشها من المهاجرين واللاجئين وكل الذين يعيشون على هامش المجتمع اليوناني. جلبوا معهم من تركيا ثقافة وتقاليد وعادات وأغاني الحشيش والتكّة والنرجيلة التركية المغمومة. كل هذه المظاهر أصبحت عادية فيما بعد ومن ثم شعبية وكثيراً ما يأخذ الهامشي مركز الصدارة.

ورويداً رويداً بدأت الخمرة تتصدر مكان النرجيلة.. لكل طبع! فالخمرة تسارع نحو العنف.. والنرجيلة وحشيشتها تحب الهدوء وقلة الحركة والاطمئنان. وكما الأدب مرآة للمجتمع كذلك الموسيقى. فجاءت أغنية الريمبتيكو لتعبر عن صميم الحياة والواقع الإنساني الحميم، الشخصي، والممتد ليشمل المحيط القريب جداً ثم الأبعد فالأبعد.. تقول الأغنية:

"منذ ذلك الوقت الذي بدأت فيه التدخين

أعاد العالم الدخان إليّ. لا أعرف ما العمل

من الشّمة انتقلتُ إلى الإبرة.

بدأ جسدي ينصهر ويذوب ويذوب

لم يبق لي شيء أعمله في هذا العالم

لأن المخدرات جرجرتني إلى الموت على قارعة الطريق".

وفعلاً وجد الشاعر المغني، بعد مدة، ميتاً في الشارع مقابل تكة / سرافيم وحانته وهو يحتضن البوزوكي، كان عمره 29 عاماً.. كما تقول هولست.

الخيظ رفيع بين العبقرية والجنون، ولا بد من التوازن، لذلك نرى الريمبتيكو يفرد ذراعيه حتى يتوازن رقصه؟

قالت لي إيلي: أن تتذوّق هذا النوع من الموسيقى عليك أن تعتاده وأن تعيشه بكل جوارحك وأحاسيسك، وأن تتطوّر معه بجميع مراحل وأطواره. لقد كانت هذه الموسيقى في الأصل ذكورية، أمّا اليوم فهي لا تقتصر على الرجال. اعتمدت في الأصل على



الارتجال- وسُميت تقسيمة- من هنا نرى أثر العرب على تركيا وأثر تركيا على اليونان- وتعتمد التقسيمة على العواطف الجياشة والإبداع الحرّ أو الارتجال، وهي عادة تسبق الأغنية وتمهّد لها.. ومقام النهوند والحجاز كار الحزينن لهما أثرٌ بالغ وطغيان على الريمبيتيكا، حيث فيهما يلتقي الشرق مع الغرب في الأسى الإنساني... وأنتَ دون أن تفقه أي كلمة يونانية تحسّ بكبرياء النغم وعنفوان التحدي والإيقاع العنيد، والإصرار على الموقف... وهو أحد صيغ الاحتجاج والتمرد. إنك ترى روح النكتة وتسمع خطو الدعابة... وتنتقل إلى عالم الروح فترى النغم وتسمع الألوان...

لذلك لم يكن غريباً أن تشارك هذه الموسيقى في الحرب الأهلية اليونانية وفي مقاومة الغزاة، انضم إليها الثوار وانضمت إليهم... فاخفت أغاني الحشيش أو كادت. لا يأس مع الحياة ولا بكاء مع المقاومة والانبعاث.

قلت: من قال إن الموسيقى ترف؟

من قال إن الخنجر للقتل؟

من قال إن علم الذرة للإبادة؟

إن أهم ما في هذه الموسيقى الشعبية هو عفوية التوازن بين المغني والراقص والعازف والآلة... ولو كان التوازن في الخنجر أو الذرة لعاش الإنسان في سلام... والموسيقى هي لغة الإنسانية جمعاء. يبقى الإنسان مبدعها وتبقى هي مبدعته مفجّرةً لطاقاته الحيوية من أصغر وأبسط آلة حتى أكبرها وأعقدها.

عندما دخلتُ الحانة (التافيرنا) برفقتها للاستمتاع بألحان الريمبيتيكا كان الكتاب... الهدية الثمينة معنا. فأخذ ينتقل من هذا المغني إلى ذلك العازف. كان الجو لطيفاً. وكانت المتعة ليست موسيقية وحسب إنّها متعة الثقافة الموسيقية، متعة الدهشة والفجاءة والتحليق نحو العوالم العلوية.

تلك العوالم المقدّسة التي نقلتني فيما بعد إلى أسرار الوجود. إلى الموسيقى التي تحرّر الإنسان ذهنًا وعاطفة، وتنقله من حالة الهمّ والغمّ والاكئاب إلى حالة التوهج العظيم، وصبوة الكمال التي تميّز الإنسان.

قالت لي: أنظر إلى كبرياء ذلك الرجل الراقص المتفرد، لاحظ عنفوانه وبساطته في مواجهة الموت. تقول الأغنية وهي منذ 1939:

"أبحث عن الموت على الرغم من أنه غريب

في جبال بنديلي.. في استراحة حلوة من ذاك النهار

التقينا أخيراً قلت له في ألم:

"اتركني أيها الموت. دعني أعش لبعض الوقت

لي زوجة وأولاد.. ولا أعرف كيف أتركهم".

راقبني... ثم تبسم كأنه يتركني

لكنه صاح بعد ذلك قائلاً "إنني لآخذك، لن أتركك"!

في لحظات.. يدخل عالم الوجد الصوفي، ينسلخ عن جسده ويحلّق في السماء السابعة. تكون كل قطعة من هذا الجسد. يكون كل عضو منه يحاور زاوية من روحه.. حيناً بالوجد وحيناً آخر بالعصيان الريمييتي.

وعندما يبلغ الإنسان مداه في إيقاعه وحواراته الإيقاعية يتجاوز حركة الجسد الظاهرة للعيان، وينفذ إلى مجال آخر غير مرئي، نحو أسرار الطبيعة الخافية وغيب الكون.

عندها يحق له أن يدخل في محراب الروح وأن يلج عالم الآلهة، أن يستوعب جسد الأم الكبرى وأن يتناغم مع حركة الطبيعة ويستوعبها في ذاته وفي حركة جسده الإنساني وإيقاعاته ولا سكونية العقل البشري.

إنّ ما يقوم به دراويش المتصوفة المسلمون والمريدون من أهل الطريقة "المولوية" المنسوبة لمولانا جلال الدين الرومي (القرن 13 - 14م) من رقص دَوْراني على إيقاع الموسيقى ليصلنا حتى الآن ومنذ 800 - 700 سنة.... وليتصل بالتصوف العشتاري القديم حيث يستنير الجسد بأنوار الرحمن وهو في ذروة فرحه الإنساني على هذه الأرض التي هي ذاتها تدور منذ ملايين السنين حول ذاتها وحول الشمس...

إنَّ الإيقاع الموسيقي والرقص الحرّ هو أول مظهر من مظاهر السلوك الاندفاعي، ثم يبدأ الرقص الفردي بالتحول إلى طقس جماعي مقنون، حتى يصل إلى مستوى الحلقات الصوفية ويكون الطقس هو الفعل، والمعتقد الديني هو الحالة الذهنية... ينتقل الصوفي من مستوى الوعي إلى مستوى اللاوعي على شكل نوبات الوجد والغياب الذهني والتحليق في العوالم القدسيّة.

والرقص الإيقاعي يفتح الحواس الجوانية، يدعو الجسد إلى عالم الحرّية وإلى اللعب الحرّ في ملعب الآلهة.. إلى "عبادة الأحرار"، حباً في الذات الإلهية لا خوفاً منها، كما قالت رابعة العدوية، وذوباناً وانصهاراً وتوحدًا فيها: "أنا الحق والحق أنا" كما قال الحلاج و.. "الله في جبّي" كما أردف، أي الله في جسدي وفي روحي وفي كليتي جسداً وروحاً.

فبهذا الرقص الدوراني يدعو المريد جسده إلى أن يكون موضوعاً لذاته، ويعكس طاقته نحو ذاته ثم نحو الذات الإلهية "محوّاً الحركة الماديّة إلى نشوى روحية ووجد صوفي"، يدّ ممدودة نحو السماء والأخرى تتجه نحو الأرض، يدّ تأخذ الحبّ من السماء وأخرى تعطيه للأرض... ويعود الإنسان كما كان قبل آلاف السنين عند أعتاب الديانات العشتارية التي لم تعرف الصلاة، إنّما عرفت إيقاع الرقص كعبادة... وهذا الإنسان في رقصه لم يعبد إلهًا منفصلاً عنه، بعيداً عنه، بل يعيش إلهه ويتلمّسه ويحسّ به في أعماق نفسه. وتتوحد الروح مع الجسد حين يصبح الجسد روحاً والروح جسداً ولا جسداً.. إذ تختفي هذه الثنائية في حالة وجد وانجذاب وتوحد مع الله.

وفي قمة النشوة، الدّروشة، التفقير، ينفصل المريد الذي يدور حول ذاته وحول نقطة معينة، ينفصل عن الواقع ويشعر أن حركته تتلاشى في حركة الكون وفي حركة الإله.. تتلاشى عند نقطة ثابتة في مركز ذاته، فيتوقف الزمن... وتشع الحركة من جديد ثم تفيض فيكون رحيلٌ من محيط الذات إلى محيط الله.... من محيط الذات إلى مركزها الذي يتطابق مع مركز السرّ الأعظم و... "من عرف نفسه عرف ربّه" كما قيل في الحديث الشريف.

ومنذ كانت الحياة، كلّ شيء في هذا الكون يتحرّك بإيقاع، منذ إيقاعات الديناصور وحتى وقع أقدام الفرس البريّة والغزاة الوحشية.... والحياة إيقاعات.... فاللغة إيقاع

والمشي إيقاع وكل ما يتحرك وكل ما يحرك من طبول الحرب إلى خفق أجنحة حمامة السلام.... كلُّها إيقاعات، بما في ذلك إيقاع العصيان الرمبتي. سمة الإنسان الحر! في كل زمان ومكان، فلا خوفٌ عندما يكون الرفض والمقاومة.. ولنلاحظ الشبه بين كل الأغاني التي تأتي من القاع فهذه هي الشاعرة جوي هارجو من أصول الهنود الحمر تغني:

"أستردُّ نفسي أيها الخوف

لم تعد بعد الآن ظليّ

لن أمسك بك في يدي

لا تملك أن تحيا في عيوني

وأذني.. وصوتي.. وبطني أو في قلبي

قلبي قلبي

تعال هنا أيها الخوف

أنا أحيا

وأنت ترتعد من الموت!"

وثمة شاعر هندي أحمر آخر "جوجيسجي" يقول في أغنية الموت:

"أنا هنا

فقط لفترة قصيرة

لقد أحببت بهجة الأرض

أهلا بك يا موت"

ونلاحظ أيضًا النَّفسَ الرامبتي للشاعر وهو ينشد:

"عندما أصير رجلا عجوزًا

حتى لا تمسك النيران

بثيابي الفضفاضة

عندما أتسامر والشباب

بينما يتحلّقون سكارى

حول نار المخيم

وبالطبع سوف أقص عليهم

أمورًا دنيوية" (57)

لنلاحظ أنّ الصوفي والرميّي والهندي الأحمر يتوحّدون في الإقدام والشجاعة وعدم الخوف من الموت، يتحرّرون من عقدة الخوف من الموت، ولنلاحظ أنّ الصوفي يدور وعلى رأسه طربوشًا عسليًا، وعلى وسطه تنورة بيضاء فضفاضة، يدور ولا ينظر إلى جسده وإلى مظهر الشيء، إنّها إلى جوهره. للصوفي عينٌ ثالثة.. ولا عليه أن يكون متديّنًا تقليديًا، يكفيه أن يكون روحانيًا ومستقيمًا. تختلف طرق العبادة في جميع الأديان، السماوية والوثنية، ويبقى الله واحدًا، نحبّه من خلال محبّتنا لأنفسنا أولاً.. ننغمس فيه ونراه بعين القلب، فما الفائدة من معرفة الشريعة وجهل الله؟ إنّ حراس الشريعة لا يحبّون الله، لا يعرفون الله إنّما يخشونه فقط! ويرتعبون من نار جهنّمه.. ويكون شعارهم مضحكًا مبكيًا.. "بالرعب وحده يحيا الإنسان". والخوف هو أساس كل علة... يتشاجر أتباع الديانات السماوية حول الشكل، بيد أنّ الصوفي يبحث عن المضمون والجوهر، فكل هذه الأديان أنهاّر تصبّ في بحر واحد، الصوفي يدور مثل أمّنا الأرض على صوت ناي القصب والرّق والربابة... دون خوف من شيء أو على شيء، وبدون وجل، ليتّحد مع الذات الإلهية في حالة عشقية صافية.. ولا قيمة للحياة بدون عشق مهما كان نوعه.



## (2) إنكي وميوز ومزيقا والذي يفقد الحس بالموسيقى

إنكي هو إله الأعماق السومري.. وهو الذي بنى مدينة أريدو من حجارة الفضة واللازورد في مكان طاهر وطيب. كان بيته في "عهدة القيثارات السبع" التي تردّد التراتيل - مغمورًا بالفضة واللازورد والموسيقى.. ومن الموسيقى تكون الميوز ليس لفظًا وحسب إنّما هي ربّة الإلهام كما عرفها الإغريق فيما بعد.. هن الميوزات اللواتي يُلهمن المغني وينفخن أنفاسهن في فمه.. تحل عليه بركة السماء حتى يقال: هنيئًا لمن كانت روحه في فمه وفي أذنه غناءً وشعرًا وموسيقى.

والميوزا هي جنيّة البحر. نصفها إنسان ونصفها الآخر سمكة... هي حوريّة البحر التي تعزف على قيثارة الزمن ألحان الموسيقى المائية.. في المحيط المائي.. فيه تتشكل الحياة كما في رحم الأنثى.

أما عندنا فقد تشكلت الحياة في محيط آخر هو محيط الصحراء.. تلك الصحراء التي تنم رمالها عن أنها كانت بحرا... فالأصل هو الماء. هناك الميوزا ربة الإلهام وهنا شيطان الشعر. هناك ميوز المارية المائية التي تخرج من البحر حواء السمك التي لا أحلى ولا أجمل.. وهنا شياطين وادي عبقر. هناك سافو معلمة الموسيقى من متيليني الجزيرة في ليسبوس أعلى ما في جزر الأرخبيل اليوناني، وهنا الخنساء وامرؤ القيس والقبائل العربية التي تقرش إحداها الأخرى كما سمك القرش يقرش باقي حيوانات البحر، وفرع هاشم الذي يهشم الثريد للفقراء والضيّفان.

وهنا أيضًا شيطان امرئ القيس "لافظ بن لاحظ" الذي يأكل الثريد، وشيطان عبيد بن الأبرص "هبيد" الذي يأكل الهبيد. والهبيد هو نقيع الحنظل بالماء حتى تزول مرارته ثم يطبخ. هنا قريش تأكل لحم الضأن وباقي القبائل تهلك في اصطياد الضبّ والظربان.

وهل من فرق بين ثقافة البحر وثقافة الصحراء؟ إيه يا مقه مقه مكة مكة والقوافل وحادي العيس يناجي إله القمر في اليمن القديم الموغل في القدم.. مقه.. مقه. فظل يناجي قمره حتى جاء مزيقا. وهو ابن عامر بن ماء المزن - قيل أسموه مزيقا لأنه كان يلبس في كل يوم حلة جديدة يمزقها في اليوم التالي. وهكذا على مدار سنة قمرية كان يمزق 360 ثوبا قشيبا، يُبدل الواحد بالآخر كل يوم، كأيام السنة القمرية البابلية وعلى كامل درجات الدائرة في يومنا هذا.

والميوزات اليونانية هن ربّات الإلهام، ربّات القمر التسع ينفخن في الفم فيلهمن صاحبه.. منهن جاءت المزيكا أو الموسيقى. إذا ما الغرابة في تشبه مزيقا بن ماء المزن بالقمر.. يخلع كل ليلة بدلة ويلبس في كل يوم جديد جديداً وعلى مدار السنة القمرية البابلية؟

وما الفرق بين ثقافة الصحراء التي كانت بحرًا في يوم ما وبين ثقافة البحر؟

ما الفرق ما دامت الروح في كل شيء، وروح الشيء هي التي تقرّر.

وروح الشيء هي قبلة الإنسان العاقل الذي لا ينقطع عن التفكير حتى وهو نائم، الإنسان هو الإنسان سواء كان في وادي عبقر بالصحراء أو على ضفاف العاصي ودجلة والفرات أو على شواطئ متيليني / ليسبوس أقصى ما في شمال الجزر اليونانية.

هنا نسمع عزيف الجن في صوت الريح التي تصفر بمرورها بين ذرات الرمل والقصب الصحراوي حين تجنّ الريح. وهناك صوت الماء المتحرك في كل الجهات وأنغام الميوزا في قيثارة سافو.

ثم لماذا لا تكون القراءة بعين العقل والعلم والتاريخ؟

قرأ: أدّى، تلا، أملى، قرأ في العبرية والآرامية 𐤀𐤁𐤕𐤁 / قرأ السلام!

الأمّي: نقيض أهل الكتاب وهو من باقي الأمم، الذي ليس له كتاب وليس غير القادر على القراءة والكتابة.



كلمة أحرف (جمع حرف) تعني أيضًا قراءة.. نزل القرآن على سبعة أحرف أي سبع قراءات.

يقول سبرنغر في تفسيره لسورة العلق: "اقرأ" تعني - "اقرأ كتب اليهود والمسيحيين المقدسة".

يقول أشعيا التوراتي 6:40: "صوت يقول لي اقرأ فأقول ماذا أقرأ؟"

يقول بعض الفقهاء أن سورة العلق هي أول ما أنزل في القرآن بالفترة المكية الاولى، يتحفظ على هذا نولدكة في كتابه تاريخ القرآن<sup>(58)</sup>، ويقول إنها مسألة "لا يمكن حسمها" (ص 75) فسورة المدثر هي أول نزول الوحي.. إذ ذهب النبي محمد إلى خديجة مفزوعاً قائلاً: دثروني دثروني أو زملوني... نتيجة للخوف الخرافي الذي وقع عليه وقع الصاعقة عند أول نزول للوحي. وفي رأي ثالث أن سورة المسد هي أول ما نُزل.

هنا وهناك تصفر الريح في أعواد القصب وبين ذرات الرمل فتصدر أصواتا كالعزيف وهو صوت الجن. والجنون من الجنّ والإلهام من الميوزا، وفي صوت الجنّة والميوزا روح الموسيقى، والموسيقى في كل شيء داخله؛ في المنهل روح النبع، وعين الماء العذب والبئر، المسكونات بجنيّات تصدح ليل نهار، يمرّق الهواء في البئر فيصفر ويغني كأن فيه مكبر صوت.. يمرق بين حبات الرمل فيصفر ويغني ويكون عزيف الجن غناءً. وإنّا سمّوهم الجن لأنهم خُزّان الجنّة على حدّ قول الطبري. صاحب تاريخ الملوك والأمم. إذن فالإلهام من الميوزا والجنون من الجن ومن ملامسة المستور. والمستور هو الجنين في بطن أمّه... فهل هو جنّ صغير في طور التكوين؟ هذا الجنين يسمع صوت هدير الرحم. هدير البحر، هدير الصحراء التي كانت بحرًا في يوم من الأيام.

ولنلاحظ أيضًا أنّ كاهنات الطرب حين تقرأ، تحمل بالموسيقى، والقرء هو الحيض.. ولنلاحظ أنّ عدّة المرأة التي يموت عنها زوجها هي ثلاثة قروء، أي ثلاث حيضات أي ثلاثة أشهر قمرية. والدورة النسائية كالدورة القمرية تعربد فيها موسيقى الخصب بُعيد كل قُرء؟

قال: اقرأ أي احمل حملاً معنويًا.. وإلا فما معنى لست بقارئ؟!

ولنعد إلى نسقنا هنا في الكتابة! لم لا نقرأ داجون.. وهو إله الريح عند الأموريين في العراق القديم وبلاد الشام العتيقة، داجون اكتسب صفات الخصب وهو لفظاً يعني الحبوب في لغات المنطقة- السومرية والآرامية والسريانية والأوغاريتية والفينيقية والكنعانية التي هي أصل العربية والعبرية. كان داجون أباً لبعل الكنعاني يوازي إيل ويهوا العبراني. وإذا قطعنا اسمه ف- "دا" تعني الإله و"جن" تعني الريح بلغة سومر.

إذا ما الغرابة في كون صوت الريح عزيز الجن؟

الغرابة هي في عدم ردّ الشيء إلى أصله، والعودة إلى الأصول، وفي الانقطاع عنها والتواصل معها والعودة إلى الأصول والجذور، دون تعنت ودون موارد ودون شدّ إلى الوراء. فحتى لا نفقد مستقبلنا وكى لا نفقد حاضرنا علينا أن نتواصل مع ماضينا، على أن لا ننسخه نسخاً كربونياً. ذلكم هو الأمر.. ولكي لا يصنعوا من مستقبلنا كيفما يشاؤون... علينا أن نعود إلى الزمن الكنعاني وإلى ما قبله حتى الأموريين، وحتى لا يجردونا من الروح. فإن جُردت من ملابسني لن يتمكن أي كان من تجريدي من روحي. لأنّ ملابس الجسد تُخلع كملابس مزيقا، بيد أن ملابس الروح لا تخلع، لأنّها أصلاً لا تلبس حتى يتم خلعها. فهي جزء من الروح، هي في داخل الروح والروح في داخلها.

أمّا الإنسان الذي يفقد الذاكرة فإنه يفقد التاريخ، كذلك الذي يفقد الحس بالموسيقى يفقد الطقس والأسطورة والعاطفة والإحساس بالجمال.

أفلا نسمع صوت الموسيقى في الأسطورة ومنذ كان العماء والغمر يغطي وجه الكون؟ لنسمع صوت الماء خريراً وببقبة حين مزجت الآلهة البدائية الثلاثة أمواههم في أسطورة الخلق البابلية، الإينوماإيليش، ولنلاحظ صوت الموسيقى في المعاني:

"عندما في الأعالي لم يكن هناك سماء.

وفي الأسفل لم يكن هناك أرض.

لم يكن (من الآلهة) سوى آبسو أبوهم.

وكمّو، وتُعامة التي حملت بهم جميعاً.

يمزجون أمواهم معاً".

كما جاء في الهامش <sup>(59)</sup> وبعد أن كانت عملية الخلق وكانت الكلمة. جاءت الموسيقى في أصوات الطبيعة والحركة، بعد أن كانت في السكون وفوضى السكون، جاءت في حفيف أوراق الشجر.. وفي حركة الحيوان وفي هزيم الرعد وفي سقوط المطر، وخرير المياه، وهدير البحر، وصوت هسيس النار، ودبيب النمل. ثم في كلام الإنسان وبيانه وسحره وشعوذاته.. ولعلّ الموسيقى الإيقاعية والرقص الحرّ كانا أول أشكال الطقس الديني عند الإنسان كظاهرة بدائية تلقائية وفطرية.. لأنّ الدين أصلاً هو اختبار عاطفي وحالة انفعالية تسبق أي تصوّر عقلائي.. وهذا السلوك هو الطقس وهذا الطقس هو الحركات الإنسانية المُمَوِّسقة للانفعال الداخلي، لعقد الصّلة ما بين الإنسان وعوالمه القدسية <sup>(60)</sup>.

لذلك فلكل شيء إيقاع وموسيقى إيقاعية. منها ما نسمع ذبذباته ومنها ما لا تلتقطه الأذن المجردة.

ففي المعابد القديمة كانت الموسيقى ترافق الصلوات الجماعية، في أوغاريت السورية وفي أوروك السومرية، في أرض الرافدين في العصر الأشوري القديم والحديث وفي العصور الأمورية والحثية والبابلية. كان التعبد بالتراتيل والغناء والدراما الراقصة وسيلة التواصل مع القوى الماورائية وإثارة الشعور والعواطف النبيلة، منذ الطقوس التّموزية وحتى يومنا هذا. منذ عهد أوزيريس بمصر الفرعونية وحتى يومنا هذا. وأوزيريس إله الفراعنة ولد من زواج السماء والأرض، حملت به أمّه حملاً مقدساً بدون اتصال جنسي... كما تقول الأسطورة، وكّرّس نفسه لتنظيم شؤون العالم مبتدئاً بمصر. أبطل العادات الهمجية وعلمّ الناس الزراعة واستنبات القمح والكرمة والشعير وصناعة الخبز والنبذ والجمعة. يُرسي البناء في مصر ويوكلها لأخته وزوجته إيزيس، ثم ينتقل إلى باقي أرجاء المعمورة مستملاً الناس إليه بالرفق واللين والمحبة، ناشراً تعاليمه بالأغاني والموسيقى... لأنها انسجام مع الذات أولاً ومن ثم مع الآخرين.

هكذا حكم أوزيريس بالعدل وقهر الشرّ بالخير وبَدَدَ الظلام بالنور.. يُحاسب الموتى في قاعة العدالة على أنغام قيثار الحياة الثانية السرمدية.

هكذا... فقد تعددت الأشكال والنغم واحد. من طقس ديموزي إلى ذيونيسيوس وميلاده والمسيح وميلاده ومحمد وميلاده. كما في الشرق كذلك في الغرب، وكما في الأدنى كذلك في الأقصى. من لاوتسو وكونفوشيوس وبوذا.. وكما في الأمريكتين بقبائل المايا والتوتشي...

وكما هنا كذلك هناك فإن الموسيقى هي رفيقة الدين. أي دين كان، ومنذ بداية تكوين الإنسان، لكل علاقته بالآخر، الأسطورة والسحر والدين والطقس والموسيقى... "والأسطورة تزود الإنسان بذاكرة تاريخية تعطيه إحساسًا بوجود مبرر لحياته"، كما يقول السواح... أمّا الذاكرة فهي التي تلغي الإحساس بالعدم واللاجدوى. وإحساس الإنسان بعدم جدواه هو كما إحساسه بالموت. لذلك نقول إن نسيان الماضي هو نوع من أنواع الموت وحياة الشعوب تكمن في قوة ذاكرتها ومقاومتها للنسيان.

حقًا إن الإنسان الذي يفقد الذاكرة يفقد التاريخ وإن الذي يفقد الحس بالموسيقى يفقد الطقس، والأسطورة عامة، وأسطورته الشخصية خاصة، فيفقد العاطفة والإحساس بالجمال، ومعنى القرء ونكهة حكايات الحبل بلا دنس! ومتعة الإشراف الصوفي الإسلامي أو الاستنارة المفاجئة في بوذية التشي - آن الصينية وريثة التأوية الشرعية.

إن حكايات وأساطير الخلق متشابهة في معظمها، عنصر التراب والماء هو الأساس، كما رأينا سابقًا.

ولنعرج الآن على حكايات الخلق لدى الهنود الحمر، ومنها قصة البطل الإنساني "يساهكيتشاك" الذي كان يجلس ولم يكن يوجد شيء، سوى كتلة من الوسخ، نفخ فيها فكبرت، وصار العالم. ثم صنع "كويوتي" (شبيه الذئب) وأمره بأن يجوب العالم ليخبره كيف صار العالم. استمرّ ويساهكيتشاك في النفخ إلى أن انقطع نفسه. واستطاع أن يصنع المزيد من الحيوانات والطيور...

وفي تلويحة أخرى لقصص الخلق لدى قبائل اليوتوتو (كولومبيا)، جاء أنّه في البدء، أوجدت الكلمة الأب، وهي روح خالص.. ولا شيء سوى ذلك كان موجودًا منذ الأزل.

ثم لمس الأب وهماً وقبض على شيء غامض.. لم يكن ثمة وجود... لا شيء.. ثم عاود الأب البحث في قاع الشيء الغامض.

ربط الوهم الفارغ لخيوط الحلم وضغط مادة سحرية فوقها. وهكذا بفعل قوة حلمه أمسك به كمزقة من القطن الخام. قبض على قاع السراب وأخذ يدوس فوقه مراراً وتكراراً وأخيراً جلس على أرض حلمه.

وصارت أرضه، الروح ملكه. ظل يبصق عليها من لعبه مرة تلو الأخرى حتى تنمو الغابات، ثم رقد مستلقياً فوق أرضه وغطاها بسقف السماء.. وبما أنه كان مالك الأرض جعل الأزرق والأبيض لون الأعالي في السماء.

وبناء على كل هذا أخذ أفوسما (الإنسان الذي يملك كل الحكايا والروايات) يفكر، بينما كان يجلس عند قاعدة السماوات، ثم اختلق هذه الحكاية حتى يمكننا نحن الذين نسكن الأرض أن نستمع إليها.

وفي أساطير قبائل الشاين يلاحظ أن الرجل والمرأة قد صُنعا من ضلع الإله "ماهيو". ولنلاحظ هنا الشبه بين ماهيو ويهوا ولنلاحظ أيضاً أن ماهيو أكثر ديمقراطية ومساواة بين الرجل والمرأة، حيث إن كليهما خلق من نفس المادة.

لدى قبائل الناناو نرى أن أسطورة خلق البشر تأتي من عالم الزراعة. فانبثاق الرجل الأول والمرأة الأولى لديهم يأتي من حبتي قمح، ثم زرعهما بعناية من قبل "رجال مقدسين"، حتى تأتي الريح لتنفخ الحياة فيهما. ولنلاحظ وجه الشبه بين القمح وعضو الأنثى!

ثم تأتي المرأة الأولى لتخلق لهما الأعضاء الجنسية وديمومة التناسل.

والمرأة الأولى هي "السيأزدزا" قامت بتشكيل عضو الذكر من حجر التروكواز، وفركت بعض الجلد المتساقط من ثدي المرأة وخلطته بشمار فاكهة "اليوكا"، وأسمت العضو "أزيز". ثم شرعت في صنع المهبل من الصدف الأبيض ووضعت به بظراً من صدفة حمراء ثم تركت بعض الجلد المتساقط من صدر الرجل وخلطته بشمار فاكهة "اليوكا" التي وضعتها داخل منطقة البظر... ثم أسمت العضو الأنثوي "أجوش".

وطرحت العضوين أرضاً ونفخت فيهما وقالت لكل منهما: "والآن فكّر"! ليفكّر كل عضو في الآخر. فتمدّداً، لكن العضو الذكري تمدد أكثر، ولهذا نجد أنّ اشتياق الأنثى لا يسافر بعيداً مثل اشتياق الذكر. ثم قالت التسيأزدزا- المرأة الأولى- لكليهما: "والآن اصرخا... لتلمسا بعضكما ولتصرخا من جديد...".

رضيت التسيأزدزا عن نفسها وعمّا فعلته وكان التناسل، وكان الاهتمام بالأطفال، وتقاسم العمل مناصفة.

وتواصل الأسطورة كيف قام "الكويوتي" الشبيه بالذئب بإعارة بعض شعر وجهه للعضوين الذكري والأنثوي من باب الستر والتجميل.

نرى هنا أنّ أساطير الهنود الحمر أقرب إلى الطبيعة العارية مقارنة بالإنوما إيلش وأساطير الخلق الرافدية. وتجدر الإشارة هنا إلى كلمة "فكّر"، وإلى أنّ العملية الجنسية واللذة هي أصلاً في الدماغ.

لقد عرفت أشعار قبائل الشايين أشعاراً جنسية صريحة شديدة الجرأة.. مما يذكرنا بقصيدة إنانا التي استلقت تحت شجرة التفاح فاتحة فخذها عارضة فرجها بهجة للناظرين<sup>(61)</sup>.

### (3) عندما يموت المغني

عندما يموت المغني، لا يفنى.. "هزمتك يا موت، الفنون جميعها. هزمتك يا موت الأغاني في بلاد الرافدين" (هكذا قال محمود درويش في الجدارية، مع أنه لم يتحدث مطلقاً عن موضوع هذا الكتاب، لكنّه نهل من نفس المصادر الرافديّة التي نهلت منها حتّى).

ففي العالم القديم، خاصة عند الإغريق كان الناس يكرّمون الممثل المسرحي والشاعر والمغني تكريمًا خاصًا عند وفاته، فعندما يموت المغني تصمت الآلة التي عزف عليها ويبقى العزف والغناء، فالمغني وآلته توأمان سياميّان.. يحضنها وتحتضنه كما تحضن الأم طفلها، يسيل منها الحليب لحناً خالداً، والحليب كما ثدي الأم لحن خالد... يعتمد وجود كل منهما على الآخر. لذلك يموت الزمّار وأصابعه تلعب، ولا اعتقد أنّه بحكم العادة فقط.. ولذلك أيضًا كانت وما زالت عادة دفن الآلة مع العازف. ولا اعتقد أنّه فقط بحكم الملازمة والاعتماد المتبادل أثناء الحياة.. إنّها رمزاً للعلائق وأمّشاجٍ روحية لا يمكن أن تنفصم عراها بفعل الموت.

في تلك الليلة شاهدت فيلمًا يونانيًا اسمه ريمبتيكا، تموت فيه المغنيّة.. يتم حمل نعشها المثقل بالزهور والدّف الذي كانت تنقر عليه أثناء الأداء.. يُهال عليها التراب حفنة حفنة وقبضة قبضة من لدن الأهل والمحبين والمعجبين... يشربون نخبها ويودّعونها بالعزف والغناء والرقص الريمبتي المثقل بالحزن. يحيطون بالقبر يعزفون الأغنية التي أحببتها.. يسيل اللحن حلواً مرّاً مزّاً.. فالكلمات دموع، والأصوات جراح، وغُنة الحنجرة سكينٌ يقطع أوتار الصوت وريشة العود والقيثار والجيتار والبوزوكي خنجرٌ يذبح الروح.. والروح ترشح كما الماء من دورق الفخار، دماً لا لون له ولا طعم ولا رائحة وله كل الألوان والأطعام والروائح الزكية.

في تلك الليلة، استعصى عليّ النوم. قمت لأكتب.. قلتُ في نفسي لعل الكتابة تفرغ تلك الشحنات التي علقت بي وعلقت بها. كتبت: عندما يموت المغني، وتجمد القلم بين

أصابني لحظات، ثم ما فتئ أن نعظ بعد احتقان. من لم يحتقن، فليرمني بحجر! والكتابة فعلٌ جنسيٌّ بين القلم والورق. كما جاء على لسان ابن عربي.

عندما يموت المغني يكرّمه أصدقاؤه بالعزف والرقص والغناء..

يتسامى الدمع، يصبح أثيرًا يتحوّل إلى لحن. عندما يموت الشاعر يودعه الناس بالتصفيق.. يعلو ويعلو ويعلو كلما علت طبقة التراب فوق جسده حتى يسمع ما لم يكن يسمع أثناء حياته. ذلك ما يدعونه في الغرب "التصفيق الأخير" The Last Clap. كذلك يفعلون عندما يموت الممثل المسرحي. والإغريق أول من عمل على تطوير المسرح. كذلك كان مع الفيس بريسلي، أنزلت جيتارته معه إلى القبر، وعُزفت موسيقى الروك عندما ودّعه المعجبات والمعجبون بوجوه رخامية ورقص هستيري.

عندما يموت المغني يذهب الجسد ويبقى اللحن.. يذهب المحسوس ويبقى الإحساس.. يفنى الجسد ولا يموت الغناء. والمغني هو الجسد وهو الروح، كم الفرق شاسع بين الموت والفناء. أمن هنا جاءت خرافة الشهيد وأن جثته لا تفنى؟ "الشهيد جثته لا تفنى"... ربما هذه بقايا أسطورة؟! لا بأس نحن نعيش على الأساطير، نقتات من الخرافات. هنا عندنا، قامت دولة على الأسطورة! لكن ليس على الأسطورة وحدها وحسب إنّا على همجية القوة أيضًا.

علينا تكريم من يموت من أجل قضية بعدم محوه من الذاكرة، الفردية والجماعية، كي يبقى قبره أخضر.

لقد كان الرمز والطقس منذ قديم الزمان شيئًا أساسيًا في حياة الإنسان، من خفقان العَلَم إلى وَضْع إكليل الزهور على قبر الجندي المجهول، ومن التصفيق الأخير في وداع الشاعر أو الممثل المسرحي حتى الرقص الجماعي حول رمس المغني، ودفن الآلة الموسيقية مع العازف الذي عزف عليها لأتمه أثناء حياته، والمقاتل مع سلاحه. ويكون كلاهما لبنة من لبنات بناء الوطن ورفض النكبات. ربّما تأثر الشاعر طه محمد علي من هذا كلّ وأوصى أخاه الشقيق أمين (أبو عرب)، أن يُدفن معه كتاب ألف ليلة وليلة، الذي تأثر به كثيرًا!



كم تلعب الخرافة دورًا في حياة الإنسان وسلوكياته، وكم تبقى الأساطير حيّة في حياة الشعوب، تحمل عبق الماضي وحبّ الحياة والبقاء وحفظ النوع والخلود بمعنى خلود الذكر والذاكرة الجماعية الخصبة...

لأنّ الأسطورة أصلاً هي من إبداع الجماعة لا من تأليف الفرد.

عندما يموت المغني لا يفنى ولا يموت، لأنّ المغني لا يعيش من أجل ذاته. وهو غريب عنها. نكرّمه كي يعود إلى الحياة، إلينا، بعد وفاته وبعد أن عاش أفسى درجات الغربة والاغتراب وأقصاهما. وهو يرفض رفضاً واعياً، ألا خيار مما هو مألوف شجباً للظلم وإنقاذاً للكرامة الإنسانية وحفظاً للحقيقة وفضحاً للفن الزائف، وحباً في تغيير العالم لا تفسيره فقط.

يموت المغني حاضناً آله كما تحضن الأم طفلها، يموت ويبقى اللحن معلقاً هنا حيث كل شيء، معلقاً هناك في "الأعالي حيث لم يكن هناك سماء، وفي الأسفل حيث لم يكن هناك أرض" ... كما جاء في الإينوما إيليش.

يموت المغني بعد أن يُنجز عمله و... "العمل ينجز ثم رُبّما يُنسى، لكنّ أثره لا يفنى"، كما جاء في كتاب التاو، إنجيل الحكمة الأوّل في الصين. ف- "أن تموت من غير أن تفنى، ذلك هو الحضور الأبدي". هزمتك يا موت الفنون في بلاد الرافدين!



## الرحلة التي لا تنتهي

لقد بدأنا هذه الرحلة من عند أقدام شجرة الغار. شجرة الغار الوحيدة في الناصرة. والشجرة هي رمز الحياة. ومن غريب المصادفات أن تكون هذه الشجرة مزروعة في المركز الثقافي البلدي وتحفظ بذاكرة المكان وتؤكد لنا أن الثقافة وحدها هي التي تحرّر الإنسان. في تلك المدينة وفي كل المدن.

وشجرة الغار المتجددة تبقى باسقة، أما إكليل الغار الذي نصنعه من أغصانها وأوراقها ونضعه على رأسنا فلا بدّ له أن يذبل، ولا بدّ أن ينزل من على رأس المتصر. كما في ذاكرة الزمان، يقول الأثينيون أننا حين نضعه على رأس الميت لا ينزل أبداً. والغريب أن الغار لغة في اليونانية دافينو (Thafnino) وإكليل الغار دافينو ستيفاني (Thafnino Stifani) والغار في العبرية دافنا (דפנה) أما إكليل الشوك في اليونانية فهو أنغاثينو ستيفاني (Angathino Stifani)، في العربية "القصد" وفي العبرية الشوك (קוצ) "كوتس" وما أقرب الكوتس الشوك من الكيتس (קצ) النهاية.. وما أقرب إكليل الدفلى لإكليل الغار، ففي أوراق الدفلى سم قاتل. يقول دانتى في الكوميديا الإلهية: "عبثٌ هو المجد. فما أقصر الأيام التي يبقى فيها إكليل الغار أخضر".

وتقول حكمة الحياة إن الماضي يلعب دوراً هاماً في الحاضر وفي المستقبل، وتقول أيضاً إن المستقبل المخطط له بوعي، يلعب دوراً في الماضي والحاضر، لكن في كلتا الحكمتين عليك أن تحرك يديك، أي يجب أن تقوم بعمل ما.

فقد كان اليوم شعار أثينا إلهة الحكمة.. إنه هو الطائر الليلي الذي يرى عبر الظلام.. يخترق العتمة ويرى الما- وراءها.

وفي أثينا المدينة عندما كان يموت الأثيني كانوا يضعون تحت رأسه إكليل الغار حتى يستريح عليه إلى الأبد.

أجل.. "ثمة جمالية خاصة للهزيمة تسمو على جمالية الانتصار".

تمامًا كتلك الهزيمة التي أعلنها "نزيه" ابن أختي أمام مرض السرطان. حين قال: "يا خال! إنَّه يأكلني لكنني سأظل واقفًا.. وما دام سيأكلني فليأكل بسرعة ونهم. لكنِّي، وفي الوقت ذاته، سأترك جسدًا ناحلاً للدود.. سأترك له شبه جسد". قال هذا وكأنه يؤمن بسياسة الأرض المحروقة! ثم أضاف:

"سأغادركم عمّا قريب.. أعرف ذلك.. تَبًّا للألم.. تحتاجني رغبة عظيمة لمغادرة قفص الجسد اختصارًا للألم لا حبًّا في الفراق. الموت ظاهرة طبيعية فيها اختصارٌ للألم.. الموت ثقيل لكنّه حقّ.. كما الحياة حقّ. والموت لا يغيّب الحضور، خاصة في أدمغة وقلوب الأحياء. الموت فراق دائم للجسد ما بعده لقاء..

تبقى الذكرى، يبقى مبدأ الحياة الحرّة الكريمة، والمهم أن نعيش بشجاعة وأن نموت بشجاعة". (كانت كلماته أشبه بخطبة وداع).

قلت له: لا شك أنّك رجلٌ شجاع.. أنت تعرف.. إنني لا أجامل.

قال: "باطل عليك".. ثم أردف شعرًا بقول المتنبي.. المتنبي الذي مات.

الذي قُتل وبقيت شجاعته ومروءته:

عش عزيزًا أو مت وأنت كريم  
بين طعن القنا وخفق البنود

المتنبي الذي قتله بيت شعر قاله في الخيل والليل والبيداء.. قال هذا وسرح، ثم تابع شعرًا من نظمه وكان في كثير من الأحيان سيّد القوافي دون أن ينشر حرفًا. قال كما الإنسان الذي يقترب من شفير الهاوية ويدرك تمامًا معنى اقترابه ويدرك ما قدّر له من مصير:

"يا بائع الدين بالدنيا وباطلها  
ترضى بِدينك شيئًا ليس يسوّاه  
حتى متى أنت في لهوٍ وفي لعبٍ  
والموت نحوك يهوي فاغرًا فاهُ  
ما كلّ ما يتمنى المرء يدركه  
رُبَّ امرئٍ حتفه فيما تمناه"

وكان في قوله هذا خليط من نفسيّتي المتنبّي وأبي العتاهية.. وكان هو ذاته أيضًا.. ثم أوصى أن تُكتب هذه الأبيات على شاهد قبره، وأن يُدفن على جدّته لوالده.. لأنه كان يراها كثيرًا في منامه في آخر أيامه.

من أجل إنجاز وصيّته، التي هي إرادته بعد موته، كان لا بدّ أن نكون ثلاثة: كاتب الخط عدوان وحافر الشاهد وحفّار القبور فضل وأنا. قلت لهما: المستقبل هو الذي يحدّد معالم الحاضر ومن ثم الماضي. قالوا: كيف يكون ذلك؟

قلت: أن نحدّد ثلاثتنا ما يُكتب على شواهدنا. وضحكت!

قال حفّار القبور: تعجبني ضحكك في أحلك الظروف.

وقال كاتب الخط: لا بأس، اتفقنا.. على أن نكتب ذلك للأجيال القادمة.

لأجيال تدرك أنّ حقوق الأمم باقية وهي فوق حقوق كل فرد مهما كان عظيمًا.

وشرعت في الكتابة تحت شجرة الغار: ولد.. عاش.. ومات! لكن كانت ولادته صدفة وكان لحياته معنى ومات بشجاعة.

قال حفّار القبور ما كان يقوله اللّاسرواليون أثناء الثورة الفرنسية بفظاظة: عاش في الطول وفي العرض وكان يخاف من ثلاثة: عرص دارس وبرد قارس ولوطي فارس.

قال كاتب الخط معترضًا على الكلمة البذيئة: كن على حذر من ثلاثة، اللّئيم إذا شبع والكريم إذا جاع والإنسان الذي لا يهاب الموت! والذي يتعامل معه بشكل طبيعيّ وحضاري كظاهرة طبيعيّة... وسرح فكري بتلك المرأة التي ماتت حزينة وهي ترقص في الهواء الطلق على حبال ثلاثة، واحدهم أفعى الحاضر...

قلت وكنا ما زلنا في المقبرة: بعد إنجاز المهمة نبدأ بإعداد شواهدنا، قال حفّار القبور: سأحفر قبري بيدي وأدقّ لنا الثلاثة شواهدنا.

قال كاتب الخط: ليعطيني كل واحد تاريخ ميلاده، فهذا هو الحدث... لكن كاتب الخط هذا- عدوان ماجد مات قبل أن ينجز المهمة! وأردف من وراء غلالة الموت:

أما تاريخ الموت فهو عادي.. لا شأن لي به. فعمّر الإنسان لا يُقدَّر بعدد السنين التي عاشها، إنّما بعدد السنين التي ضحك بها وعمل فأفاد واستفاد.

ثم التفت إليّ وعاد يحِرّضني على الكتابة مُعيداً قوله غوتيه: الكتابة وحدها هي التي تعطي اللحظة صفة الديمومة.

قال حفّار القبور: كيف؟

قلت: اسمع مثلاً، ما قام به طفلي الصغير، فقبل أن يموت صاحب هذا القبر، وقد اشتد به المرض، سألتني دياب ولدي الصغير، كم عمرك يا بابا؟

قلت له: ثمانية وخمسون عاماً.

قال: وكم عمّر عمّو نزيه؟

قلت: ستين عاماً.

قال: بابا، لا تصلّ حتى الستين!

لقد أعطى ولدي هذا لكلامه صفة الديمومة، عندما صُغته كتابةً! كان يشفق عليّ وعلى عمّو نزيه.. متضامناً معه ضدّ الألم.. لا يريد أن يتألم.. لا يريدني أن أتألم. كان يريد أن يوقف الزمن ولا يريد أن يكون لي حفل تأبين ولا حتى حفل تكريم لبلوغي الستين كما جرت العادة عند الزعماء وعند بعض المتوهّمين أتهم زعماء... الزمن، ما الزمن؟ ما الماضي إذا لم نتعلّم منه ونأخذ العبر في الحاضر ونبني للمستقبل، وأحياناً علينا أن نُجري عملية قطع مع الماضي من أجل المستقبل! ليس كلّ موروثنا جدير بالتقدير!

هكذا شرعت في الكتابة.. الحكاية التي لا تنتهي.. حكايات الحبل بلا دنس التي لا تنتهي. من أجل عيون الأطفال في عمر ولدي دياب وذلك المستقبل الذي علينا أن نحدد معالمه الآن، الآن وليس غداً.. حتى تكون على شفاههم ديمومة البسمة وحتى يكون هذا الطفل ورفاقه نسخة متطوّرة عنّا، لا نسخة كربونية، مستنسخة استنساخ النعاج.

أكتب لهذا الطفل وإخوته وأخواته ورفيقاته ورفاقه المحتملين. حتى يتميّزوا عن القطيع العظيم الذي يحيط بنا من جميع النواحي، وحتى يميّزوا بين فاطمة محمد شكري

وفاطمة غونّار إيكيلوف، وفلّة العنّابية صويحبة حيدر حيدر، وفاطمة محمد نفّاع، وفاطمة معاذ الألوسي، وفاطمة ناجي العلي الذي اغتيل ولم يمت، والتي تُغتصب في الصباح وفي المساء، ويريدون لها أن تتلذذ!

إذاً، وبعد كل هذا، قلت لحفّار القبور: دُقّ على الحجر "نرفض نحن أن نموت!"  
قال كاتب الخط: وأنا سأضيف على شاهدك أنت بالذات كلمتين: "راجع حالاً"، بدل  
إنّا لله وإنّا إليه راجعون. آه يا عدوان يا ابن ماجد كم كنت ثاقباً!

قلت: أجل.. "لا يقهر الموت إلا حبّ الحياة" (62) وإن يندثر شيءٌ، ينشأ شيء آخر  
حيث إنّه لا خواء. لا خواء إلا ما كان في أساطير التكوين الأولى من الإنيوميإيليش  
البابلية حتى التوراتية، ومن التأويه والكونفوشية والبوذية حتى اليهودية والمسيحية  
والإسلام. وكلُّ يُكمل نقصه بتمام غيره وكلُّ ينتحل من كلِّ حتى تكتمل دائرة التناحر.  
قال حكيم التاو: (63)

"ما دام الموت والحياة يعتمدان على بعضهما، لماذا عليّ أن أحسب أحدهما شرّاً؟"  
التاو هو الذي ينتج الملاء والخواء.. لكنه ليس الملاء ولا الخواء. الموت يُنتج الحياة،  
والحياة تنتج الموت كما التعاسة والسعادة...".  
"وكما الينّ واليانغ (السالب والموجب) يُدمّران ثم يُنتجان بعضهما البعض، حيث يتم  
اتحاد البدايات بالنهايات ولا سكون بالحركة والسالب بالموجب إلى ما لا نهاية".  
ثم جاء كونفوشيوس قائلاً لتلميذه:

"إذا كنت لا تفهم الحياة فكيف يمكن أن تفهم الموت؟"  
إذاً، الأجدد بنا أن نفهم الحياة أولاً! أن نعرف سرّ الحياة ومعنى الحياة قبل أن نعرف  
سرّ الموت ومعنى الموت..

وأن نعرف عن المعذب البابلي - شوبش يشري شوقان وهو البار المتألم.. قبل أن نعرف  
عن أيوب الصابر التوراتي.. وكيف ارتحل شوقان فصار أيوباً... أما الرجل المعذب البابلي  
فيتحول إلى الرجل التعس في الميثولوجيا المصرية القديمة، حيث نجد العناصر ذاتها التي

تجمع كلاً من الرجل المعذب والرجل التعس ويشري شوقان وأيوب التوراتي. وكم وكم تأثر العبراني بقصيدة الرجل المعذب البابلي حين حكّت لنا التوراة عن ذلك الرجل الذي اسمه أيوب من أرض عموص، والذي كان نزيهاً مستقيماً يخاف الله. <sup>(64)</sup>

الله سواء كان في داخله غير متناه في الصغر، أم خارجه غير متناه في الكبر.

الله يأمرنا أن نعرفه.. أن نعرف كل شيء، وخاصة أن نعرف أعماق النفس البشرية. وهأنذا أجتاز الثامنة والسبعين، وما زلت أبحث وأتعلم، ولن أتوقف إلا حين يودعوني في تلك الحفرة التي حفرتها بنفسني قرب تلك الزيتوننة اليتيمة في رأس تل الفار بمرج ابن عامر.. في رحلتي التي لا تنتهي، إنها رحلة تتجدد.



## الميلاد العذري: الرحلة والارتحال

أعتقد أنّ فكرة الحمل بلا دنس قديمة غائرة في عمق التاريخ البشري... وقد بدأت في الأم الأولى التي لقّحت ذاتها ذاتها. وكانت هذه الأم هيرمافروديت (كلمة مركبة من زواج هيرميس رسول الآلهة عند الإغريق وافروديت ربّة الخصب والجمال) وهيرمافروديت تحمل في جسدها الإلهي الذكورة والأنوثة في آن واحد- الأنثى والأنثى، بذور الذكورة في كل أنثى وبذور الأنوثة في كل ذكر. وبالتالي فإنّ كمال الألوهية يكمن في جمعها للضدين. فالعُزى عند العرب هي عتر، وهو الفرج لغةً، أي عضو الذكر وعضو الأنثى.

وقد وُجد تمثالٌ طيني يعود تاريخ إلى الألف السادسة ق.م. كما جاء عند فراس السواح، في الجهد الذي بذله بمغامرات العقل الأولى ودين الإنسان- تمثالٌ للأم الكبرى ذات الفرج المزدوج.<sup>(65)</sup>

كما نرى في جهد آخر بذله السواح في فكّ رمز لغز عشتار، أنّ كاهنات المعبد اللواتي كرّسن حياتهن لخدمة المعبد المقدّس، حرصن على إبقاء جذوة الجنس مشتعلة لا يخبو أوارها.. وكانت بغايا المعبد مقدّسات، يحظين باحترام المجتمع وتقديره. وكنّ إذا حملن يحاط حملهن بهالة من القداسة. وبعدُ، فقد كان الحمل مقدّساً والميلاد كذلك، وهو بالتالي شكل من أشكال الميلاد العذري.. وأنّ الفعل الجنسي لا يؤثر على عذرية عشتار. وعليه فإننا نرى في التراث الرافدي أنّ صرغون الأول الأكادي الذي عاش في أواسط الألف الثالثة ق.م. يفتخر بأنه ابن بغيّ مقدّسة ولا يُعرف له أبٌ...

كذلك نرى البطل الكامل جلعامش يعتز بوالدته ننسون البغيّ المقدّسة التي وصلت إلى مرتبة الآلهة الثانوية.. والتي لُقبت بالبقرة الوحشية، وولدت نتيجة مضاجعة ملك أوروك لوجالبندا الأكادي في العرس المقدس. فجاء جلعامش ثلث إنسان وثلثي إله. والميلاد المقدّس شكل من أشكال الميلاد العذري.. وعشتار في جميع تجلّياتها، تحتفظ

ببكرتها مدى الدهر. وربما من هنا جاء في الميثولوجيا الإسلامية أن الحور العين في الفردوس يعدن أبكاراً بعد كل مضاجعة.

ولنلاحظ أن الأساطير ترتحل.. ففي إسبارطة لم يكن مفروضاً على النساء المحافظة على عذريتهن الجسدية قبل الزواج. وسمي الأطفال المولودون خارج مؤسسة الزواج بأطفال "الميلاد العذري". وكانت لنساء إسبارطة قيمة أعلى من قيمة رجالها المحاربين، وكان الولد ينتسب إلى أمه... وهذه الأم هي التي كانت تختار الأب.

كما كان عند العرب بأيام ما نسميه نحن الآن الجاهلية. ولنلاحظ أن ظاهرة المجتمع الأمومي هي ظاهرة عالمية، ليس فقط نتيجة ارتحال الأسطورة، وإنما لأن هذا الشكل موجود قبل وبعد الأسطورة وعصر الكتابة في شتى أنحاء العالم، وتقريباً في كافة المجتمعات البشرية، ولم يكن مقصوراً على حضارة معينة بهذا العالم من اليابان شرقاً حتى الهنود الحمر غرباً. وكان الصراع، فقامت مجتمعات الذكورة على أنقاض الأمومة في جميع أنحاء العالم وفي ذات الفترة من التطور/ التقهقر الحضاري.

وهذه الأم الكبرى هي أمّ عذراء، تلد ابنها دون نكاح. تحتضنه ترعاه ثم تتزوجه لتستعيد قوتها الإخصابية، والتي غدت مشخّصة في الخارج.. أي خارج جسدها... فهو الابن والحبيب والزوج والأخ والصديق في الوقت ذاته.

نقرأ في نصوص بلاد الرافدين مخاطبة أنانا لدموزي:

"الحبيب التقى بي، قضى مني وقضيت.

جاء بي إلى بيته فأضجعني على سرير العسل

وقام بفعل الحب خمسين مرة!"

وهي ذاتها حين تفقده تنوح على عريسها الفتى قائلة:

"لقد مضى زوجي الحبيب

لقد مضى بُني، مضى ابني الحبيب"

وترتحل الأسطورة فنقرأ للقديس أفرام السرياني بإحدى أناشيد الميلاد على لسان السيدة العذراء:

"كيف أدعوك أيها الغريب عنا والذي صار فينا؟

هل أدعوك ابناً؟ هل أدعوك أخاً؟

هل أدعوك خطيئاً؟ هل أدعوك رباً؟

أنا أختٌ من بيت داوود الأب الثاني.

أنا أمٌ من أجل الحبل بك

وأنا خطيئة من أجل قدسك".<sup>(66)</sup>

والعذراء هي أم المسيح التي حبلت به بلا دنس. هي عروس الله، هي النقية التقية الطاهرة التي لا عيب فيها ولا فساد ولا دنس. كما في المسيحية كذلك في الإسلام. وهي المرأة الوحيدة التي ذكر اسمها في القرآن الكريم تقديراً وإجلالاً وتمجيذاً.

إنّ القرآن لدى المسلمين هو كلام الله سبحانه وتعالى وكذلك المسيح عيسى عليه السلام، فهو كلمة الله التي تجسدت عند المسيحيين والمسلمين. إنّه "رسول الله وكلمته" (النساء/ 171) وكذلك "إنّ الله يُبَشِّرُ بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم" (آل عمران / 45).

وإذا كان القرآن قولاً أُلقي إلى محمد عليه السلام، فإن عيسى بالمثل كلمة الله "ألّفها إلى مريم وروحٌ منه" (النساء/ 171) أي أنّ محمد = مريم، والوسيط في الحالتين واحد وهو الملك جبريل الذي تمثل لمريم "بشراً سوياً" (مريم/ 17) وكان يتمثل لمحمد في صورة أعرابي، من أجل الرجال، هو دحية الكلبي، وفي الحالتين يمكن أن يقال إنّ كلام الله قد تجسّد في شكل ملموس في كلتا الديانتين: تجسّد في المسيحية في مخلوق بشري هو المسيح، وتجسّد في الإسلام نصّاً لغوياً، في لغة بشرية هي اللغة العربية. في كلتا الحالتين صار الإلهي بشراً، أو تأنسن الإلهي".<sup>(67)</sup>

لقد حملت السيدة العذراء بكلمة الله، وهي البشرية مريم بنت عمران، حملت بنفحة من روح الله، ولم تثلم بتوليبتها ولم تفضّ بكارتها، وهي تجمع الضدين "شرف الأمومة وسناء البتولية". وسواء كانت هذه الكلمة أو هذه النفحة أو هذه الحماة أو هذه الروح القدس أم غيرها من الخوارق فإنّ قصة هذه البتول هي استمرار لفكرة الأم الكبرى المخصصة ذاتياً، والتي تلد ابنها دون معاونة ذكر، والمهم في الأمر أنّها تحمل حملاً مقدّساً سواء جاءها من داخلها أم من الخارج.

إنّنا إذا تتبعنا مسألة التوالد العذري Parthenogenes وهو ولادة الإنسان من أمّه بدون واسطة الأب.. نرى عجباً ونرى كم أنّ هذه الفكرة متجذرة في عمق التاريخ البشري الذي وصلنا حتى الآن. ولنلاحظ كم ألهمت هذه الفكرة الإنسان الذي نعرفه منذ ما يقارب المئة ألف سنة أو يزيد، الإنسان العاقل المعروف بأل - Homo Sapien، كما وصلتنا أخباره في هذه المنطقة عن طريق الحفريات والرقم، منذ ما لا يزيد عن العشرة آلاف سنة.

إنّ التوالد العذري يجمع الأم وابنها في علاقة تناضحية مباشرة بدون تلقيح الأب وعلى أساس فردوسي خال من الخطيئة، بل ويحمل شكلاً من أشكال المقدّس المجيد وتأليه عظماء التاريخ الإنساني. هذا على فرض أن الجماع خطيئة!

هذا إيل... كبير الآلهة في وادي الرافدين تحمل منه اختاه عشيرة أو عشتارة من مجرد العناق. شاهار أو شهار وشاليم أو شحر وسالم نجمتا الخير والعطاء بحسب الأسطورة الكنعانية.

إنّ المتتبع للميثولوجيا الشرق أوسطية يرى أنّ أشرأتو الأمورية تقابل عشتار أو عشيرة الكنعانية، وعشيرة هذه هي زوجة يهوا التوراتي، وأنّ أمور هو إيل الكنعانيين. (2000 ق.م.) وكذلك بل كبير الآلهة التدمرية هو بعل الكنعاني، إله المطر والخصب ويقابله مردوخ البابلي أو مردوخ بل.

وهذا زيوس كبير آلهة الإغريق يولد في جزيرة كريت، على جبل إيدا المقدّس من أم عذراء.

وآتيس من فريخيا بآسيا الصغرى يولد ميلادًا عذريًا. فقد حملت به أمّه العذراء سيبيل بُعيد احتضانها غصن لوز، وفي رواية أخرى غصن رمان (رمز الخصب). وسيبيل هي نانا أمّه وحبيته في الوقت ذاته، وتذكرنا بأنانا السومرية. ومارس إله الخصب عند الرومان تحمل به أمّه جونو، ملكة السماء، جراء لقاء بينها وبين زهرة خُرافية. كما نرى ميلادًا عذريًا من النار في المثلولوجيا الرومانية، سقطت شرارة على عذراء فحملت وولدت طفلًا أسموه كويكولوس لصغر عينيه، واعتُبر ابنًا لفلوكان، أقدم آلهة الرومان. وكذلك جاء في المثلولوجيا الفينيقية، أنّ أدونيس إله الخصب وُلد ميلادًا عذريًا من الأميرة السورية ميرها (شجرة المر). وكذلك سينراس، ملك إفكا الذي استظلّ بأغصانها ورائحتها النفاذة.

وهاري كريشنا، براهما الذي ولد من زهرة اللوتس التي نبتت في سُرة الإله. وبراهما هو بمثاية آدم الهندي.

و"هو وجي" الذي هو آدم الصيني، يولد من مجرد المشي على بصمات أقدام الشن، من أقدم آلهة الصين الذي لا يطابق مفهومه مفهوم الله السامي، فهي هي والدته "جيانغ يوان" تمشي على بصمات أقدام الشن، تقف وحدها فارجة فخذيّها براحة، تتأمل وتعيش في سكونية، فتحبل به ثم تلده وتُلبّيه وتغذيه، ثم تتحول حياته إلى ما يشبه حياة حي بن يقظان العربي<sup>(68)</sup>.

وهذا زيوس عندما يرى الفتاة داناي محبوسة بأسر والدها الملك، خوفًا على عرشه من الزوال، في غرفة النحاس تحت الأرض، تُحبس حتى لا تكون أمًا... يقع زيوس في حبها فيجئها على شكل مطر ذهبي، يتنزّل عليها من كوة في أعلى السقف، فتحمل منه بمولود ذكر اسمه برسيوس، يكون له شأن فيما بعد بحسب الأسطورة الإغريقية فيصبح ملكًا بدل جدّه لأمّه!

كما نرى أنّ ميلاد أوريون العملاق كان ميلادًا عذريًا.. اجتمع زيوس وبوسيدون وهيرميس، وقرروا مكافأة ملك هيريا العاقر على استقباله لهم بحفاوة.. أخذ هؤلاء الآلهة الثلاثة جلد عجلة ثم بالوا عليه ودفنوه في الأرض، وبعد مرور تسعة أشهر الحمل خرج أوريون من الأرض. (نلاحظ العلاقة بين أوريون ويوريا (البول) في اللغة اليونانية).

وهذه الأساطير التي تأتينا من الهند، فتحدّثنا عن جزيرة تحت خط الإستواء يولد فيها المرء ميلادًا عذريًا، وفيها شجرٌ يثمر النساء (كما جاء في نص حي بن يقظان لابن طفيل). وفي فارس، نرى كذلك كيف تَمّت ولادة زرادشت بمعجزة إلهية... حيث حلّ ملاكه القادم من السماء في نبات اسمه "صوما"، وتداخل عصير النبات في جسم كائن شفاف في شعاع من السماء في جسد عذراء من أصل نبيل... فحملت بزرادشت.

وكما حلّ اللاهوت في الناسوت هنا في الزرادشتية كذلك حلّ في الهندوسية بكرشنا وراما اللذّين يتجسد فيهما الإله فشنو، كذلك حلّ في شخصية بوذا في بعض المذاهب البوذية.

ومن أساطير ولادة بوذا أنّ أمّه حملت به من ضوء القمر، وفي رواية أخرى أنّ أمّه حلمت به بعد أن زرع فيها براهما بذرتة، وكانت تطير بين الغيوم، تحيط بها الورد والعصافير.. حملت ببوذا ثم ولدته تحت شجرة... براهما هو الإله الذي أُملى على مانو والد البشر تعاليمه.

وكان بوذا قد ضحّى بنفسه تقدمه إلى لبؤة جائعة وفداءً للبشر...

وهناك عدة شعوب تؤمن بالقوى الماورائية للقمر ومساهمتها في التقويم ومعرفة الزمن وفي دورة الخصب عند النساء وقوة الخصوبة عند الرجال.

ومن ألقاب القمر "سين" وياراح ويريح.. ويرح هو إله القمر عند التدمريين.

في اليمن القديم يدعى إله القمر مُقّه.. والمرأة المستلقية عارية تحت ضوء القمر تخصب، والمرأة المنغولية تعتقد أيضًا بالقوى الإخصابية للقمر دون تدخل الذكر. كما وتعتقد بعض قبائل الهنود الحمر بتكساس بأن وقوف المرأة عارية في وعاء مملوء بالماء تمّ تعريضه لضوء القمر يبعث القوى الإخصابية في رحمها.

عزيزتي القارئة، عزيزي القارئ لا بأس عليكما من هذا الحشد المعلوماتي، الذي اعتبره تلخيصاً حراً للفكرة الأساسية في هذه النصوص. وعذرًا إذا ما أثقلت! لكن للحصول على الشهد لا بدّ من إبر النحل.

إن ما يهمننا هنا هو ليس تسخيف الأسطورة أو أسطورة الدين.

ولنعد إلى عشتار! والعشتاريات (نسبة لعشتار وهي أحد أسماء كوكب الزهرة)، هن منذورات المعبد، يذرن أنفسهن للجنس الإلهي.

وفي اليونان حلّت روح كوكب الزهرة في إلهة الأرض (جيا) والتي حملت حملاً عذرياً وأنجبت الإله "أورانوس" (السماء)، الذي يغطّي جميع جهاتها في صورة مضاجعة جنسية دائمة.

كذلك في العقيدة الفرعونية الإله "نوت" (السماء) في حالة التحام جنسي دائم مع الإلهة "جب" (الأرض). هذا الالتحام، هو المسؤول عن خروج النبات من بذرته، كلّ في موسمه. من هنا جاء معنى "جُب" بالعربية وهو الحفرة أو باطن الأرض، ومن هنا جاء الجبنوت (جب+ نوت) في الدين المسيحي وهو الإذن بالتزاوج بين الرجل والمرأة.

والمندورات للمعبد كن من طبقة النبلاء أو بنات العائلة المالكة. منهن يتتقي الكاهن الأكبر واحدة (تمثل عشتار)، التي تلقب فيما بعد "قاديشتو" أي "قديسة" أو "زانية الهيكل".... فإذا حملت، يُعتبر حملها حملاً إلهياً. وهي ممنوعة من معاشرة الرجال العاديين، تُلقب "بالعذراء" أسوة بعشتار العذراء دوما.

وهي عند الرومان تحمل لقب "ماري" وهم من أطلق على كوكب الزهرة اسم "ستيلا ماري" أي "كوكب البحر" لأن الماء يجعل الأرض تُنبِت النبات. وفي اللغات اللاتينية وكذلك الأنجلو سكسونية نجد نفس اللفظ Mare، Mary أو Maria... حيث أصبح الاسم "ماري" يطلق على كل إلهات الخصب، فهو عند السومريين "ميرها"، وعند اليونان "مايا" ولدى الهنود "ماريا"، وفي بلاد الرافدين "ماما" أو "ما" أو "أما".

ومن أساطير الكنعانيين والتراث العربي القديم أنّ الزهرة كانت امرأة فائقة الجمال، تمنّعت عن الرجال، وأوقعت ملكين في حبها، وعلمت منهما السرّ أو التعويذة التي يقولانها عندما يريدان الصعود إلى السماء. فصعدت، لكنها لم تستطع أن تنزل.. فبقيت مكانها.. وقد أشار القرآن الكريم لهذه الأسطورة في قصة "هاروت وماروت" كما جاء في سورة البقرة.

ويُروى عن عبد الله بن عمر أنّه كان يقول عندما يرى كوكب الزُّهرة: "لعنها الله هذه التي فتنت هاروت وماروت"، كما جاء في الموروث.

و"هبل" الإله الذي عبده العرب القدماء، وهو الاسم العربي لـ "بعل" البابلي أو "هْبعل" زوج "عشتار"، أحد أسماء كوكب الزُّهرة. وهي "عَنات" الكنعانية التي تحوّلت إلى "إيلات" زوجة "إيل" في الميثولوجيا اليهودية... وإيل هو اللات عند العرب.. وتلاقي الإلهة العربية اللات مع العُزّى ومناة (من المني)، هو رمز الخصوبة ووجوه ثلاثة لعشتار...

إذاً، ربُّها الأسطورة والدين حاجة إنسانية كما الكتابة والتعبير والفن وجميع أشكال الإبداع. لا يهمننا هنا القول بأن مسألة الميلاد العذري هي منطقيّة أو غير منطقيّة، فحين يتحدث الفينومينولوجي كارل غوستاف يونغ الرائد في علم النفس التحليلي عن هذه المسألة يكون معنيًا بواقعة وجودها في الذهنية البشرية، ولا يهّمه فيما إذا كانت صحيحة أم خاطئة. وهي بالتالي مسألة إيمانية لا تخضع للعقل وإنّما هي تصديق بالقلب.

"فهذه الفكرة، صحيحة سيكولوجيًا، من حيث إنّها فكرة موجودة، والوجود السيكولوجي هو وجود ذاتي بقدر ما تخطر الفكرة على بال إنسان واحد، وهو وجود موضوعي بقدر ما يترسّخ بإجماع الناس عليه.. والحق، فإنّ أفكارًا معينة تكاد توجد في كل مكان وكل زمان، وهي قادرة على أن تخلق نفسها بصورة تلقائية"<sup>(69)</sup>.

إنّ فكرة الميلاد العذري تردّدت كثيرًا في التراث الإنساني، وعند معظم شعوب العالم، خاصّة في أساطير الشعوب وأديانها السماوية وغير السماوية. وهذه الفكرة تمثي في نفس المسار الذي تفتق عنه ذهن ابن عربي في "الفتوحات" وهو النكاح المعنوي. فقد زوّج الله العقل الأول للنفس الكلّيّة، وكانت الطبيعة هي أوّل مولود ولدته النفس الكلّيّة. أي أنّ النفس للعقل هي بمثابة حواء لآدم، ويتابع ابن عربي قائلاً:

"فكان بين القلم واللّوح نكاحٌ معنويٌّ، وأثر حسيٌّ مشهود.. وكان ما أُودع في اللوح من الأثر مثل الماء الدافق الحاصل في الرحم، وما حصل من تلك الحكاية من المعاني المودعة في تلك الحروف الجرّميّة بمنزلة أرواح الأولاد المودعة في أجسامهم".



ويتابع ابن عربي معبراً عن عدم تعصّبه فيقول في "الفصوص": "فإياك أن تتقيد بعقد مخصوص وتكفر بما سواه فيفوتك خير كثير، بل يفوتك العلم بالأمر على ما هو عليه. فكن في نفسك هيوئلياً لصُور المعتقدات كلها، فإن الله تعالى أوسع وأعظم من أن يحصره عقد دون عقد، فإنه يقول، فأينما تَوَلَّوْا فثمَّ وجه الله." (70).

بالمعنى الحديث يقول لنا ابن عربي: إنّه علينا تقبّل الآخر والحوار معه وعدم إلغائه! وفي الواقع الحياتي من يحترم إيمانه فعلاً، عن وعي وقناعة، فإنّه لا بدّ أن يحترم إيمان ووعي وقناعة الآخرين... تماماً كما الواقع في مسألة احترام الآخر لأنه ينبع أولاً وقبل كلّ شيء من احترام الذات.

وعلى مستوى الإيمان الذي هو تصديق بالقلب فهو أيضاً ذو نزعة عاطفية، وأن المغالاة فيه هي تعصّب له، وفي التعصّب إلغاء للآخر، عندها "تغدو الفضيلة مرضاً إذا لم تلتطف ببعض الحيّد، ويصبح الإيمان جائراً إذا لم تُخفف بعض الشكوك من حدّته." كما جاء على لسان ابن عربي لدى فراس السواح.

الثقافة وحدها هي التي تحرّر الإنسان.. فحين قيل له: اقرأ! كان المعنى إحمل حملاً فكرياً! أي إحمل بلا دنس. وكلمة اقرأ تعني أيضاً بلغ (اقرأ السلام أي بلغه) وهي هنا لا تعني مفهوم القراءة السائد. والقرء لغةً هو الحيض. والحيض معنى، هو من إشارات الخصوبة. إنّها حيض النساء في المأثور العربي ففيه نقصان، لأن المرأة إذا حاضت تخسر دمّاً، فهي لا تصلي ولا تصوم، بعكس شعوبٍ أخرى لا ترى في الحيض دنساً. أما حمل المرأة لدى كلّ الشعوب، ففيه بركة وخلق جديد، وهي لا تحمل إلّا إذا حاضت. وعشتار وأمّنا الكبرى هما المخصبتان دوماً. كيف لا وإن المرأة والأرض هما المحور الأساسي في فكر الإنسان... في أرض دلمون (71) التي هي في الواقع البحرين وفي كل مكان وطّنته قدم البشر وفكره.

إنّ الأساطير خزانة هذا الفكر، وإنّ الحضارات هي أبهى تجلياته، منذ الإينوما إيليش وحتى العولمة على طريقة العم سام ومحاولة تدمير العراق الحديث، وسوريا واليمن، وليبيا

العراق حاضنة الحضارة الرافدية. وسوريا الأم الكبرى للبشرية، واليمن السعيد الذي فيه جنّات عدن والسدود والمياه.

لقد مرّت الحضارات الإنسانية بثلاث مراحل حسب مفهوم جيمس فريزر في مؤلفه العظيم "الغصن الذهبي" <sup>(72)</sup> وهي السحر والدين والعلم. ويضيف فراس السّواح مرحلة رابعة بعد الدين هي مرحلة الفلسفة وتواصليّتها بالعلم.

أمّا اليوم فنحن نعيش المرحلة الأخيرة... ربما!!؟

إنّما لا يعني هذا أنّ الحضارات في تطور مستمر.. إذ يشهد التاريخ قديمه وحديثه بوجود مراحل نكوص. فيها يرتد الإنسان بشكل عام إلى مرحلة سابقة. مثل ذلك مثل الدين ذاته الذي هو على المستوى الإيماني، يتحول في مراحل الانحطاط والأزمة إلى عنف، ويرتكس إلى مرحلة سابقة.. أعني السحر على جميع أنواعه، من الربط بين ظاهرتين طبيعيتين بدون علاقة سببية، من ظاهرة الاستسقاء إلى الاستخارة ومناجاة الأرواح وفتح الفئجان والضرب بالودع والرجم والغيب حيث يترسّخ "علم" الغيب والبحث في الما ورئيات وحتى الاعتماد عليها كليا. وقت الأزمة يصبح كلّ من الله! فيسيطر الانغلاق والتقوقع والخوف والعلم الزائف والفن الزائف والشعوذة والعرافة والكهانة إلى غير ذلك من مظاهر محاكاة الطبيعة... ففي مصر الآن يستفحل "بزنس الدّجل" وهنالك دجال لكل 120 مواطن <sup>(73)</sup>. لقد وصل الدجل إلى القضاء والصحافة المصرية. فقد حصلت سيدة مصرية على الطلاق لأنّ زوجها تزوج من بنات الجن. وقالت صحيفة الأهرام إنّ المحكمة استندت في قرارها إلى أنّ الجنّ مذكور في القرآن (!؟)

أمّا في مراحل الازدهار الحضاري والرقى يتحول الدين نفسه إلى رافعة للتاريخ وإلى قوة تحاول السيطرة على الطبيعة! بل حتى تحدّيها. يتحول المعبد إلى مدرسة تقديميّة وإلى مستشفى وإلى مقرّ العلوم الطبيعية كالفيزياء والكيمياء والفلك. وقد كان الكاهن في المعابد القديمة محرّكاً وفاعلاً في مثل هذه العلوم ويتحول من الرائي والحازي إلى الآسي والطبيب والمعالج النفسي. ويكون الانفتاح على العلم الحقيقي والفن الحقيقي والإبداع في الصراع الجدلي للتحكم بقوانين الطبيعة، وحتى بالعمل المتأثر على تحدّيها وتغييرها. ومثل

ذلك في كهنة المعابد الفرعونية وإنجازاتهم في العلوم الإنسانية من طبّ وفلسفة وهندسة وفلك، يتحول الدين من مجرد إيمان وتصديق بالقلب إلى فكر وجهد وإعمال عقل ودماغ وعلم تجريبي.

أعتقد أنّه لم تكن مجرد صدفة أن يعيش كلّ من كونفوشيوس ولاوتسو وبوذا في الشرق الأقصى وديموقرتوس وهيراقليتوس وسقراط في اليونان في نفس الفترة التاريخية حوالي 500 - 900 ق.م.

وكان في هذه الحقبة من تاريخ الإنسانية أن وصل الإنسان إلى منجزات ذلك العهد. كذلك ليس صدفة أن تزدهر نسبياً ديمقراطية أثينا في الفترة ذاتها حوالي 400 ق.م. ويظهر أفلاطون ومن بعده أرسطو وغيرهما من فلاسفة اليونان الذين يشار إليهم بالبنان.

ليس صدفة أن تحاول الأسرة السورية.. الأباطرة السوريون الذي حكموا روما سنة 200 ق.م. تقريباً، أن تحاول هذه الأسرة توحيد الديانات الشمسية، تماماً كما أنّه لم يكن صدفة أن يجيء بعد ذلك باربعمئة سنة أبولونيوس الكاهن الروماني الإفريقي المصري وفي حدود سنة 200م. ويحاول توحيد الديانات العشتارية القمرية. ويكتب كتابه الشهير والممتع الحمار الذهبي<sup>(74)</sup>.

ليس صدفة أن ترتحل الأساطير وتتناسل.

ليس صدفة، لأن الحضارات وحدة وسلسلة طويلة، كل حلقة فيها مربوطة بما هو سابق وبما هو لاحق! وأن الحقبة تمثل ما وصلت إليه كل حلقة من هذه الحلقات... في الإنجاز البشري... منذ اعتماد الأسطورة وحتى اكتشاف الذرة والفوتون والأكترين والنيوترينو والألبيون (The electron, neutrino, and the albiion).



## عملت لا تنهيه.. ومكايه لا تنهيه..

عن طريق الأسطورة حاول الإنسان البدائي تفسير العالم، الأحداث والظواهر غير المفهومة، مثل علاقة الخالق بالمخلوق. فجاءت أساطير الخلق، ومفاهيم الخطيئة والقربان للتزلف إلى الإله، والتكفير عن الخطايا.

من الملاحظ أن أساطير الخلق متشابهة، فيها يستعمل الخالق المواد الأولية، الماء والتراب والهواء. في فارس هبط الإله على شكل "ميثرا"، مات وقام من بين الأموات، وسوف يعود من جديد، ولد في 25 ديسمبر - كانون الأول حوالي سنة 700 ق.م.

وفي الصين نزل باسم "بوذا" (المخلص، الفادي)، وُلد ميلادًا عذريًا حوالي 900 ق.م. ومات في الثلاثين من عمره ورفع إلى السماء، وعند البراهمة الهنود جاء "كريشنا" الذي وُلد من دون أب، ميلادًا عذريًا، حوالي 800 ق.م. أما "بعل" البابلي فقد كان قبل كل هؤلاء، سنة 2000 ق.م. تقريبًا.

ولنلاحظ أن اسم والده بوذا هو "مايا"، حملت به حملًا مقدسًا وولدت بدون واسطة الرجل، وقد دلّ على ميلاده نجم ساطع ظهر في السماء... ووصل ذلك الخبر إلى الملك "جمارا" فسعى إلى قتله، لكن مايا هربت به ونجّاه. ولما مات ودفن، شق قبره وأعاد نفسه للحياة.

تعود نفس القصة في حكاية ميلاد وموت كريشنا، وأمه العذراء "ديفاكي"... ولدت في كهف مظلم في الشتاء، وعرفت إحدى بقرات الكهف ألوهيته فسجدت له. آمن الناس بذلك وقدموا لأمّه الصندل والطيب والبخور.. وكريشنا هو روح الإله براهما الذي خلق نفسه قبل الخلق. والبراهمة تقدمه مصلوبًا على الصليب فداءً عنهم.

تعود نفس القصة عند البابليين بخصوص الإله "بعل" الذي تحوّل إلى "هُبعل" ثمّ إلى "هُبِل" عند العرب. وقصة ملاحقة بعل وموته وقيامته في اليوم الثالث شبيهة بالأساطير سابقة الذكر.

انتقلت أو ارتحلت أساطير العالم القديم إلى الجزيرة العربية، وامتزجت قصص الخلق حتى التفاصيل الدقيقة. أصبحت من العادات والتقاليد ثم تحولت من طقس إلى دين.

هنالك تلوينات أخرى لحكايات الحبل بلا دنس... وقع زيوس في حبّ سيميلي ابنة قدموس، تزوّجها سرّاً، علمت هيرا زوجة زيوس الغيور، قالت لسيميلي تُشكك في حبّ زيوس لها، أنّه سيأتي إليها بصورة بشرية، ثمّ أغرتها أن تطلب منه أن يأتيها بصورته الإلهية حتّى تقبل معاشرته، حدّرها زيوس من أنّها لن تحتمله، لن تحتمل الصاعقة، لأنّه هو إله البرق والرعد، عاندت سيميلي وتمنّعت عن معاشرته.. فظهر لها على شكل شاب وسيم ربّاني، ولم يحتمل جسدها الجميل الرقيق تلك الصاعقة... فاحترقت، وكان في رحمها مُضغّة جنين لم يكتمل نُموّه بعد، فانتزعه زيوس، شقّ فخذه وخبّأه بعيداً عن عيني هيرا، وحين اكتمل نُموّه، شقّ فخذه وولده بها يشبه العملية القيصرية والميلاد العذري، وخاط الجرح بخيوط من ذهب. وسُمّي هذا الطفل ديونيسيسوس (ديو ني زيوس أي ابن الإله زيوس)، وكانت له حُظوة لدى آلهة الأولمب...<sup>(75)</sup>

وهناك في مصر الفرعونية حكاية أنوبو التي دُوّنت حوالي 1300 ق. م. (نفس المصدر).. كان أنوبو أو أنوب يعيش مع أخيه الأصغر باتو الذي كان يفهم لغة الحيوان مثل سليمان فيما بعد في الأسطورة التوراتية. وحدث أن اشتهدت زوجة أنوبو أخاه باتو فصمد أمام إغرائها وصدّها... فحققت عليه، واعتبرت ذلك طعناً في أنوثتها، (ولتذكّر قصة يوسف وامرأة العزيز فوتيفار!)، وادعت أنّه راودها... فحقّد أنوبو على أخيه باتو وأضمر له الشر، غير أنّ بقرة ذات صوت إنسانيّ علمت بالأمر ونبّهت باتو ممّا يُحَاك له، فهرب من وجه أخيه... وعندما علم أنوبو بالحقيقة قتل زوجته الغادرة المفترية على أخيه ظلماً. تزوّج باتو من امرأة جميلة شقراء الشعر، وحين اغتسلت في النهر سقطت من رأسها خُصلة شعر ذهبية، وقعت في يد الفرعون الذي وقع بدوره في غرامها، ففتّش عنها حتى

وجدها وتزوجها.. أمّا زوجها باتو فمات كمداً وذُلاً وقهراً، وكان قد وضع قلبه في عبّ شجرة سِدر. فوقعت منها نواة غلّفت القلب. ومن خلال إشارات سحرية اهتدى أنوبو إلى قلب أخيه باتو وأعادته إلى الحياة وسحره فتحول إلى ثور، أهده أنوبو إلى الفرعون.. وحاول استرجاع زوجته، لكنّها رفضت ترك نعيمها وحياة القصر الفرعوني، وأمرت بقتل الثور. سقطت قطرتان من دم الثور، حيث نبتت شجرتا لوز مرّ. ولتذكر أسطورة آتيس في فريجيا في آسيا الصغرى التي حملت به أمه سييل حملاً مقدساً جراء احتضانها غصن لوز. كشفت إحدى الشجرتين عن حقيقتها للزوجة الخائنة، فأمرت هذه بقطع الشجرتين، وتطايّرت شظيةٌ منهما إلى فم الزوجة فحملت حملاً مقدساً وأنجبت ولداً هو باتو عينه، شبّ الطفل واعتلى عرش الفرعون، وأمر بقتل أمّه، زوجته الخائنة... وعندما مات خلفه على العرش أخوه الأكبر أنوبو! نرى أنّ هذه الأسطورة مفكّكة وغير مترابطة وفيها عدّة عناصر من عدّة أساطير سابقة، ويظهر أنّها وُلدت في عصر متفكّك. ويذكر جيمس بريستيد في كتابه "فجر الضمير" (طبعة 1 سنة 2019 ص 247)، تلويحة أخرى، يبدو أنّها أقدم وأكثر اكتنازا وانسجاماً، فيها يتحول اسم الأخ الأكبر أنوبو إلى أنوبيس ويتحول اسم الأصغر من باتو إلى باتا. وكان أنوبيس يرعى هو وزوجته الأخ الأصغر، حتى أعجبت به الزوجة وراودته عن نفسها... فوبّخها هذا ووعدّها إنّ كَفّت عن مرادته أن يكتّم الأمر. لكن هذه الزوجة تقلب القصة وتدعي أنه هو الذي راودها.. فأضمر أنوبيس الشر لأخيه. وهنا تحذره بقرتان فيهرب الأخ الصغير من بطش أخيه الأكبر... وفي النهاية يكتشف أنوبيس تسرعه، ويعاقب زوجته الآثمة.

من هنا جاءت قصة يوسف التوراتية التي انتشرت في فلسطين الكنعانية قبل تدوين التوراة. وما يذكر أن أنوبيس هو إله مصري يحمل رأس ابن آوى.

بحسب الأساطير التي ظهرت قبل المسيحية نرى أنّ في معظمها تمّت ولادة الإله في 25 كانون الأول، ولهذا علاقة مع الطبيعة. ففي تاريخ 22 - 23 من الشهر ذاته يحدث الانقلاب الشتوي، وتبلغ الشمس في القطب الشمالي أدنى نقطة في قوتها.. أي أنّها "تموت" كما كان يعتقد القدماء. وفي 25 منه تبدأ الشمس رحلة العودة إلى الحياة، من الشتاء إلى الربيع إلى الصيف حيث تبلغ قمة قوتها، ثمّ إلى الخريف حيث تبدأ في الانحدار... وهكذا

دواليك. هذا هو السبب الذي حدا بالقدماء إلى الاعتقاد بأن الشمس تولد من جديد في 25 كانون الأول. ولذلك يُعتبر هذا التاريخ لدى المسيحيين تذكيرًا باحتفال وثنى قديم، شأنهم في ذلك بمعظم الاحتفالات المسيحية.. ففي 25 آذار (عيد الفصح وهو من الفصح العبري)، تدخل الشمس في برج الحمل، وكان القدماء يقدمون الخراف قربانًا لإله الشمس، ليرضى عنهم وليبارك حصادهم وبالتالي ليغفر خطاياهم... لقد اعتقد البابليون أن تموز (شاموز أو ديموزي) ابن الملكة سميراميس صُلب وتحت قدميه حمل، ومن ثم وُضع في كهف بناووس (قبر محفور بالصخر) وقام في اليوم الثالث وصعد إلى السماء. وهذه الثيمة تتكرر في عدة أساطير بالعالم القديم كما رأينا سابقًا وسنرى لاحقًا<sup>(76)</sup>.

ويضيف أيكه قائلًا: "وُلد من أمٍ عذراء، حملت به بلا دنس من خلال تدخل الروح القدس، لتتم النبوة القديمة، عند ولادته، أراد الحاكم الطاغية قتله، فحملة والداه وقرأ به إلى مكان أكثر أمانًا. فما كان من الحاكم إلا أن أمر بقتل جميع الصبيان من ابن ستين فما دون. ويوم مولده، أحاط به الملائكة والرعاة، وقُدِّمت له الهدايا من ذهب ولُبَّان ومُرّ.. عبده الناس لأنه المخلص، واتسمت حياته بالتواضع، وصنع معجزات شتى، فشفى المرضى، وجعل الأعمى يُبصر، وأحيا الموتى، وطرد الأرواح الشريرة، غير أنه صُلب بين لصين، ومات وقام في اليوم الثالث وصعد إلى السماء. قد تخالون أنّها قصة يسوع، أليس كذلك؟ لكنكم على خطأ، فهذه قصة المخلص فاريشنا varishna الذي ظهر قبل 1200 سنة من ولادة المسيح"<sup>(77)</sup>.

ويقدّم أيكه أمثلة أخرى على نفس النسق من العالم القديم. مثل كريشنا في هندوستان، وبوذا في الهند، وساليفاهانا في برمودا، وأوزيريسوهوروس في مصر، وأودين في إسكندنافيا، وكريت في بلاد الكلدان، وزرادشت ومثرا في بلاد فارس، وبعل وتوت في كنعان- فينيقيا، وأيندرا في التبت، وبالي في أفغانستان، وحاو في النيبال، وتموز في سوريا وبابل، وآتيس في فرجيا (آسيا الصغرى)، وبيدرو في اليابان، وثور في بلاد الغال (فرنسا)، وقدموس وذيونيسيوس وأدونيس وباخوس في اليونان، وجنتوت في المكسيك، وفوهي (تين) في الصين، وإيكسيونوكويرينوس في روما، وبروميثيوس في القوقاز.



ملاحظة أخيرة، ثمة من واجبي أن ألاحظها.. لست سبّاقاً في موضوع هذا الكتاب، يقول ممدوح عدوان في كتابه "حيونة الإنسان"<sup>(78)</sup>:

"فليس المسيح فقط ابن عذراء اتصلت بالروح القدس، بل إنّ بوذا كذلك، وبوذا لقب وليس اسماً، والكلمة تعني المستنير أو المستيقظ، "رأت أمّه حُلماً عن فيل جميل أبيض كالفضّة دخل إلى رحمها من خاصرتها، وسُئِلَ الحكماء عن تفسير الحلم، فقالوا إنها ستلد ولداً يصبح بوذا أو ملكاً عظيماً... وبعد عشرة أشهر من حملها ذهبت.. وفي حديقه.. ولدت، وحالما سمع الحكيم أستيّا. جاء ليرى الولد، ومن العلامات التي رآها على جسد الطفل عرف أنّه سيكون بوذا.. وبكى لأنّه لن يعيش إلى ذلك اليوم، وماتت أمّه في اليوم السابع بعد ولادته".

ثم يتابع عدوان في الصفحة التالية، حديثه عن الميلاد العذري، أنّه كذلك "هرقل ابن زيوس (كبير الآلهة)، وألّكمين حفيدة بيرسوس، وأفروديت ولدت من الرغبة الصادرة عن الأعضاء التناسلية للإله أورانوس (السماء) بعد أن قام ابنه كرونوس بإلقائها في البحر. ومثلما كان لبوذا والمسيح والنبي محمد علامات تدل منذ الطفولة على ما سيكونه فإن الحاكم يجد من يعيد له صياغة تاريخه ليقربه من هذا الوضع، فيكتشفون له أنّه كان في طفولته طفلاً معجزة خارقاً"<sup>(79)</sup>.



## وهذا الكتاب

حكاية لا تنتهي.. وبها أنها كذلك، فلا يمكن أن تكون له نهاية! هو نص مفتوح... ولا بد لي أن أشير مرة أخرى إلى البحث عن عمق الأسطورة وعمق المعنى فيها. هي لم تولد عبثاً، وهي خزانة الفكر البشري، وهي فن من فنون الأدب منذ فجر التاريخ المكتوب تارة، والمنقول شفاهة تارة أخرى، تتناولها أجيال البشر من جيل إلى جيل... ومن زمان إلى زمان، ومن مكان إلى مكان. ولها فضل السبق على جميع الفنون، حيث إنَّها كانت وما زالت مُتلازمة مع الطقس الديني بالرقص وبالشعر وبالترتيل وبالموسيقى لدى كل شعوب الأرض. حتى لو كانت أقرب ما يكون للخرافة.. فمن خلالها نعرف كيف تفكر الشعوب. كيف تتعامل مع الطبيعة الغاشمة العمياء، حيناً لتفسيرها وحيناً آخر للتغلب عليها وعلى قوانينها والتحكّم بها...

إنَّ أصل كلمة أسطورة في اللغات السامية هو من سَطَرَ وسَطَّر، أي من الكتابة، وفي اللغات الأنجلوسكسونية أصلها من مِثوميتوسوماوث، أي الفم، منه تخرج أصوات النطق أو الحديث أو الخراف.. وخرافة هو اسم علم عند العرب القدماء، كان يُحدّث بأشياء خيالية وغير معقولة، فيقال: حديث خرافة.

الأسطورة هي تأليف جماعي كما أسلفت، مثل ذلك العهد القديم، فكل أساطيره مُتصلة بالأساطير التي سبقتها، حبكها أحبار اليهود على مدار 500 عام ومنذ السبي البابلي حوالي سنة 600 قبل الميلاد. متأثرين قطعاً من أساطير شعوب المنطقة، مجيئها لصالحهم... وبالتالي لقد تأثرت المسيحية والمحمديّة بأساطير العهد القديم، كل بحسب ظروف البيئة التي نشأ فيها... وكانت الطامّة الكبرى في النرجسية الدينية، والتي أصلها في ذلك العهد الذي قطعه الربُّ يهو لشعبه المختار بأن يعطيه أرض كنعان!

كثيراً ما تتشابه الأساطير القديمة السورية والعراقية وآسيا الصغرى، من جبال طورُس شمالاً إلى النيل جنوباً ومن الصين والهند وفارس شرقاً إلى قبرص وكريت وروُدُس وبحر

أمورو غرباً... وغالبًا ما ترتحل الأساطير وتشابك وتشابه حتى مع أساطير البلاد التي اكتشفت حديثًا أي قبل ما يقارب الثلاث مئة عام (أستراليا والأمريكيتين)، لأنّ العالم وحدة والعقل البشري وحدة في جميع أنحاء الأرض والحضارات متكامل. لقد رأينا أنّ أساطير الخلق متشابهة عند كلّ الشعوب وأنّ مادّتها الأوليّة هي عناصر الطبيعة. لذلك نراها ترتحل في التاريخ والجغرافية، حتى أصبحت علمًا- الميثولوجيا! تحتوي الميثوس والحكاية والخرافة والفايول.. وهي تتميز أنّها تأليف جماعي كما جاء، يعالج المسائل الكبرى ويحكي عن صراع الآلهة فيما بينهم وفيما بينهم وبين الإنسان، ويفسّر بشكل ساذج مظاهر الطبيعة والقوى العليا، ويأتينا بالعبرة والأخلاق والقيم كالإخلاص والصدق وعدم النميمة والغيرة والغرور والحسد والشجاعة وطاعة الوالدين والعشيرة وحبّ الوطن والغنى والفقر والنزاهة وعدم التعصّب والعادات والتقاليد، البالية منها والمتجدّدة، والسعادة والجنس والمرأة وحفظ النوع...

من مميّزات الأساطير أنّها أيضًا تتناسل وتتوالد وتعتمد المبالغة والتكرار.

وهذا الكتاب لا يقدّس الأسطورة ولا يستخفّ بها.. وكانت قد اختمرت فكرته قبل نيّف وعشرين عام فبدأت كتابته تحت ظلال شجرة الغار بالمركز الثقافي البلدي في الناصرة، حتى وصلت إلى فكرة الحثّ على قراءة الأساطير الدينيّة وغير الدينيّة قراءة رمزيّة وتأويلية، وبمنطق عقلنة الدين، أي دين، والفصل الحاد بين هذا الدين أو ذاك والأساطير، وتهوية التاريخ والموروث لحدّ القطع بهدف تخليصه وبالتالي تخليصنا من النرجسيّة.

خلال العشرين سنة الماضية، كنت أعود إلى هذا النص، أهذبه وأنقص منه وأزيد عليه.. وحين ابتعدت عنه رأيته بشكل أوضح، حتى خلّطت أنّني لست أنا الذي كتبه! أو حملت به حملًا بلا دنس، وحكاية لا تنتهي...

إنّ بستاننا مليء بالأشجار المثمرة.. علينا أن لا نكلّ ولا نملّ من تطعيم هذه الأشجار، لأنّ تطعيم شجرة من أختها ينتج لنا شجرةً ثالثة جديدة، مثل تزاوج الأنثى والذكر ينتج

بناتٍ وأبناءً وجيلاً جديداً. يقول مارون عبّود: "فاستلهم الآداب الأخرى كاستنشاق هواء جديد، يكسب النشاط والعافية، على شرط ألاّ نلهمس ما على موائدنا" (80).

أي أنّ التآثر بآداب وثقافات وحضارات الشعوب الأخرى شيء ضروري حتى تدبّ الحياة في أدبنا وثقافتنا وحضارتنا، ولكي نتخلّص من مومياءنا المقرّزة.

وعليه ومن هنا تتوالد الأساطير، والأسطورة كما جاء، هي تفسير منطقي لما يراه الإنسان غير منطقي، وطموح الإنسان للألوهية مستمر منذ فجر التاريخ. ومثلنا في جليجامش في الأسطورة والتاريخ القديم كمثلنا في أي زعيم من العالم الثالث اليوم، الذي يريد بُعْداً دينياً لشخصه، يمنحه القدسيّة كظل الله على الأرض أو كأمير للمؤمنين أو كسليل للأنبياء أو الأئمة، ثم يأخذ أو يهبأ له أنه يأخذ صفة الديمومة التي هي من صفات الله. كما يقول ممدوح عدوان.



## الهوامش

- 1- غوتيه يوهان فولفغانغ فون- مختارات شعرية، ترجمة فؤاد رفقة، دار صادر- بيروت 1999 مع معهد غوتيه بمناسبة مرور 250 سنة على ميلاده.
- 2- غوتيه- المصدر السابق، قصيدة الإلهي.
- 3- إيكيلوف غونار- حكاية فاطمة، ديوان شعر، ترجمة موسى الصرداوي، إصدار دار الكرمل ط 1 عمان 1994.
- 4- المصدر السابق ذكره.
- 5- غونار إيكيلوف، المصدر ذاته، القصيدة 28 / 1.
- 6- غونار إيكيلوف، المصدر ذاته، القصيدة 29 / 2.
- 7- غونار إيكيلوف، المصدر ذاته، القصيدة 12 / 1.
- 8- السواح فراس- جلجامش، ملحمة الرافدين الخالدة، دراسة شاملة مع النصوص الكاملة وإعداد درامي. منشورات دار علاء الدين. ط ب، دمشق 1996.
- 9- السواح- المصدر السابق، ص 15.
- 10- د. إبراهيم نبيلة، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار نهضة مصر، القاهرة- ط 2، السنة غير مذكورة ص 146.
- كما ونرى نصا مشابها لدى فراس السواح. ملحمة جلجامش المذكورة أعلاه في الهامش رقم 8 ص 20، 21 حيث جاء فيها:  
"أنا صارغون، الملك العظيم ملك أكاد.  
أمي كانت كاهنة معبد، ولم أعرف لي أباً.  
أعمامي أحبوا المناطق الجبلية (وسكنوا فيها).

ومدينتي اسمها أوزويرانو على ضفة الفرات.  
حملت بي أمي الكاهنة، سرًا.  
(وعندما ولدتني) وضعتني في سلة من القصب ختمتها بالقار، وأنزلتني في الماء  
الذي لم يغمرني. حملني النهر وساقني إلى البستاني آكي.  
انتشلني البستاني آكي عندما كان ينضح الماء بسطله.  
وأخذني إليه كابن له وربّاني.  
جعلني آكي البستاني أعمل بستانًا في أرضه.  
وبينما أنا أعمل في البستان منحنتني عشتار حبها  
فصرت ملكًا..."

يقتبس السواح هذا النص من كريم طبعة جيمس بريشارد- نصوص الشرق الأدنى  
القديم. برينستون 1969 ص 119 كما يشير، وربما أن النصين يعتمدان على أوتورانك-  
الأسطورة وميلاد البطل 1959.

لا ضرورة أن نسأل؛ من سرق ممن؟ أسطورة موسى التوراتية جاءت بعد ألف سنة  
تقريبًا بعد أسطورة سرجون الأول.

11- السواح- المصدر السابق، ص 28، 31- وكانت مدينة أوروك قد وصلت قمة  
مجدها وازدهارها عام 2600 ق.م. في عصر الأسرات الأولى، لكن حضارتها تعود إلى ما  
قبل ذلك التاريخ بألف عام.

12- السواح- المصدر السابق، ص 276.

13- عبد الحكيم شوقي- موسوعة الفولكلور والأساطير العربية، دار العودة، بيروت  
1982، ص 382، 392 يعود تاريخ الحضارة السورية إلى حوالي 5000 سنة ق.م. وفيها  
الكثير من أساطير الخلق التي ورثتها البابليون والحثيون الكنعانيون.



14- الماجدي خزعل - سلسلة التراث الروحي للإنسان 6، المعتقدات الأموريّة - دار الشروق، عمان 2002.

15- بدوي عبد الرحمن - شخصيات قلقة في الإسلام، سيناء للنشر، الطبعة الثالثة 1995 ص 59.

16- السواح فراس، لغز عشتار - دار علاء الدين، دمشق، الطبعة الثامنة 2002.

17- الماجدي خزعل - سلسلة التراث الروحي للإنسان 4 - المعتقدات الآرامية، دار الشروق - عمان 2002 ص 149.

18- طوغان وليد - ط 1، دارالخيال، 2004، ص 159 - 162. 19.

19- العاتكة هي المرأة البضة البيضاء الماريّة التي تعطر جسدها بالطيوب فيحمر لونه نتيجة التهاب ضعيف للجلد. والديمة هي الغيمة الممطرة وأما الرّهام فهو الرذاذ أو المطر الخفيف الدائم، ينعش الأرض دون أن يجرفها. "أبو رهم" هو إله المطر عند العرب وقد تحول مع الزمن إلى "أبراهم" وقد تزوّج من "آل سرّة" إلهة سرّة عسير التي كانت في الأصل عاقراً فأخصبها فولدت "يصحاق" إله الآبار الضاحكة أو "الضحّاكة". (كما جاء في دراسة كمال الصليبي - خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل، دار الساقى، ط 4، 1998 بيروت/ لندن ص 131، 254) وفي اللغة العربية ضحكت البئر أي فاضت، وقهقه أي فاض.

20- الأندلسي ابن حزم - طوق الحمامة في الالفه والآلاف. تحقيق د. إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى 1993.

21- مستغانمي أحلام - فوضى الحواس، دار الآداب بيروت، ط 2، سنة 1998.

22- عبد الحكيم شوقي - المصدر السابق - "البن" هو أحد ملوك الشام الذي بطش باليهود عام 1300 ق.م في عصر القضاة. وأصبح هذا الاسم رمزاً للشؤم نتيجة التزاوج الحضاري العربي والعبري.

23- السواح فراس- المصدر السابق ذكره- ملحمة جلجامش. ص 113 وجاء في وصف أنكيديو: "يكسو الشعر جسده، وشعره كشعر امرأة. خُصَلات شعره تندفع كسنابل قمح، لا يعرف الناس ولا البلدان، عليه ثياب كسومقان (إله المراعي الذي يرتدي جلد الحيوان). يرعى الكلاً مع الغزلان، يرد الماء مع الحيوان"....

24- الحلاج 858 - 922م الحسين ابن منصور الحلاج.

عمل والده (ويقال جدّه) في حلج القطن (أي إخراج بذوره) ومن هنا جاء اسمه. تتلمذ على الشيخ سهل التستري لمدة سنتين عندما كان في السادسة عشرة وحتى الثامنة عشرة من عمره حيث عاش في تستار وتبعه إلى البصرة ثم فارقه وغادر إلى بغداد وتتلمذ على شيخه الجنيد ثم عاد إلى البصرة فأخذ خرقته الصوفية من عمرو المكي رفيق الجنيد.

تزوَّج من ابنة يعقوب ابن الأكتع وبنى منها ثلاثة بنين وبنّات، واعتمد على صهره في حياته المادية، ثم عاد إلى بغداد وتابع تتلمذه على الجنيد.

نصحه الجنيد بالوحدة والهدوء النفسي مع علمه بما يعتمل في أحشاء الحلاج من حبّ الناس ومساعدتهم.

كان الحلاج من أوائل الصوفيين الإسلاميين الذين قالوا بالاختلاط مع الناس وهدايتهم لا بالابتعاد عنهم أو الزهد والتوحد والحياة الفردانية.

حجّ إلى بيت الله الحرام وعاش في مكة لمدة سنة، وقيل إنّه عندما عاد إلى بغداد زار الجنيد. وعندما قرع الباب. قال الجنيد: من هناك؟ فأجابه: أنا الحق. فعرفه الجنيد وتوجه إليه قائلاً: "الحلاج يا حبيبي! كن حذرًا بما يتعلق بأسرار الله فلا تعطهم لمن لا يستطيع فهمهم. ثم أضاف: سيأتي قريباً ذلك اليوم الذي فيه سوف تشعل النار في قطعة من الخشب".

كان الحلاج محبوباً من قبل العامة لكنه رُفض من قبل علماء الدين والخاصة الذين اتهموه بالزندقة، (الزند هو كتاب شرح الافستا لزرادشت ومنه جات لفظتي الزنديق والزندقة). بدأ حاله يضيق لكنه تابع تجواله في خراسان وترانسوكسانيا وسيستان

والأهواز جنوب غرب إيران، ثم غادر إلى الهند والسند والصين وكان له أتباعٌ ومريدون خاصة في السند ووادي الهندوس وخراسان وتركستان وطرفان.

عاصر ثورة الزنج على العبوديّة، وكانت له علاقة وثيقة بالقرامطة وهم ذوو أصول قرشيّة، وكانت ثورتهم قد بدأت في شبه الجزيرة العربية فاحتلوا دمشق وحمص وحماة واحتلوا اليمن سنة 906م كما واحتلوا الكوفة وهددوا بغداد قبل عام من إعدام الحلاج (921م) كما وقد أقاموا دولة في البحرين.

وكان لقب الحلاج في الهند "أبو المغيث" وفي الصين "أبو المعين".

ومن أتباعه إبراهيم بن فاتك ومن أصدقائه الشبلي والنوري وهو أبو يزيد البسطامي. من كتبه أخبار الحلاج وكتاب الطواسين الذي يتألف من ثمانية فصول يُدعى كل واحد منها "طاسين" والذي ألفه في السجن خلال ثمانية أعوام، وقد دامت محكمته تسع سنوات. وكان هدفه من كتاب الطواسين توحيد طرق العبادة عند بني البشر في روحها وحقيقتها.

وله باع طويلة وخطيرة في مسألة إسقاط الفرائض ومن أبرزها ما دعا إليه بمسألة الحج. قال إنّ هناك بعض الفرائض التي يجب علينا استبدالها إلى ما هو أنفع أنيّا. فمثلا في ظروف معينة من الممكن استبدال فريضة الحج إلى إطعام وكسوة اليتامى والمساكين والمحتاجين وإدخال الفرحة إلى قلوبهم في عيد الأضحى.

وقد جاء في كتاب شخصيات قلقة في الإسلام المشار إليه (في الهامش رقم 15) أنّه قال بهذا الخصوص:

علينا تجاوز الشعائر حتى نصل إلى الحقيقة الإلهية، الجوهر هو المهم لا الوساطة وما الشعائر إلا وسائل.

وقال أيضا إنّه يكفي أن نقوم بتطهير ركن في البيت ونضع في وسطه ما يشبه الكعبة ونطوف حولها. ويقال إنه أقام في بيته كعبة مصغّرة.

واعتبر أنّ الحج يفيض بالغفران على جميع الناس لا على المسلمين وحدهم دون غيرهم، إذ إنّ الحلاج كان يفكر في الإنسانية جمعاء عبر الديانة الإسلامية، ومن هنا عظمته وشموليته وانتشار أفكاره حيث كان محلّ.

لقد وجد الحلاج في رفض إبليس السجود لآدم (صورة الله) كبرياء العاشق الغيور الحسود. ووجد في الشيطان صورة المؤمن الموحد الذي يجلب لنفسه العذاب حباً في الذات الإلهية التي لا شريك لها.

"فالحلاج بقي مخلصاً للشريعة والأخلاق، سيموت ملعوناً، في قبول كامل لمشيئة الله" (المصدر السابق، ص 120).

فشلت جميع توسلات "شغب" والدّة الخليفة المقتدر لإنقاذه بسبب وقوع الخليفة تحت ضغط علماء الدين والسياسة. وكانت شغب من مريديه وهي من أصول روميّة.

و.. صُلب الحلاج ثلاثة أيام صلب الاشتهار بعد أن صُرب ألف سوط ثم قطعت يدها ورجلاه خلفاً خلافاً أمام جمع غفير.

ويروى أنّه بقي ليلة كاملة هكذا مجدوعاً حتى حضور الوزير المكلف بالنطق بالحكم ووصول أمر الخليفة بالإجهاز عليه.

"سقطت رأسه وصبّ الزيت على جده وأحرق بالنار وألقي برماده من أعلى المثانة في الدجلة". (المصدر السابق ص 125).

يروى أنّه عندما بُترت يده ورجله المخالفة أخذ منها دماً ومسح به وجهه حتى لا يبدو شاحباً ولكي يبقى كالوردة التي تأبى الذبول فتتمو وترعرع في سكرة الوجد. (المصدر السابق ص 138) وقيل إنّ الشبلي ذلك التركي النبيل الذي أنكره نصف إنكار إبان محاكمته مرّ به وهو في تلك الحالة وألقى بوردة حمراء عليه وهو مستطار الفؤاد. (المصدر السابق ص 131). كما يروى أنّ شغب ظلت تحتفظ برأس الحلاج في "كنز الرؤوس" الخاص بالقصر لمدة سنة كاملة. (المصدر السابق ص 132).

لقد تحوّل الحلاج إلى أسطورة وحيكت عليه بعض الخرافات والحكايات الشعبية. ففي تركيا يعتقد الناس أنه بمجرد ذكر اسمه يتوقف بكاء الأطفال وأصبح قبره الخالي من رفاته في بغداد كعبة ثانية.

ومما يروى عنه أيضاً أنّه عندما حجّ لأول مرة صام وصمت وتبتّل اقتداءً بمريم العذراء التي فعلت هكذا "استعداداً لميلاد كلمة الله فيها" (المصدر السابق 106).

مما يعيدنا لمسألة القرء (الحيض) والحبل الفكري أي الحمل بالكلمة المقدسة إذ إنّ الوحدة والصمت والتزهد يعين على تكوين الكلمة الجوهرية في قلب الزاهد والعابد.

وهكذا فيما تلا وعند إعدامه بقي الحلاج في حالة من الوجد تجاوزت حدّ الكون المادي كالمسيح عليه السلام، كروح الله، كالحق الذي فيه انصهر وتماهى حتى قال: "أنا الحق والحق أنا والله في جبتي". وقال شعرا:

بيني وبينك إني ينازعني فارفع بإتيك إني من البين

وقد تجاوز في هذا الوجد الصوفي الأنا والحواس والنفس والروح.

يعتقد أحمد أمين أنّ سبب مقتل الحلاج هو سياسي بحث وإن اتخذ شكلاً دينياً. فقد كان الحلاج قرمطياً شيعياً إمامياً، حاد المزاج. (ظهر الإسلام، الجزء الثاني، ط 3، ص 75) لقد دعا الحلاج إلى "تحرير الإرادة من سيطرة الإيديولوجية"، واشتهرت صياغته بنظرية الحلول، في محاولة أكاديمية لإلغاء مسؤولية الفقهاء عن الدين وتحرير الدين منهم. في هذا فهم جديد لمعنى الثورة في تاريخ الإسلام، وكان قد جاء المفهوم الأول على أساس التدمير بالقوة، مثل ثورة القرامطة. من هنا من الممكن أن تلخص فكرة الحلاج في استعادة مبدأ الإرادة الجماعية في الإسلام بالاعتماد على لغة الإسلام ومفرداته، وإنكار مسؤولية الفقهاء. لذلك وعلى حدّ قول الصادق النيهوم في كتابه محنة ثقافية مزوّرة (دار الرّيس، ط 3، 2000، ص 86) إنّّه عندما أطبق الفقهاء على الحلاج وقدموه إلى المحاكمة، لم يحاكموا رجلاً إنّما حاكموا شرع الإسلام، وكانت الكارثة، لأنّ الحلاج الأعزل الذي نادى بحق الناس ضدّ الدولة والمؤسسة الدينية، فأصبح عدو الله، وأصبحت الدعوة إلى رفع الظلم هي الفساد! وغدت المحكمة هي شرع الله العادل! فقاضي المحكمة أبو الحسن الأشناني

يفتح الجلسة باسم الله، ويصبح الناطق باسم الله ورسوله معاً. من هنا جاءت عظمة  
الحلاج الذي تحدّى سلطة الفقهاء وهو يعرف تماماً أنّ موازين القوى ليست في صالحه.  
وغدا صراع الحلاج هذا مفتوحاً على كل الأزمنة والأمكنة العربية والعالمية وظيفه عابراً  
لكل العصور برؤياه الحرة...

من المفيد هو أن نذكر بعضاً من أشعاره:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا  
فلإذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا  
أيها السائل عن قصتنا لو ترانا لم تفرّق بيننا  
روحه روحي وروحي روحه من رأى روحين حلا بدنا؟

ألا أبلغ أحبابي بأني ركبت البحر وانكسر السفينة  
على دين الصليب يكون موتي فلا البطحا أريد ولا المدينة

أقتلونني يا ثقاتي إن قتلي في مماتي  
ومماتي في حياتي وحياتي في مماتي

نديمي غير منسوب إلى شيء من الحيف  
سقاني قبلما يشرب كفعل الضيف بالضيف  
فلمّا دارت الكأسُ دعا بالنطع والسيف  
كذا من يشرب الراح مع التنين في الصيف

ولنرجع لأسباب اضطهاد الصوفية، وهي ليست دينية وإنما سياسية، ترجع في الأساس إلى المضمون العقائدي الذي احتوته الصوفية، كحركة فكرية. يقول شهيد الفكر حسين مروة في كتابه النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية (دار الفارابي، ط 4، 1981، ص 306) إنّ هذا المضمون الأيديولوجي هو "إجمالاً- إقامة علاقة جديدة بين الله والإنسان توازي في الظاهر علاقة النبوة التي يقوم عليها الإسلام بكامله. ولكن المرمى الأبعد للعلاقة الجديدة، هو إزاحة العلاقة "النبوية" لا موازاتها. ذلك من حيث الشكل، موقف ديني. وهو في حقيقته موقف أيديولوجي يقصد إلى الانفكاك من التبعية المطلقة لشريعة النبوة، لأنها كانت تعني التبعية للنظام الاجتماعي الذي كان يعتمد الشريعة تعبيراً عن أيديولوجيته، وتأييداً لسيطرته... وليس من أساس واقعي لتفسير اضطهادها بدوافع دينية فقط. فإنّ تاريخ العصور الوسطى الإسلامية حافل بالمخالفات الفاضحة لأحكام الإسلام وشرائعه من قبل الخلفاء العباسيين بالأخص وبطاناتهم، فكيف لم تكن المشاعر الدينية رادعة لهذه المخالفات، وكيف لم يقف منها الفقهاء موقف الحماية للدين فينكروها، أو يؤلّبوا الجماهير على مرتكبيها كما كانوا يؤلّبونها على فلاسفة الصوفية بوجه خاص؟" يقول المستشرق كلود كاهان: "ومن النادر أن يسلك الإسلام سلوك التعصّب في الحالات التي لا تتدخل السياسة". (المصدر ذاته ص 312) ولذلك وتأسيساً عليه فإنّ الإسلام دين سمح بشكل عام، خاصة في آياته المكية التي تشكل ثلثي القرآن، أما إذا دخلته السياسة أصبح دموياً متعصباً، حتى على رؤسائه، إذ إنّ ثلاثة من الخلفاء الراشدين الأربعة قتلوا ذبحاً.

25- شافاق إليف- قواعد العشق الأربعون، ترجمة خالد الجبيلي، طبعة جديدة 2016، طوى للثقافة، توزيع منشورات الجمل- بغداد، ص 500.

26- العلوي هادي- المستطرف الصيني "من تراث الصين". دار المدى للثقافة والنشر، ط (1) دمشق وبيروت ونيقوسيا 1994، ص 128. تسخيف الأدعية والتراتيل. عاش الفيلسوف وانغ تشونغ ما بين السنوات 27-97م.

27- دَلُون: هي جنة عدن السومرية. وقد جاء وصف لها في أسطورة إنكي ونخرساک أو ننخرساج لدى ناجح المعموري بدراسته "الأسطورة والتوراة"، ص 53 الذي يشير إلى صموئيل نوح كريم في كتابه الشهير "ألواح سومر" كما يلي مع شيء من الاختصار: "دَلُون هي الموطن الطاهر... المحلّ النظيف... الأرض المشرقة وفيها لا تصرخ الحداة والأسد لا يفتك والذئب لا يفترس الحمل... وامرأة دَلُون العجوز لا تشكو من الشيخوخة". وهناك في دَلُون الجنة الأرضية عاش الإله إنكي وزوجته ننخرساج. وخلق الإنسان. ومن المثير حقاً أنّ الأساطير الرافدية لا تشير إلى فردوس سماوي- كما يلاحظ الماجدي في دراسته الحديثة "ميثولوجيا الخلود" التي صدرت 2002 عن الأهلوية للنشر والتوزيع بعمان- ودَلُون هي البحرين حالياً والتي تقع خلف بحر الظلمات بأسطورة جلجامش حيث يقابل فيها أوتونابشتيم- وهو نوح البابلي- الذي يرشد جلجامش إلى نبتة الحياة.

ولنلاحظ أيضاً أنّ التراث الرافدي اهتم بالحياة على هذه الأرض، وبالخلود في هذه الحياة ولم يُعر انتباها للحياة الثانية أو الخلود ما بعد الموت كما أكّدت الحضارة المصرية في وادي النيل. والخلود المعنى هو خلود الذكر بعمل الخير وخلود الجنس البشري عن طريق التناسل...

فالأم الأولى تُعامه (تيامت) مخصبة دوماً منها كانت الأرض وإنانا مخصبة دوماً، كذلك عشتار في جميع تجلياتها مخصبة دوماً لا يثلم التوالد وفعل الجنس بكارتها كالحور العين في الميثولوجيا الإسلامية- الفردوس الإسلامي السماوي.

28- شافاق إليف، المصدر السابق ذكره في هامش 25.. وجلال الدين الرومي هو مؤلف المثنوي وهو الشاعر الفارسي المسكون بالحبّ الإلهي. ولد سنة 1207 م. وكان ابن ثلاثة عشر عاماً عندما اجتاحت المغول بقيادة جنكيز خان المشرق الإسلامي وسقطت بغداد. تجول هذا الصوفي في المشرق حتى بلغ حلب ودمشق.. وحتى التقى بالدرويش الأمي المتجول شمس الدين التبريزي، الذي أثر عليه كثيراً عبر حواراتها الجميلة. وكانت العلاقة غير المنفصمة حتى ترك الرومي تلامذته ومريديه والتصق بالتبريزي. وحتى كثر



حُسَّاد شمس الدين التبريزي فقتلوه، فأثر موته تأثيراً عظيماً بالرومي.. حيث عبر عن أحزانه بالشعر الصوفي وبالرقص الدائري.. وكتب ديوانه "شمس تبريز"، فأبدع في تطوير المعاني والرموز والأمثولات أو الأليغوريّات والمجازات التي تلمح إلى الله وانعكاساته في كل الأشياء. أمّا ديوانه المثنوي فقد أطلق عليه الشاعر الفارسي عبد الرحمن الجامي "قرآن الفارسية".

قال جلال الدين الرومي في المثنوي شعراً:

أنصت للنأي كيف يقص حكايته.. إنّه يشكو آلام الفراق، إذ يقول:  
"إنّني منذ قُطعتُ من منبت الغاب.. والناس رجالاً ونساء سيكون لبكائي، إنّي أنشد صدىً مزقه الفراق.. حتى أشرح له ألم الاشتياق، فكل إنسان أقام بعيداً عن أصله.. يظل يبحث عن زمان وصلة".

وأصل النأي هنا هو منبته أي خالقه. وقال أيضاً: "أسأل أحدهم ما هو الحب؟ الرد ستعرف عندما تضع فيه"... "عندما يسكن الحب قلبك، كن واثقاً أنّه قد عَشش في القلب الآخر... عندما يمتلئ قلبك بالحب الإلهي، لا شك أنه الله يحبك".

29- العلوي هادي المستطرف الصيني السابق ذكره.

30- السواح - ملحمة جلجامش المذكورة أعلاه، ص 248.

31- د. محرز سامي - بقلبي لا بعقلي، رواية صادرة عن دار الكرمل، عمان، 1999، ص. 32-37.

32- مينا حنا- الشمس في يوم غائم، منشورات صلاح الدين - القدس 1977، ص 100-109. وفي هذه الرواية يصف حنا مينا رقصة الخنجر ببراعة. يمسكه البطل بيده اليمنى ويبدأ بالرقص. يعلو ويهبط ويلوّح بالخنجر ويدور ويلفّ ويضرب الأرض بقدميه فيكاد يثقبها فتكون دوائر من البرق. يقول لها: أفيقي.. أفيقي يا ابنة الكلبة!

وهنا لا بدّ من ملاحظة وجه الشبه بين شخصية البطل عند مينا وشخصية زوربا اليوناني عند كازانتزاكس، وكذلك بين رقصة الخنجر ورقص الريمبتيكو كما سنرى لاحقاً.

33- هذه هي مقولة شبلي شميل المشهورة. وشميل كان طبيباً سورياً من مؤيدي نظرية داروين بمسألة النشوء والارتقاء. وهو كذلك من رواد النهضة القومية العربية منذ بدايات القرن العشرين، وقد اغتيل في عيادته بدمشق بسبب مواقفه الراديكالية من عصر النهضة إلى عام 1985، كما جاء في الموسوعة الفلسفية (القسم الثاني المجلد الثالث الدراسات الخاصة، ط بيروت 1990، ص 519-520). إنّ شبلي الشميل وفرح انطون يتميزان بموقف راديكالي سلبي من الدين. ويقول ألبرت حوراني "كان العلم يعني عند الشميل النظام الميتافيزيقي الذي بناه هكلي وسبنسر في إنجلترا وهاكل وبوختر في ألمانيا على فرضيات داروين الحذرة". ويميز الشميل بين الدين ورؤسائه، ويدعو إلى فصل الدين عن الدولة، ليخلص إلى القول: "لأنّ الدين عنصر تفرقه، لا بحدّ ذاته، بل لأنّ رؤساء الدين يبذرون الشقاق بين الناس، مما يبقي المجتمعات ضعيفة، والأمم تقوى بمقدار ما يضعف الدين".

وكان هذا المفكر المسيحي ديناً، العربي قومية، الإسلامي حضارة قد لجأ إلى "مفهوم العلمنة أي الفصل بين الدين والدولة، لإيجاد الأرض المشتركة التي يمكن أن يلتقي عليها المسلم والمسيحي على السواء".

34- السواح عن ابن عربي.

35- السواح فراس - جلعامش.

36- السواح فراس - جلعامش، السابق ذكره، ص 247.

37- السواح فراس - المصدر السابق، ص 232-233، العمود السادس من اللوح الحادي عشر، النص الكامل للمحمة جلعامش، هو الذي رأى.. عنه جاء في اللوح الأول، العمود الأول.

"هو الذي رأى كلّ شيء وتضلّع بكل شيء".

... هو الذي عرف كل شيء وبكل شيء تعمق

...ونقش في لوح من الحجر كل أسفاره" ..

38- عبد الحكيم شوقي - المصدر السابق، ص 382 - 392، ونلاحظ هنا في أساطير

الخلق الأولى بالحضارة السومرية كيف ظهرت الأم الأولى.

39- الربيعي تركي علي - مجلة مواقف، عدد 72، صيف 1993، ص 237، العنف

السياسي في الميثولوجيا الرافدية والإسلامية، ويعود الاقتباس إلى ص 248.

40- الربيعي - المصدر ذاته، ص 248.

41- معلوف أمين - الهويات القاتلة، ترجمة جبور الدويهي عن الفرنسية، دار النهار

للنشر، بيروت، ط شباط 1999.

42- شكري محمد- الشُّطَّار، دار الساقى، بيروت، لندن، ط 1992.

43- السواح - المصدر الأسبق، ص 253 + السواح - مصدر جلعامش السابق

الذكر، ص 112، اللوح الأول العمود الثاني، السطر 30 - 37.

"30- فدعوا (جميعا) آورو العظيمة قائلين: أنت يا من خلقت جلعامش.

31- اخلقتي له الآن نذا يعادله صخبًا في الفؤاد.

32- فيدخلان في تنافس دائم وتستريح أوروك".

33- سمعت آورو هذا، وتملّت في فؤادها صورة آنو.

34- غسلت يديها، وجمعت قبضة من طين رمتها في الفلاة.

35- في البراري خلقت أنكيدو العظيم، نسل... ننوريا

36- يكسو الشعر جسده، وشعر رأسه كامرأة

37- خصلات شعره تندفع سنابل قمح...

آنو هو إله السماء ونورتا (نجرسو) هو ابن إنليل رب الهواء والعاصفة المدمرة، وكان

نورتا إلهًا محاربًا وجبارًا عتيًا.

نرى في رواية أخرى جاءت لدى د. نبيلة إبراهيم في كتابها الموسوم بالملاحظة 10 أعلاه أنَّ جلجامش طغى وتجبّر وفتك واستكبر وسطا على أعراض الناس في حق الليلة الأولى- Prima NoctisLegis فشكاه القوم إلى آنو إله السماء. فدعا آنو الإله أورورو خالقة البشر وطلب منها خلق نِدَّ جلجامش للحدِّ من طغيانه. فصنعت أورورو البطل أنجيدو من ترابٍ بللته بلعاب الآلهة ثم قذفته في البرية...

هنا وفي هذه الرواية نرى عنصر الإلهي في أنجيدو فهو من تراب ومن لعاب الآلهة حيث جاء خلقه على صورة الإله.

44- الشدياق أحمد فارس - الساق على الساق فيما هو الفاريق، قدم له وعلّق عليه الشيخ نسيب وهيبه الخازن، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت 1966، ص 389.

45- مسرحية ملكة الحمام لحنوخ ليفين، ترجمة أنطوان شلحت.

46- هكذا يقول الصادق النيهوم في "صوت الناس" - دار الرئيس 1987 (ص 42)، وأتساءل أين أصبح جوهر الإسلام؟

47- هذه المادة خليط من عدة أساطير رافدية وسورية ويونانية وصينية في خدمة الواقع الحاضر والماضي والمستقبل.

48- الرايس حياة- الصادر عن مينا للنشر، ط1، القاهرة، 1995.

49- السواح فراس - مغامرة العقل الأولى، دراسة في الأسطورة، سورية وأرض الرافدين، منشورات دار علاء الدين، دمشق 2000، ط 12 ص 56.

50- السواح فراس - المصدر ذاته.

51- هيجل - "حياة يسوع" تعبير عن القلق والتوتر الروحي. ترجمة جرجي يعقوب - المدخل: د. د. روسكا، ط1 -، 1984، ط3 - 2007 منشورات دار التنوير، بيروت.

52- توين - "شهادة ميري"، مطبوعات سكريز، 2012. (باللغة الإنجليزية).

53- الإغواء الأخير للمسيح، ترجمة أسامة منزلي، دار المدى سوريا، ط4، 2006، ص 424، 563.

54- المصدر ذاته- ص 482- 483.

55- الفكرة من عند غادة نبيل ومصدرها فراس السواح (المصدر السابق ذكره في هامش رقم 49).

لاوتسو- هو المقصود هنا. والحكيم لاوتسو هو فيلسوف صيني غامض السيرة لكنه معروف، عاش في القرن الخامس والسادس ق.م وعاصر كونفوشيوس. وهو صاحب فلسفة التاوية. "التاو" هو الطريق إلى السماء لغة. لا يمكن تعريفه ولا إدراكه. وفكرة التاو شبيهة بفكرة الله دون تطابق. التاو هو الخميرة الفاعلة في الكون من داخله. وهو غير مشخص خالق كل شيء وموجود في كل شيء وهو غير متناه لا في الكبر ولا في الصغر. وهو عندما يكون غير متناه في الكبر يساوي كونه عندما يكون غير متناه في الصغر. موجود منذ الأزل في اللا مكان وفي كل مكان. والحكمة التاوية التي أسس لها لاوتسو تخلو من العبادات والطقوس، لكن مؤخرًا دخلت إليها طقوس اليوغا التي تهدف إلى السيطرة على الجسد واكتساب القوى الخارقة.

يقول لاوتسو: "هنالك شيء بلا شكل، موجود قبل السماء والأرض صامت وفارغ، قائم بنفسه لا يحول، شأنه الدوران بلا كلل، مؤهل لأمومة هذا العالم، لا أعرف اسمه فادعوه: التاو... العظيم... (به) امتداد في المكان... بلا نهاية... يعني العودة إلى نقطة المبتدى".

من يريد أن يتعمق فليرجع إلى كتاب التوتي- تشينغ لفراس السواح، منشورات دار علاء الدين- دمشق، ط 2، لسنة 2000.

يعتمد المقبوس بمتن الكتاب على العلوي هادي مؤلف المستطرف الصيني السابق ذكره في الملاحظة 29 ص 124- 125.

في روايته "حي ابن يقظان" يروي لنا أبو بكر بن طفيل بأسلوب قصصي فلسفة مسألة ميلاد حي، الذي يمثل الحياة والتي لا تتجلى إلا في يقظة العقل والروح في ضوء التلازم ما بين يقظة الحياة والمعرفة. ويقظان هو صيغة المبالغة من يقظ، أي كثير اليقظة أو كامل

اليقظة. يطرح ابن طُفيل احتمالين لهذا الميلاد: الأول أنَّ حي وُلد من الطبيعة من غير أم ولا أب، على أساس التوالد الطبيعي.

وبهذا تمثيل لقصة آدم، جسد آدم الذي تكون (وُلد) من عناصر الطبيعة أو الاسطقسات الأربعة، ومن ثم تمَّ بث الحياة فيه بالنفحة الإلهية. ثم كانت الطبيعة بمثابة الأم لحي فقامت بإرضاعه... وعن طريق موتها يواجه حي تجربته الأولى مع الموت. هنا وفي هذا الاحتمال يتشكل الميلاد العذري بمعناه الواسع، ليس فقط بدون واسطة الرجل، وإنَّما أيضًا بدون أم بيولوجية. فالأم هنا هي الطبيعة وعناصرها الأربعة، التراب والماء والهواء والنار.. بتدخل الآلهة. وأمَّا الاحتمال الثاني للميلاد العذري، فلا يحدثنا عنه نصر حامد أبو زيد في كتابه "هكذا تكلم ابن عربي" (الهيئة المصرية العامة للكتاب 2002، ص 105)، لا يحدثنا عن هذا الاحتمال الثاني، فلا ندري ما هو ولا ماذا يقصد. هذا مفهوم الميلاد العذري شبيه بميلاد السيد المسيح بفارق الأم العذراء في حالة يسوع والطبيعة في حالة حي. لكن في كلتا الحالتين تدخلت الإرادة الإلهية على شكل نفحة.

56- العلوي هادي - محطات في التاريخ والتراث، دار الطليعة الجديدة، سوريا دمشق، ط1، 1997. ص 82.

57- نبيل غادة - مجلة أدب ونقد، عدد مايو/ أيار 1997، أدب الهنود الحمر: إطلالة على المنسيين.

58- نولدكه ثيودور- تاريخ القرآن- ترجمة جورج تامر، بالتعاون مع فريق عمل مؤلف من السيدة عبلة معلوف- تامر، د. خير الدين عبد الهادي ود. نقولا أبو مراد (تعتمد الترجمة على إعادة الطبعة الرابعة للطبعة الثانية- لايتسغ 1909- 1938. الجزء الأول والثاني والثالث، ط1 بيروت 2004، دار النشر جورج المر 2000، هيلدسهام- زوريخ- نيويورك، بإذن من دار نشر ومكتبة ديتريش، فيسبادن، والطبعة الثانية عدلها تعديلًا تاماً فريدريش شفالي في الجزء الثالث "تاريخ نص القرآن" بالتعاون مع غ. برغشترسر وأ. بريستل، ويتضمن ثماني لوحات، لايتسغ- مكتبة ودار نشر ديتريش 1938.

59- المعموري ناجح- الأسطورة والتوراة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2002.

60- السواح فراس- المصدر السابق، في 49 مغامرة العقل الأولى.

61- معظم هذه المادة مأخوذة من مجلة أدب ونقد عدد مايو/ أيار 1997 أدب الهنود الحمر: إطلالة على المنسيين- غادة نبيل.

62- السواح فراس- المصدر المذكور في هامش رقم 16 لغز عشتار، ص 268- 269.

63- الملاحظة في هامش (55) لدى السواح والعلوي في المصدرين المذكورين فيه.

64- د. أبو زيد نصر حامد، نقد الخطاب الديني. سينا للنشر، ط 2- 1991، ص 205. كذلك الصادق النهوم، في معرض حديثه عن الطبيعة البشرية للسيد المسيح، يقول في كتابه مخنة ثقافة مزورة- صوت الناس أم صوت الفقهاء ص 98 (مصدر سابق، هامش (46): "وقصة السيد المسيح، لا يضيف إليها القرآن شيئاً جديداً على ما جاء في الأناجيل، لكنه يحذف منها مبدءاً إبعاد السيد المسيح وأمه، عن بقية الجماعة الإنسانية، بحجة أنها ليسا من طبيعة البشر. فهذا مبدءاً جديلي لا يخدم واقع الناس بل يخدم مؤسسة أكاديمية، تسخر الكلام لكي تعيش عاطلة على حساب الناس".

65- السواح فراس- دين الإنسان، بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني، منشورات دار علاء الدين- دمشق، 1998، ص 14.

66- السواح، المصدر ذاته، ص 305.

67- السواح، المصدر ذاته، ص 307.

68- راجع هامش (55).

69- معلوف أمين- ليون الإفريقي، رواية ترجمة عن الفرنسية عفيف دمشقية، بيروت دار الفارابي، 1990، ط 1، ص 6، 331.

70- ابن عربي، الفصوص، نقلاً عن السواح.

71- كما جاء في الهامش (27).

72. Frazer, James George. The golden bough, a study in magic and religion. I volume, abridge edition, paper back 1963.c.20.

73- الاتحاد الحيفاوية 9-1-2003 دراسة ترصد "بزنس الدجل في مصر". قام بها المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية. وأفادنا أنّ الناس يلجؤون إلى الخرافة ويتعلقون بأوهامها حين تضيق أبواب الأمل وتحاصرهم الشدائد. وإنّ نصف سيدات مصر يعتقدن بالسحر والشعوذة وإنّ الخلط بين الدين والسحر معتمد لدى هؤلاء المشعوذين فيدعون علاج الأمراض بتحضير الأرواح ويعالجون بالقرآن والكتب السماوية الأخرى. ورصدت الدراسة أنّ نحو 274 خرافة تتحكم في سلوك المصريين في الريف والمدن على السواء. وإنّ بعض الدجالين يدّعي النبوة.

74. Apuleius, the golden ass: A new translation penguin classics. Copyright c E.J. Kenny 1998

75- غريب سعيد (إعداد) موسوعة الأساطير والقصص، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن عمان، ط1، 2000، ص 57-58.

76- أيكه دافيد- السر الأكبر.. معلومات مذهلة عن خفايا الكون، الأحداث، ترجمة عبير المنذر، مؤسسة الانتشار العربي، ط1، 2005، ص 117.

77- المصدر السابق، ص 129.

78- عدوان ممدوح- دار قَدْمُس للنشر والتوزيع السورية، ط 2، 2004، ص 197.

79- المصدر ذاته، ص 198.

80- عبود مارون، مجدّدون ومُجترّون، 1948، ص 93، 111.





